المكتبة المالكية

# أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني
(ت: ١٠٤١هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور علي عمر

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

# أزهار الرياض فى أخبار عياض

## وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر
بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعة المنيا والإمام بالرياض
ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى،احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تاليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقترى التلمساني ، تحقيق: على عمر
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2010
1مج ، سم
تدمك : 978-977-341-495-5
1- المحدثون المغاربة
2-القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر،على ( محقق )
ب- العنوان

ديوى:922.13

رقم الايداع: 16751



# بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

## مقدمة التحقيق

### المؤلف وكتابه:

المؤلف: هو أحمد بن محمد بن يحيى أبو العباس المقّرى التلمسانى، المؤرخ الأديب الحافظ، صاحب نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، ولد سنة ٩٨٦هـ ونشأ فى تلمسان بالمغرب، وانتقل إلى فاس ومنها إلى القاهرة، وتنقل فى الديار المصرية والشامية والحجازية، وتوفى بمصر سنة ١٠٤١هـ ودفن فى مقبرة المجاورين.

وقيل: توفى بالشام مسمومًا.

والمقّرى: نسبة إلى مَقَّرة - بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة - من قرى تلمسان.

له عدا نفح الطيب، كتب جليلة منها: إضاءة الدجنة فى اعتقاد أهل السنة، وروضة الأنس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس، وعرف النشق فى أخبار دمشق، وله شعر حسن ومزدوجات رقيقة وأخبار ومطارحات كثيرة مع أدباء عصره.

ويعتبر المقّرى من أبرز وجوه المغرب الفكرية فى عصره، وقد تجلى ذلك فى كتاباته التى أسهم بها فى فنون عدة.

وكتابه أزهار الرياض الذى نقدم له اليوم فوق اشتماله على ترجمة القاضى عياض يمتاز بطائفة كبيرة من الأخبار والنصوص المغربية والأندلسية،

التى لم ترد فى نفح الطيب ولا فى غيره من الكتب المطبوعة حتى الآن، كما نقل عن كتب أخرى بعضها مفقود والآخر ما زال فى دور الكتب مخطوطًا.

ولذلك يعد نشره ثروة جديدة تضاف إلى ما سبق نشره من آثار المغرب والأندلس فى عالم الدراسات العربية.

هذا وحينما شرعت فى تحقيق هذا الكتاب رجعت إلى ما تيسر لى من نسخه المطبوعة والمخطوطة. ولم أشر إلى النقص فى بعض النسخ والزيادة فى البعض الآخر، أو الخطأ فى بعضها والصواب فى البعض الآخر، متخذًا النسخ كلها أصلاً يكمل بعضها بعضًا ويصوب بعضها بعضًا، وأشرت فقط إلى ما يضاف إلى متن الكتاب من كتب أخرى أو من عندى للتوضيح فى المواطن التى تقتضى التوضيح.

وأرجو أن أكون عند حسن الظن، وأن يكون جهدى موضع القبول.

والله ولى التوفيق.

القاهرة فى ربيع الآخر سنة ١٤٣١هـ

شهر إبريل ٢٠١٠م

**د. على عمر**

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وآله

## مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى أعلى مراتب العلماء الأعلام، وزكى منهم العقول الراجحة والأحلام، ومنحهم مآثر تقصر عن جمعها المحابر والأقلام؛ ومفاخرات طارت كل مطار. وجعل معاليهم زاهرة زاهية، وأضواء فهومهم نامية سامية، وأنواء علومهم هامعة هامية، بواكف الأمطار، وأطلعهم على دقائق الأسرار. وهداهم وهدى بهم إلى ترتيب المدارك، وتقريب المسالك؛ وجلى بمشارق الأنوار من معارفهم وآدابهم، عمن تمسك بأذيالهم وأهدابهم، غياهب الجهل الحوالك؛ فأضاءت الأقطار. وعرفهم المقاصد الحسان، والوسائل المغتبطة والإلماع، بأصول الرواية والسماع؛ والإعلام بحدود قواعد الإسلام؛ وإرشادهم إلى التنبيهات المستنبطة السامية الأخطار؛ حتى رفلوا من حلل التحقيق السابغة، فى مطارف[1] وبرود؛ ووردُوا من مناهل التوفيق السائغة، كل عذب برود؛ وتنسموا من حجج الحق البالغة، الروض المعطار؛ واجتنوا أزاهر، أضحت منية الطالب، وبغية الرائد؛ واجتلوا جواهر نظمت منها الدرر والفرائد؛ فى أجياد الأسطار. فإن أمَّهم ناقص عديم، ألفى لديهم الغُنية والإكمال؛ أو قصدهم عليل سقيم، وجد فى يديهم الشفاء، فنال غاية الآمال، وظفر بمنتهى الأوطار. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمّد

(١) المِطْرَف: رداء أو ثوب من خَزّ مربّع ذى أعلام.

أفضل العالمين بإطلاق، سراج المريدين، وكنز العارفين، الذى لا يُخشى معه إملاق، عمدتنا العظمى، ووسيلتنا الكبرى عند الملك الخلاق؛ صاحب المعجزات الباهرة، التى اهتدى بها ذوو الأفكار، والآيات الظاهرة، التى حصل بها التمهيد لمن له استذكار؛ الموطأ الأكناف والأخلاق، المنتقى من أعظم الذخائر، وأنفس الأعلاق، المختار من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، الذين لنجومهم فى سماء الحق ائتلاق؛ صلاة وتسليما دائمين، ما أنشئت فى ثنائه الأحمدى، وأنشئت بفنائه المحمدى، القصائد والأبيات والأشطار. وبعد:

فيقول أحمد ذو القصو ... رِ المقَّرىّ إذا انتسب

جبر المهيمن صدعه ... ووقاه سيئ ما اكتسب

وحباه منحة مؤمن ... محض العبادة واحتسب

وأسدى إليه من المواهب أسناها، ومن العواقب حسناها:

إنه لما سبق القضاء وجرت الأقدار، بارتحالى عن الوطن المحبوب والقرار، بعد أن شممت عراره النجدى ولا أشجان ولا أكدار، فى عشية لم يكن بعدها من عرار[1]؛ ونزحت عن بلد، به الوالد وما ولد؛ محل قطع التمائم[2]، وفتح الكمائم، سقى الله عهاده صوب الغمائم:

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة ... ومن الجسور المحكمات سواره

(١) العَرَار: نبات طيب الرائحة، الواحدة: عَرَارة.

(٢) التميمة ما يعلق فى العنق لدفع العين.

وكان ذلك وغصن النشاط يانع، وبرد الشباب قشيب، وشمل النفس مجتمع دون مانع، وكأس الأنس مزج بتسنيم القرب وشيب؛ وفود[1] الرأس غير خاضع ولا خانع، إذ لم تطرق ساحته ولم تجس خلاله جيوش المشيب؛ حللت الحضرة الفاسية - حاطها الله - حيث المجالس غاصة، بالعامة والخاصة؛ والمساجد آهلة معمورة، والمشاهد بالزوار مغمورة؛ وحُلل المعارف فضفاضة، والعوارف الجليلة مفاضة، حضرة ديباجها ربيعى، وامتزاجها بالنفوس طبيعى، ولم لا، وقد نظمت المفاخر ونسقتها، وجمعت المآثر ووسقتها، جادتها غر السحب وسقتها:

بلاد بها الحصباء در وتربها عبير وأنفاس الرياح شمول

تسلسل منها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل

فألقيت بها عصا التسيار، وقاها الله من الآفات والأغيار، واقتفيت فى ذلك سنن بعض سلفى الأخيار؛ إذ كان أشهر أسلافنا الشيخ الإمام - صاحب التصانيف الشهيرة التى اقتادت المحاسن بزمام؛ القاضى الأشهر، العلامة الأظهر، أبو عبد الله محمّد [بن محمّد][2] بن أحمد المقرى القرشى، التلمسانى النشأة والقبر، أفاض الله سجال الرحمة على مثوى ذلك الحبر - انتقل إليها أيام السلطان المرحوم أبى عنان فارس، فولاه قضاء جماعتها، وبنى له المتوكلية أعظم المدارس، حسبما ذكره غير واحد من أهل الفهارس، وأشار إليه الوزير ابن الخطيب فى كتاب «الإحاطة» التى أحيت من التاريخ الرسم الدارس.

---

(١) الفود: جانب الرأس مما يلى الأذن، والشعر النابت فوقه.

(٢) ما بين الحاصرتين تكملة عن الإحاطة ج٢، ص ١٩١.

ولم تزل كتب الأقارب والإخوان ترد على، وتثنى عنان اعتنائها إلى؛ وتكرر وتعدد، وتنتاب وتتردد، وتتنوع وتتجدد، فأرتاح إليها ارتياح الغصن عند هزته، وأحن إليها حنين كُثير إلى معاهد عزته:

يا من يذكرنى حديث أحبتى — طاب الحديث بذكرهم ويطيب

أعد الحديث علىّ من جنباته — إنّ الحديث عن الحبيب حبيب

وكثير ما يحرك ذلك منى كامن شوق، شب عمره عن الطوق؛ وأجد من لواعج الأوار، ما وجده الفرزدق عند مباينة النوار:

بلد الجزائر ما أمر نواها — كلف الفؤاد بحبها وهواها

يا عاذلى فى حبها كن عاذرى — يكفيك منها ماؤها وهواها

والحنين إلى الوطن مجال لكل حر ومضمار!

إيهٍ أحاديث نعمان وساكنه — إنّ الحديث عن الأحباب أسمار

وليس بمستنكر حنين الناب إلى عطنه، والمرء إلى محل نشأته ووطنه. وقد روينا فى الصحيح من حنين سيد الوجود عليه الصلاة والسلام وأصحابه إلى مكة، ما لا يجهله إلاّ من هو عن العلوم بمعزل. ومن الأبيات السائرة:

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى — وحنينه أبدا لأول منزل

ورب ذكرى أثارت الأشواق وحركتها، وأنشبت النفوس فى حبائل البوس وتركتها؛ وكم من ماجد بكى لفقد المشاهد، واهتم لبعد المعالم والمعاهد:

سلام على تلك المعاهد إنها  مراتع ألأفى وعهد صحابى

ويا سرحة الحى أنعمى فلطالما  سكبت على مثواك ماء شبابى

فلله تلك المعاهد، ما أبهج محياها! وحاط بعين كلاءته تلك المشاهد، ما أطيب رياها، حين باكرها الوسمى[1] وحياها:

حيا تلمسان الحيا فربوعها  صدف يجود بدره المكنون

ما شئت من فضل عميم إن سقى  أروى ومنٌ ليس بالممنون

أو شئت من دين إذا قدح الهدى  أورى ودنيا لم تكن بالدون

ورد النسيم لها بنشر حديقة  قد أزهرت أفنانها بفنون

وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت  فلها الشفوف على عيون العون

طالما ذكرت الأبلة وشعب بوان، وأنست صروف الزمان الخوان، وأنبتت أزهار أنس ذات ألوان، وثمار نخل من القرب، صنوان وغير صنوان، والشمل مجتمع بالجيران والإخوان؛ والروض مطلول النبات، مخضر العذبات، مخضل الجنبات، مفوف الخمائل، متضوع الشمائل؛ منساب الماء، منجاب السماء؛ والغصون متأودة الأعطاف، دانية الجنى والقطاف، والنسيم يعبق نشرا، والجو يتألق رونقًا وبشرا؛ فتقصر عنه أوصاف ذوى الإنصاف:

والزهر حيانا بثغر باسم  والنهر قابلنا بقلب صافى

ولآلئ الأنداء فى الغدير غرقى، ودموع النهر لا ترقا؛ والزهر يسقط، وأكف الريح تكتب، والغمام ينقط:

(١) الوسمى: مطر الربيع الأول.

كــأن أكف الريح تكتــب أسطرا على النهــر إلاّ أن أحــرفــهــا زُرق
فتــحنى عليهن الغصــون قدودها لتــقــرأها جــهــرا من الوَرق الوُرق

والورقاء تهتف لفقد إلف نازح، فتهيج شجو الجاد والمازح:

رب ورقــاء هــتــوف بالضـــحى ذات شـــجـو صـــدحت فى فنن
ذكـــرت إلفــا ودهــرا صــالحـــا فــبكت شـجوا فــهــاجت حــزنى
فـــبكـائى ربما أرّقـــهـــا وبـــكـــاهـــا ربمـــا أرقـــنـــى
فـــإذا تبــدؤنــى أســعـــدها وإذا أبدؤهــا تســـعـــدنـــى
ولقـد تبـكى فــمـا أفـهــمـهـا ولقـــد أبكى فـــمـا تفـــهـــمنى
غـيـر أنى بالــشـجـا أعـرفـهـا وهى أيضًـا بالشـــجـا تعـــرفنى

فأكرم بها مــن ذات طوق، عبرت عما فى ضميــرها من جوى وشوق، فساقت لواعج الأفكار أى سوق، وبينها وبين الصب فرق، عند ذوى الذوق:

وترنمت ذات الجـناح بســحــرة بالواديــين فــهــيـجت أشـــواقى
ورقــا تعلــمت البكا والــبث من يعـقـوب والألحـان من إسـحـاق
أنى تضـــاهينى هــوى وصـبـــابة وأسى وفـرط جوى وفيض مـآقى
وأنا الذى أملى الهوى من خاطرى وهــى الــتــى تمــلــى مــن الأوراق

فـمـا كــان أســرع من تمزيق ذلك الإهــاب، وحـصـول شـمله فى يد الانتهاب، وإنشاد لسان حاله عند الذهاب:

ألاّ إنَّ هـذا الــدهــر يوم ولــيــلــة يكران من سـبت عليك إلى سـبت
فقل لجـديد العيش لا بد من بلى وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت

وهكذا الدنيا إحلاء وإمرار، وإقرار وإنكار، وإعلان وإسرار؛ تعفى كل ربع عامر، وتبيد كل مأمور وآمر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بعدما نعمنا برهة من الزمان فى ظلال الأمان؛ وقطعنا نبذة من الشباب، فى مواطن الأحباب؛ ما بين دراسة ودراية ورواية، وممارسة أمور تبعد عن طرق الغواية؛ وتحبير طروس، وملازمة دروس، ومثول بين يدى أشياخ مجالستهم نامية الغروس؛ وخصوصا شيخهم الذى فضله لا يفترق إلى دلالة، عمنا مُفْتيها سيدى سعيد بن أحمد المقَّرى، شكر الله خلاله، فهو شيخ أولئك الأعلام الذين ورثوا العلم من غير كلالة، وعمروا ربوع المجد، وتفيئوا ظلاله، وأرشدوا إلى سبل الهدى، وأزاحوا عن الضلالة، وعمرت أرضهم بكل مجد وجلاله، وإن نَبَتْ بى عن جفوة وملاله؛ فآها على ذلك العصر ما أبهاه وأجمله! وأتمه وأكمله؛ عصر يكاد يكلمنا فيه الجماد، وتروينا الثماد؛ وتحيينا العشيات والبكر، ولا تنتابنا التعلات ولا الفكر؛ فإن سألنا فعنه فى الحقيقة، وإن صرحنا أو كنينا، فنعنى حماه وعقيقه:

نسائل عن ثمامات بحزوى وبان الرمل يعلم ما عنينا
وقد كشف الغطا فما نبالى أصرحنا بذكرى أم كنينا
ولو أنى أنادى يا سليمى لقالوا ما أردت سوى لبينى
ألاَ لله طيف كان يسقى بكاسات الكرى زورا ومينا
فأمسينا كأنا ما افترقنا وأصبحنا كأنا ما التقينا

وكنا نحسب أن الدهر لا يدور، وأن الأعـجاز صدور، والأهلة بدور؛ حتى ضـرب الدهر ضربانه، وبدد الرفـيق من ذلك الفريق وأبانه؛ فـلم تتأود قدود الأغـصان، ولم تترنح أعطاف البـان؛ وانقطعت الأسبـاب عن مواصلة الجيران والأحباب؛ الذين:

جرى بعضهم ذات اليمين وبعضهم شـمـالاً وقلبى بـينهم مـتـوزعُ

فو الله مـا أدرى بليل وقد مـضت حـمـولهم أى الفـريقـين أتبعُ؟

وهأنا الآن أحاول إطفـاء لهيب بالضلوع وقد، وأعـالج أدواء سقم جل وكيف لا وقد:

روعت بالبـين حـتى مـا أراعُ به وبالمصـائب فـى أهلى وجـيـرانى

لم يترك الدهر لـى عِلقًا أضن به إلاّ رمـاه بفـقـد أو بهـجـرانِ

وفى هذا التاريخ الغـريب، وردت كتب من تلك الناحية حـركت شجو الغريب؛ والشوق إلى لقائهم، والتوق إلى ما يرد من تلقائهم، يقتادان القلب بزمام فينقاد، ويوقدان نار الوجد بين الضلوع أى إيقاد:

هى الدار لا أصـحو بهـا علاقـة لأمـر لنا بيـن الجـوانح مـضـمـرِ

فجـاء على أرجائهـا الغيث أنـهـا منازل جـيـران كـرام ومـعـشـرِ

وكان من جـملة فصـولها، وفروع أصـولها؛ طلب التـعريف والإلمام، ببعض أحوال الشيخ الإمام، قاضى الأئمة وعلم الأعلام، عمدة أرباب المحابر والأقلام، ومفخـر علماء الإسلام، ذى الفضائل التى استـقلت رسومها، فلم تحتج إلى إعمال الأعلام؛ والمحاسن التى بهرت أقـمارا وشموسا، سيدى أبى الفضل عياض بن موسى؛ الشهـير الصيت فى كل قطر، صب الله على مثواه من الرحمات شآبيب القطر:

فــهــو الإمــام الذى ســارت مــآثره    فى الشرق والغرب سير الشمس والقمرِ
وكم له من تآلــيف قــد اشــتــهــرت    بكل قطر فــسل تُنبــيك عــن خــبــرِ

فقالت: نالى بهذا الأمـر يدان، ولو أيدنى كل قاص ودان؛ وماذا عسى أن أصف من جلالة يتهلل بشرها، وجزالة يتـضوع نشرها؛ وبلاغة تبذ بلاغة سحـبان، وبراعة تقاعس عـن رتبتها الشـيب والشبان، وعلم أظهـر غوامض الحقائق وأبان، وحلم أرسخ من رضوى وأبان؛ ومـحاسن، ماؤها غير آسن، وحلى، حازت مـراتب العلى، ومصنـفات، مقـرطات مشنفـات، أعلاق لا تعدلها الأثمان، ولا تشد على مثلها الأيمان[١]. .

على أنى لست من رجال هذا المجال، ولا من فرسـان ميدان الإحسان؛ إذ الباع قـصير، والعـقل بقواعـد العلم غير بصـير؛ والقلب حليف أشـجان وأوصاب، والفكر أليف غُصص تجرع منها جنى حنظل أو صاب؛ لا أستطيع إنشاء قول، ولا أفكر إلاّ فى هم أو هول؛ إلى ما دهم من الفتن، التى محت مـا بالدهر من ازديان؛ وطرق مـن المحن، التى يغنى عن خـبـرها العـيـان؛ فتنوعت مـنها الأعداد، إلى أفـراد وأزواج، وكثر الـترداد، من الخطوب ذات الجموع والأفواج؛ وتفاقم وازداد، هول بحورها المتلاطمة الأمواج:

حـملنا من الأيام مـا لا نطيـقـه    كما حمل العظم الكسـير العصائبا
وعـصـر رجـونا منه إبداء منحـة    فـأبدى ولكن مـحـنة ومـصـائبـا

وما حـال من قرت المصـائب عيـونه دموعـا وجوانحـه جوى، ورمـته النوائب عن قسى النوى؛ فخلع عـلى الكواكب كراه، وبرح به الشوق وبراه.

---

(١) الأيمان: جمع يمين، وهى اليد اليمنى.

وقطع ودج صبره وفـراه، واعتراه من الدهر ما اعتراه، وضـاعف ما به كذب حاسد افتراه؛ يأكل المحاسن، ويجهل بمساويه أن يحاسن؛ ويعيد الحق باطلا، والحالى عـاطلا؛ ويقلب المنحة مـحنة، ويرى المصافـاة إحنة؛ يخاتل مـخاتلة الذيب، ويكدر مناهل الخلوص والتهـذيب، ويقابل الحق الواضح بالتكذيب؛ ويشتغل بما لا يعنيه، ويعرض عما يقربه إلى ربه ويزلفه ويدنيه:

لى حـــيلة فـــيـــمن ينم ... ولـيس لـلكذاب حــــــيلـة

من كـــان يخـلق مــا يقــو ... ل فــحـيلـتى فـيــه قليـلة

إلى الله المشتكى من هذا وأضرابه، ممن لم تَصْفُ موارد شرابه:

مـضت أعمـارنا ومـضت سنونا ... ولم تـظفـــر بـذى ثقـــة يدانِ

وجــربنـا الزمـــان فلم يـفــدنا ... سـوى التخـويف من أهل الزمـانِ

ولا غـرو أن كان لأهل الزمـان اشتبـاه، ولله قول بعض أهل الذكـاء والتيقظ والانتباه:

والنـاس مـــثـل زمـــانـهم ... حـــذو الحـــذاء على مـثـــالهْ

ورجـــال دهرك مـــثـل دهـ ... ـرك فـى تقـلبـــه وحـــاله

ولذا إذا فــــســـد الزمــــا ... ن جـرى الفـســاد على رجــاله

أستغفر الله، هذه نفثة مصدور ذى ألم، أو هفوة مغمور ساعدها طغيان القلم:

نذم زمــــانًا مـــا لـه من جنـاية ... ونشكوه لو تغـنى عن المرء شكواه

ولا ذنب فــيـنا للزمـــان وإنّمــا ... جنينـا بـفـعـوقــبنا بما قـد جـنيناه

هو القدر الجارى على الكره والرضا ... فـصـبـرًا وتسلـيـمـا لما قـدر الله

ونفوسنا أولى باللوم، لو سلكنا سبيل خيار القوم؛ واقتفينا سنن التقوى، وتمسكنا بحبل التوفيق الأقوى:

وما دارنا إلاّ موات لَوَ اننا نفكر والأخرى هى الحيوانُ

شرينا بها عزًّا بهُونٍ جهالةً وشتان عزٌّ للفتى وهوانُ

وحق لمن علم تقلبات الدهر بأهله وتصرفاته، أن يستعمل ما بقى من عمره فيما يوصله إلى منازل النعيم المقيم وغرفاته:

للدهر قوس لا تزال سهامها تصمى الأنام أصاغراً وأكابرا

طوبى لمن هجر القبيح ولم يكن إلاّ على فعل الجميل مثابرا

جعلنا الله ممن ثابر على فعل الجميل، وبلغ من خير الدارين غاية التأميل.

وحين ورد على هذا الخطاب الذى تقدم، وألفى ركن الاصطبار كاد يتهدم أو تهدم؛ أضربت عن جوابه حينا من الدهر، وماطلت مقتضى دينه من يوم إلى يوم، ومن شهر إلى شهر؛ والأرض تميد اضطرابا واختلالا، والأحوال تزيد دنفا واعتلالا؛ وأنا أحوم على مناهل الجواب حوما، وأروم الورود فى مشاربها العذبة يوما فيوما؛ والأيام لا تسمح بنهله، ولا تفسح إليها فسحة، ولا توسعها مهلة؛ ثم وقع العزم والتصميم على جواب هذا السائل، راجيا من الله سبحانه أن يكون ذلك من أفضل القرب وأعظم الوسائل؛ ودخلت من هذا الباب بعد أن قرعت، وأخذت فى هذا الغرض وشرعت، وشربت من ماء التصنيف وكرعت، وبذرت فى أرض التأليف وزرعت، هذا مع أنى ما مهرت ولا برعت؛ ولا أتقنت لصناعة التأليف عملا:

لكن قـدرة مـثلى غـيـر خافـيـة والنمل يعذر في القدر الذى حملا

وكثـيرا مـا خرجت من الشىء إلى مـا يناسبـه ويدانيه؛ وربمـا أبعدت النجعة، ثم وقعت الأوبة والرجعة على رغم أنف قالى ذلك وشانيه، وقربت بذلك كله شاسـعا، كى تسهل مـئونته على مُـعانيه، وهصـرت أفنان ألفاظه ومعانيه؛ ليقرب اقتطافه لجانيـه؛ وسميته «بأزهار الرياض، فى أخبار عياض، وما يناسبهـا مما يحصل به ارتياح وارتياض» تسميـة وافقت إن شاء الله معناه، وناسـبت منزله ومـغناه؛ لأنه جـمع أزاهر ذات ألوان، من ورد وأقـحـوان؛ وبهار؛ عرفه ذو انتشار؛ ومنشـور، روضه مريع ممطور، ونسرين، يفوق أرجه مسك دارين؛ وآس، عاطر الأنفاس؛ وشقيق، خليق بالمدح حقيق؛ ونيلوفر، حاز مـن المحاسن النصـيب الأوفر؛ وأجـريت جداول أنهـار، من الحكايات لسـقى هذه الأزهار؛ فـأينع النوار، وتألقـت الأنوار، وتفنن الناظر بين أنجـاد وأغوار، ولـم يدر وقد انتـقل من أطوار إلى أطوار، وتأمل صرحـا بنى على غير شفا جرف هار:

أضـيـاء هدى أم ضـيـاء نهـار وشـذا المحـامـد أم شـذا الأزهار

وقد أفصح ترجـمان التراجم عن عدها وسردها، ولوح لنكتـة الاختتام بنيلوفرها والافتتاح بوردها.

وهى هذه الترجمة:

**الأولى**: روضة الورد، فى أولية هذا العالم الفرد.

**الثانية**: روضة الأقحوان؛ فى ذكر حاله فى المنشأ والعنفوان.

**الثالثة**: روضة البهـار، فى ذكر جملة من شيوخـه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار.

الرابعة: روضة المنثور، فى بعض ماله من منظوم ومنثور.

الخامسة: روضة النسرين، فى تصانيفه العديمة النظير والقرين.

السادسة: روضة الآس، فى وفاته وما قابله الدهر الذى ليس لجرحه من آس.

السابعة: روضة الشقيق، فى جمل من فوائده، ولمع من فرائده، المنظومة نظم الدر العقيق.

الثامنة: روضة النيلوفر، فى ثناء الناس عليه وذكر بعض مناقبه التى هى أعطر من المسك الأذفر.

فدونك أيّها الناظر روضات أزهار، وجنات تجرى من تحتها الأنهار؛ أبوابها ثمانيه، وقطوفها دانيه؛ تعطر منها نسيم الصبا بزهر الآداب، وسما إلى محاسنها من تعلق من التاريخ بأهداب؛ لم أسبق إلى مثلها فيما رأيت، وإن بعدت فيها عن المهيع المطروق ونأيت؛ والإنسان مغرم ببنيات أفكاره، وإن قوبل ما صدر منه بإنكاره؛ وقد أنشدت بلسان حالها، مخاطبة من رضى بانتسابها وانتحالها:

| | |
|---|---|
| سرح جفونك فى الحدا | ئق واجن أزهار الرياض |
| من ورد أحمر أو شقا | ئق أو بهار ذى بياض |
| واشرب بكاسات الرفا | ئق من عيون أو حياض |
| وانظر مناقب ذى الحقا | ئق عالم الدنيا عياض |

واكرع بماء التعريف زلالا، وأدر كأس التشريف حلالا؛ وارو من هذا النهر، واقطف ما شئت من أصناف الزهر؛ وأخطر هذه الروضة ببالك، وأدر إليها وجه قبولك وإقبالك؛ فمؤلفها وإن لم يكن بمصيب، ولا ممن له فى الإجادة حظ وافر ولا نصيب، فمن أُلّفت فيه تحسن بإحسانه وتنال المرعى الخصيب:

سلام مثل عرف المسك طيبا ... وحسنا مثل أزهار الرياض

على لفظ الجلالة والمعالى ... إمام الدين والدنيا عياض

إذا ما قيس بالعلماء طرا ... غدا بحرا وأضحوا كالحياض

وكنت حين شرعت فى هذا المجموع السامى، وأطلعت على بعضه صاحبنا الفقيه العلامة الأصيل الحاج الرحال، أبا الحسن سيدى على بن أحمد الخزرجى الشامى، حفظ الله كماله، وبلغه آماله، خاطبنى بقصيدة من نظمه، أسماه الله، ألمّ فيها بذكر هذا الموضوع بما يقتضيه شرف خلاله، وكرم جلاله؛ وأشار فيه إلى نقض عزم الرحلة التى نويت إذ ذاك للمكان الشريف، لا حرمنا الله من مشاهدته عن قرب، فى حفظ وعافية، بمنه ويمنه. وهى هذه، وأنشدنيها من لفظه، وكتبها بخطه، وأرسلها إلىّ، شكر الله صنيعه:

أمفتى الغرب أبدعتم طرازا ... نثرتم فيه أزهار الرياض

ونظمتم عقودا من لآل ... لجيد حلى المآثر من عياض

وأورقتم غصون علاه لمّا ... سقاها فكركم سقى الحياض

ونمقتم مطارف ما رأينا ... كطرتها سوادا فى بياض

وناديتم عقائلها فذلت ... شوامسها إليكم بارتياض

وأســـــــتم من الآثـار طرا | قــواعـد لا تســاوم بانتـقــاض
لك التـبـريز فى العليـاء فـاقض | على علـمـائهـا مـا أنـت قـاضى
تبــديتم بهــا بـدرا وحــزتم | خـصـال سباقكم دون اعـتـراض
نعـتم بـالكمـال بغيــر عطف | وكـلهـم بـذلك الـنعت راضـى
ومــا وفــوا بحــقكـم ولكن | يؤدى البـعض من بعض افـتـراض
بعلمكـم شـفـيـتم أرض غـرب | وكــانت ذات أحــشـاء مــراض
ولمّـا أن بدا مـنكـم فــــراق | توقــعت أن يئـول إلى انـقـراض
وأنّ نجـومـهـا بالبـعـد يخشى | عليـهـا من سـقـوط وانقـضـاض
فـأرسل شـافـعــا خل حـشـاه | بهـذا البعـد أمـست فى انفضـاض
يذكـــركم لـيــالى نيــرات | بأنسكـم تنيـر دجى المـضـاض(١)
يود الطرف يجـعلهـا اكـتـحـالا | مكان ســواده دون اغــتـمــاض
بحـق الله لا تبــدى دجــاها | بغــيــبــة بدركـم بعــد اتماض
ولا تمهل شـفـاعـة مـسـتـهـام | صــدوق الود فــى آت ومــاضى
ودم للديـن والدنيــا إمــامــا | وبحـر هدى علومكَ فى افـتيـاض
يعــم الأرض مــا لاحـت بدور | ومــا فــاحت أزاهر فـى رياض

يكرع منه الملوك علا ونهـلا، ويضرع فى الجواب فعلا لا قـولا؛ ويعيد السلام التام، الزكى العام، على المجلس العلمى، ورحمة الله تعالى وبركاته.

(١) المضاض: وجع يصيب الإنسان فى العين وغيرها مما يُمِضُّ.

انتهى ما كتب به صانه الله، وأضفى عليه حُلل المجد.

وقد ذكرت في هذا الكتاب حكايات مختلفة، وفنون مفيدة، يزداد الناظر بها معرفة حسبما جرت بذلك عادة كثير من الأئمة فى مصنفاتهم، ومجالس درسهم. وقد قال الماوردى، أقضى القضاة فى كتاب آداب الدين والدنيا: القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة؛ وذكر أن المأمون كان ينتقل فى قصره من موضع إلى موضع، وينشد قول أبى العتاهية:

لا يصلح النفس إذْ كانت مدبرة ... إلاّ التنقل من حال إلى حال

وقال أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء أحب إلىَّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم. وقال الشيخ سيدنا أبو القاسم الجنيد، رضى الله عنه، ونفعنا ببركاته: الحكايات جند من جنود الله، يقوى الله بها أبدان المريدين. وقال الإمام المواق فى كتابه المسمى «سند المهتدين» عن شيخه المنتورى، بسنده إلى أبى العباس بن العريف، قال: كنت فى مجلس أستاذى أبى على الصدفى أقرأ عليه الحديث، فقرأ يوما الحديث ثم أغلق الكتاب وجعل يحكى حكايات الصالحين، فوقع فى نفسى: كيف يجيز الشيخ أن يقطع حديث رسول الله ﷺ، ويحكى الحكايات؟ قال: فما تم لى الخاطر حتى نظر إلىَّ الشيخ شزرًا، وقال: يا أحمد، الحكايات جند من جنود الله يثبت الله بها قلوب العارفين من عباده. قال: فما بقى فى جسدى شعرة إلاّ قطر منها العرق. فلما رآنى دهشت قال لى: يا أحمد أين مصداق ذلك من كتاب الله؟ قلت: الشيخ أعلم؛ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ ... ﴿١٢٠﴾﴾ [هود] الآية. انتهى.

وهذا أوان الشروع وعلى الله قصد السبيل وهو حسبى ونعم الوكيل.

# روضة الورد فى أولية هذا الإمام الفرد

* * * * * * *

أقول وعلى الله أعتمد ومن بحر كرمه أستمد:

هذه ترجمة نذكر فيها أصله ومحتده، وأوليته ومولده.

قال الشـيخ الإمام الرحـال أبو عبد الله مـحمّد بـن جابر الوادى آشى، الملقب بشمس الدين، رحمه الله ورضى عنه:

هو عيـاض بن موسى بن عياض بـن عمرون بن موسى بن عـياض بن محمّـد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليَـحْصُبى السَّبْتى. هكذا ذكـر نسبه الشيخ أبو القاسم الملاحى. وعَمْرون ثبت عنده بنون بعد الواو[١].

ووقع فى معجم أصحاب الصدفى، للإمام الشهير القاضى أبى عبد الله محمّد بن عبد الله القضاعى، المعروف بابن الأبار: «عمرو»، دون نون[٢].

قلت: ونحوه لابن خاتمة فى الكتاب المسمى بـ «مزية المرية، على غيرها من البلاد الأندلسية».

وقال الشيخ أبو القاسم بن الملجوم:

اجتاز علينا القاضى عياض عند انصرافـه من سبتة قاصدا إلى الحضرة، زائرا لأبى بداره عشية يوم الاثنين الثامن لرجب، سنة ثلاث وأربعين وخمس

---

(١) وكذلك ثبت لدى ابن الخطيب فى الإحاطة ج٤، ص ٢٢٢.

(٢) ابن الأبار: المعجم فى أصحاب الصدفى، ص ٢٩٤.

مئة، وفى هذه العشية استجزته، وسألته عن نسبه؛ فقال لى: إنما أحفظ: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض. وأحفظ أيضًا بعد ذلك: محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض. ولا أعرف أن محمدا هذا هو أبو عياض أو بينهما أحد». انتهى كلام ابن الملجوم.

وقوله «اجتاز علينا» يعنى بمدينة فاس وقوله «قاصدا إلى الحضرة» يعنى مراكش.

وأفادنى الشيخ العارف المتبتل، الربانى البركة، سيدى حسين الزرويلى أبقى الله بركاته، وأدام وجوده والنفع به:

أن القاضى عياضًا، رضى الله عنه، لما دخل الحضرة الفاسية، حاطها الله، نزل بدار ابن الغرديس التغلبى بزنقة حجامة، حسبما أشار إليه ابن الأحمر، ولم تزل هذه الدار إلى الآن بيد أولاد ابن الغرديس.

وقال نجل عياض الشيخ الإمام أبو عبد الله محمّد بن عياض، قاضى دانية، على ما قال ابن خلكان؛ وقاضى غرناطة، على ما قال ابن قنفذ وغيره. ولعله تولى القضاء فيهما معا رحمه الله، المتوفى سنة خمس وسبعين وخمس مئة:

«كان أبى يقول: لا أدرى: هل محمّد والد عياض، أو بينهما رجل؟ فهو جده». انتهى.

وهو مثل ما حكى ابن الملجوم عن عياض كما سبق قريبا.

ورأيت فى تاريخ الشمس ابن خلكان، المسمى بـ«وفيات الأعيان» فى تعداد آباء القاضى عياض، خلاف ما سبق؛ ولا أدرى: هل ذلك تحريف من

الناسخ أو وَهم من المؤلف؟ ونصه: «عياض بن موسى بن عياض بن موسى ابن عياض بن محمّد بن موسى بن عياض اليحصبى». انتهى.

فأنت تراه قد أسقط «عمرون» فيما بين عياض وموسى[1]، وأسقط أيضًا «عبد الله» فيما بين «محمّد» و«موسى».

وقد وافقه على إسقاط «عبد الله» الشيخ العلامة ابن خاتمة فى «مزية ألمرية»، فإنه قال فى باب العين ما نصه: «ومن الغرباء: عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمّد بن موسى بن عياض اليحصبى». انتهى.

على أنَّ ابن خلكان وغيره من المشارقة ربما يقع لهم الغلط فى تاريخ أهل المغرب، لبعد الديار، ولغير ذلك، مما لا يخفى على ممارس علم التاريخ؛ كما أنَّ كثيرا من المغاربة لا يحررون تاريخ المشارقة، لما ذكرناه؛ ولذا قال شيخ الإسلام ابن حجر فى تأليفه المسمى بـ«إنباء الغُمر بأنباء العُمر» حين عرَّف بشيخه ولى الدين بن خلدون الحضرمى المغربى قاضى القضاة المالكية، بالديار المصرية، وهو صاحب التاريخ الكبير المشهور، الموسوم بـ«ديوان العبر، وكتاب المبتدأ والخبر، فى تاريخ العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» ما نصه:

«وصنف التاريخ الكبير فى سبع مجلدات ضخمة، ظهرت فيه فضائله، وأبان فيه عن براعته، ولم يكن مطلعا على الأخبار على جليتها، ولا سيما أخبار المشرق، وهذا بيّن لمن نظر فى كلامه». انتهى.

وأين هذا الكلام وقول الشيخ شمس الدين البغدادى فى الشيخ ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون المذكور، رحم الله الجميع:

---

(١) لم يسقط ابن خلكان ٣/٤١٣ ط. دار صادر: «عمرون» كما هنا، وإنما وضع بدلها «عمرو».

قاضى القضاة ابن خلدون أتى عجبا | تاريخه مخبر عن سائر الدولِ
قالوا ولى فقلنا من كرامته | وكشفه جاء يُنبينا عن الأول
وليس بِبدْعا ولا فى الله ممتنعا | أن يجمع العالم الكلى فى رجلِ

وبالجملة فما ذكرنا أولا فى تعداد آباء القضى عياض، رحمه الله، هو الذى عليه المعول، وعليه اعتمد ولده، وابن الملجوم، وابن بشكوال[1]، وابن جابر، وابن الخطيب فى «الإحاطة»[2]، وغير واحد؛ وكفى بهؤلاء حجة. وناهيك بولده وابن الملجوم، الذى أخذ ذلك من لفظه، حسبما سبق آنفًا؛ وهو الصواب الذى لا يُعدل عنه، والله تعالى أعلم.

واليَحْصُبى، بضم الصاد وكسرها، وزاد بعضهم فتحها، ونحوه لابن خلكان[3]؛ واقتصر بعضهم على الكسر قائلا: وهو الصواب، بناء على أنها، أعنى القبيلة، يحصِب، بكسر الصاد، كتغلِب. ولا أشك أنَّ النسب إليه إن كان بكسر الصاد: يحصِبى، بالكسر كتغلِبى؛ وأما ضم الصاد فى النسب فهو مبنى على أن «يحصُب» بضم الصاد فى الحى. قال ابن سيده فى محكمه: ويحصب: قبيلة، وإنّما هى يحصب، يعنى بضم الصاد، نقلت من قولك: حصبه بالحصى يحصبُه؛ قال ابن جابر: وليس بالقوى.

ويحصب: من حمير، وهو يحصب بن مدرك، حسبما هو مذكور فى كتب الأنساب.

قال القاضى أبو عبد الله محمد بن القاضى أبى الفضل عياض:

---

(١) لم يرد لدى ابن بشكوال فى الصلة سوى: «عياض بن موسى بن عياض اليحصبى».

(٢) الإحاطة ج٤، ص ٢٢٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٨٥.

«استقـر أجدادنا فى القديم بجهـة بسطة، من بلاد الأندلس، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، فلا أدرى أكان قبل استقرارهم بالأندلس أم بعده؟ ولذلك يقول عبد الله بن حكيم:

وكـانت لـهم بالقـيـروان مـآثر عليهـا لِمَحض الحق أوضح برهانِ

قال:

وكان «عمرون» والد جـد أبى، رحمة الله على جميعـهم، رجلاً خيرا صالحـا، من أهل القرآن، حج إحدى عشـرة حجة، وغزا مع ابن أبى عـامر غزوات كثيرة، وانتـقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة، بعـد دخول بنى عبيد المغرب، وكان سـبب ذلك أنّه كان له لأبيه نباهة بمدينة فـاس، فأخذ ابن أبى عامـر رُهُنًا من أعيـان مدينة فاس، فـأخذ فـيهم أخوى «عـمرون»: عـيسى والقاسم، فخرج عمرون إلى مدينة سبتة، ليقرب من أخبارهما بمدينة قرطبة، فاستحسن سكنى مدينة سبتة، وكـان موسرًا، فاشترى بها أرضًا وهى المعروفة بالمنارة، فبنى فى بعضـها مسجدًا، وفى بعـضها دارا، حبسهـا على المسجد، وهو حتى الآن منسـوب إليه، وحبس باقى الأرض للدفـن، ولم يزل منقطعا فى ذلك المسجـد إلى أن مات، رحمه الله، سنـة سبع وتسعين وثلاث مـئة. وولد له قبل وفـاته بيسـير ابنه عيـاض، ثم ولد لعياض ابـنه موسى، ثم ولد لموسى ابنه عياض، أبى، رحمهم الله أجمعين؛ وذلك، فيما رأيته بخطه، فى النصف من شعبان عام ستّة وسبعين وأربع مئة بسبتة». انتهى.

والسبـتى: نسبـة إلى سبـتة، مدينة بسـاحل بحر الزقـاق، مشـهورة، واختلف فى سبب تسـميتها بذلك، فـقيل لانقطاعها فى البـحر، من قولك: سَبَتُّ النعل: إذا قطعتها، وقيل لأنَّ مختطها هو سبت بن حام بن نوح، وإلى

هذا الأخير ينظر قول لسان الدين الوزير الشهير، العلامة أبو عبد الله بن الخطيب السلماني الغرناطي، رحمه الله، من قصيدة:

حييت يا مختط سبت بن نوح   بكل مُزن يغتدى أو يروح
مغنى أبى الفضل عياض الذى   أضحت برياه رياض تفوح

وفيها يقول الأديب أبو الحكم مالك بن المرحل، من قصيدة طويلة بديعة جدا، مطلعها:

سلام على سبتة المغرب   أُخية مكة أو يثربِ

وفي مدحها يقول أيضًا رحمه الله:

اخطر على سبتة وانظر إلى   جمالها تصبو إلى حسنهِ
كأنها عود غناء وقد   أُلقى فى البحر على بطنهِ

وقال الحجارى فى المسهب:

«أوّل من سكن بر العُدوة وبر الأندلس من ولد نوح بعد الطوفان، سبت وأندلس ابنا يافث بن نوح فنزل سبت فى آخر المعمور من بر العدوة، وبنى له منزلا فى موضع سبتة فدعيت باسمه، وتناسلت منه قبائل البربر، واتسعت فى بر العدوة إلى أن بلغت إلى فلسطين، وكان ملكهم يسمى جالوت، وكان مجوسيا، وهزمه طالوت، وقتله داود، فانضمت البربر عن فلسطين، وعن الديار المصرية، واقتصرت من برقة إلى آخر المعمور؛ وسكن أخوه أندلس مقابلا له فى انتهاء المعمور فعرفت باسمه». انتهى.

وأكثر بلاد العدوة فى الإقليم الثالث، وفيه حضرتها مراكش، وما قارب منها الأندلس كسبتة، وما قرب منها فى الإقليم الرابع.

قال ابن سعيد:

«ولا نطالب فى هذا البـر بما صنعناه فى الأندلس، فأهل الأنـدلس إما عرب أو متعربون، قد توارثوا قوام اللسان وحافظوا عليه، وأهل بر العدوة أما بربر أو متبربرون». انتهى.

وفى وصفها يقول لسان الدين بن الخطيب فى مقامة وصف البلدان:

«قلت: فـمدينـة سبـتة؟ قـال: تلك عـروس المجلى، وثنيـة الصبـاح الأجلى؛ تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهـها من البحر فى المرآة الصقيلة، واختص ميـزان حسناتها بالأعمـال الثقيلة؛ وإذا قامت بيـض أسوارها، وكان جبل بليونش شمامة أزهارها، والمنارة منارة أنوارها؛ فكيف لا ترغب النفوس فى جـوارها، وتهـيم الخـواطر بين أنجـادها وأغـوارها؛ إلى الميناء الفلكيـة، والمراقى الملكية. والركية الزكيـة، غير المنزورة ولا البكية، ذات الوقود الجزل، المعد للأزل، والقصور المقصـورة على الجد والهزل؛ والوجوه الزهر السحن، المضنون بهـا عن المحن؛ دار الناشبـه، والحامـية المضـرمة للحـرب المناشـبه؛ والأسطول المرهوب، المحظور الألهوب، والسلاح المكتـوب المحسوب، والأثر المعـروف المنسوب؛ كـرسى الأمراء والأشـراف، والوسـيطه، لخامس أقـاليم البسـيطه، فلا حظ لهـا فى الانحراف؛ بصـرة علوم اللسان، وصنعـاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ... ﴿٩٠﴾﴾ [النحل]، الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميـزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان، وكـفاها السكنى ببليونش فى فصول الأزمان، ووجود المسـاكن النبـيهة بأرخـص الأثمان؛ والمدفن المرحـوم غيـر المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثـار المنبئة عن أصالة الحلوم؛ إلا أنها فـاغرة الأفواه

للجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تعد من الذنوب؛ فأحوال أهلها رقيقه، وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقه، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقه، وأنساب نفقاتهم فى تقدير الأرزاق عريقه؛ فهم يمصون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم، بالبشير المهاجم، وراعى الجديب بالمطر الساجم؛ فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندى فى مكة والمدينة». انتهى.

قلت: ولعله عرض بقوله: «الشك عندى فى مكة والمدينة»، بقول مالك بن المرحل: «أخية مكة أو يثرب». والله اعلم.

وكان لسان الدين بن الخطيب كثيرا ما ينزل فى وجهاته المغربية، عند الشريف الشهير، سيدى أبى العباس أحمد بن سيدى محمد، ابن سيدى أحمد، ابن سيدى طاهر، ابن سيدى رفيع، ابن سيدى على المدعو بالمكين، ابن سيدى أحمد، ابن سيدى على، ابن سيدى أبى الطاهر، ابن سيدى الحسين، ابن سيدى موهوب، ابن سيدى أحمد، ابن سيدى محمد، ابن سيدى طاهر، ابن سيدى الحسين، ابن مولانا على، المدعو بالهادى، ابن مولانا محمد، المدعو بالجواد، ابن مولانا على الرضا، ابن مولانا موسى، المدعو بالكاظم، ابن مولاى جعفر الصادق، ابن مولاى محمد الباقر بن زين العابدين ابن مولاى على، ابن مولانا الحسين الشهيد، ابن مولانا أمير المؤمنين، مولانا على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ونفعنا ببركته هؤلاء السادات، الذين سردنا أسمائهم تبركًا بها.

قال صاحب كتاب «الكواكب الوقادة، فى ذكر من دفن فى سبتة من العلماء والصلحاء القادة» :

«كان هذا السيد الشريف يوسع ابن الخطيب إكراما، وكان من عادة الشريف المذكور أن يخرج إلى بساتينه فى المصيف بقرية بليونش، كمنية العبا، وجنة الحافة، ويخرج فى القبة السامية المطلة على البحر بجنة الحافة، ويجعل الطريق تحته، فإذا رأى جماعة سائرين من أى صنف كانوا، من التجار أو الغرباء أو البلديين، يوجه رجاله إليهم، ويقدم لهم الطعام، ويرتاح إلى ذلك، ويسر به ويؤنس كلاً بما يناسبه، من ذكر عيون أخبار بلده، وخاصية قطره، وما يجر إلى ذلك ويرجع إليه، من بديع الحكايات، ولطيف النوادر؛ ثم يأمر بإدارته على تلك البساتين، ورؤية ما بها من المصانع[1]، ثم يبعث وراء آخرين، وينزل كل واحد منزلته، ويغيب عمن يخجله حضوره؛ ويغضى عن مداعبة إن وقعت، ويتجاهل الهفوة إن بدرت. وكان يخرج الوزير ابن الخطيب - عند نزوله عنده - إلى هذه القرية البليونشية.

ومن بديع نظم ابن الخطيب فيها:

بليونش أسنى الأماكن رفعة ... وأجل أرض الله طرًا شانا

هى جنة الدنيا التى من حلها ... نال الرضا والروح والريحانا

قالوا القرود بها فقلت فضيلة ... حيوانها قد قارب الإنسانا

(١) المصنع: شبه الحوض يجسمع فيه المطر ونحو. جمعه مصانع. والمصانع: المبانى من القصور والحصون والقرى والآبار وغيرها من الأمكنة العظيمة.

وفيها يقول القاضى عياض:

بـليـــــونـش جـنـة ولكـن طريـقـهـا يقـطع النيـاطا
كـجـنة الخلـد لا يراهـا إلاّ الذى جـاوز الـصـراطا

ونقلت من خط ابن حيان - بعد كلام فى سبتة - ما نصه:

«ومـتنزهاتها أعظمـها بليونش، تحتـوى على مياه عيـون، وأودية، ومتنزهات، وأبنية عظيمة؛ وفيها من جميع الأشجار والثمار».

وفيها يقول أبو الحجاج المنصفى:

بلـيـونـش شكلـهـا بـديع أفـرغ فـى قـالب الجـمـالِ
فـيـهـا الـذى مـا رأته عـينى يومًـا ولم يـخـتطـر ببـالى
طريقـهـا كـالـصـدود لكن تعـقـبـه لـذة الوصـالِ

قال ابن رشـيد: وأنشـدنى القاضى أبو عـبد الله محـمد بن أبى عـبد الرحمن الكميلى قاضى أَزَمُّور فيها:

بلـيـونش كلـهـا عـذاب فـالمشى فى سـبلهـا عـقـاب
يكـنفـهـا شـامخ منيف كـأنـه فـوقـهـا عـقـاب

وهذا الشامخ يعرف بجبل موسى. وإليه أشار المنصفى فى مخمسة:

وطود موسى لها تاج على الراس

وبهذا الجبل متعبد مبارك، وبساحله مغطس المرجان، ومن عجائب هذا المتعـبد أنَّ من دخله ممن ليس له أهلاً فـإنه يجد فى عنقـه صفعًـا إلى أسفل الجبل؛ وهو مسيرة ثلاثة أميال، وهو من سبـتة على تسعة أميال، وبهذا الجبل

منشأ القرود، وهو مستشرف على بعض الأندلس. وبسبتة مدرسة بناها أبو الحسن الشارى، ووقف بها كتبا عظيمة.

وبموضع يقال له التوتة يوجد كثير من الياقوت الأحمر دقيق. ومن عجائبها أن البُلاَّرج لا تعشش فيها، وقلما تخطر عليها. ويقال إنها بناها سبت بن سام بن نوح، وأنّه دعا لها باليمن والبركة، ورووا فى ذلك حديثا عن مالك عن نافع عن ابن عمر. قال عياض: وأبرأ أنا من عهدته، وقد خرجه فى الغنية، ولذلك قال بعض الشعراء:

فكل جبار إذا ما طغى وكان فى طغيانه يسرفُ

أرسله الله إلى سبتةٍ فكل جبار بها يقصفُ

أنشدهما أبو عبد الله محمد بن حمادة البرنسى، خال أبى لأمه، فى كتابه المسمى بـ«المقتبس، فى أخبار المغرب والأندلس».

ومن نظم المنصفى فى بليونش من قصيدة:

انظر إلى نضرة زهر الربا كأنه وشى على كاعبِ

ومتع الطرف ببليونش ومائها المنبعث الساكبِ

تشاركت والحسن فى وصفها تشارك العين مع الحاجبِ

وقد أرتنا اليوم من حسنها ما لم يكن فى زمن الحاجبِ

والحاجب: أحد ملوك سبتة؛ وله عمل ابن مرانة قصيدة فى الكوائن والحوادث.

فعالة بالطبع فى أهلها ما تفعل القهوة بالشاربِ

تذكر الشيخ زمان الصبا وتفسد التوبة للتائبِ

وله:

انظر إلى بهجة بليونش وحسن ذاك المنظر اللامع

تحكى الثريا عندما أسرجت بليلة الختمة فى الجامع

ولمّا قفل السلطان الأشهر أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر من المغرب، حين رجوعه إلى بلده مع قاضى حضرته غرناطة، أبى الحسن على ابن الحسن، المعروف بالنباهى شيخنا، ووزيره أبى عبد الله بن الخطيب، صنع له ضيافة ملوكية بالمنية، من قرية بليونش المشار إليها، حيث القصر هناك، وعنصر الماء المختص بها. ومن هناك ركب البحر ليلا، وذلك فى جمادى الأخرى من عام ثلاثة وستين وسبع مئة. وفى الحادى والعشرين من الشهر المذكور دخل دار ملكه حمراء غرناطة، وأكل من فضل هذه الضيافة معظم من كان بالقرية، من قوى وضعيف، ورفيع ووضيع.

وكان شيخنا القاضى أبو الحسن المذكور يثنى عليه، ويعظمه تعظيما يليق بمثله، ويقول فى أثناء حديثه: فعل أبو العباس الشريف صاحب سبتة كذا، وصنع كذا. ولم تزل حالته هذه، رحمة الله عليه، إلى أن أسن وأقعد، فلزم منزله ثلاث سنين، من غير أن ينقص ذلك من منصبه شيئًا، ولا من انتفاع الناس به؛ وكان أبيض اللون، حسن الهيئة والملبس، يخضب بالحناء؛ وتوفى فى زمانته وقد نيف على الثمانين، عام ستة وسبعين وسبع مئة، وله الآن قرابة بمدينة فاس بقيد الحياة».

انتهى كلام صاحب الكواكب الوقادة باختصار، وبعضه بالمعنى.

ومن نظم هذا الشريف، مما أمر به أن ينقش بالقبة المذكورة آنفًا فى معنى الاستعاذة:

وثقت بالله ربى وحسبى الله حسبى

والله كافٍ وواقٍ ودافع كل خطب

ولست أخشى إذا ما وثقت بالله ربى

بلغت فيها مرادى مُهناً مع صحبى

والخمس تفقأ عينًا لكل حاسد ندبِ

وكان السلطان المرحوم أبو عنان فارس، ابن سلطان أبى الحسن المرينى يجل هذا الشريف، ويعترف له بالفضل، ويعطيه العطاء الجزل، وكان يستدعيه كل سنة إلى حضرته فاس، لحضور المولد السعيد، الذى سنه ببلاد المغرب الشيخ أبو العباس العزفى، وتلك السُّنَّة إلى الآن بحسن نيته، واعتنائه بالجناب العلى، نفعه الله بذلك، ويخلع عليه الخلع الملوكية، ويعد له ديناراً مسكوكا يصنع بمدينة مراكش، زنته مئة دينار ذهبًا، يدفع له ذلك مع جائزته، إلى غير ذلك مما كان يتحفه به، رحمه الله، ويصحبه فى وجهته تلك من الضعفاء والتجار ما لا يحصى كثرة، ويتولى هو الإنفاق على الجميع من ماله، ويرفع عنهم اللوازم المخزنية، فكان التجار لأجل ذلك يرصدون وقت سفره وقفوله. وقدمه السلطان أبو عنان المذكور ناظرا على بلده سبتة، وأمر صاحب قصبتها ألا يقطع أمرًا إلاّ بمشورته، فكان العمال يخافونه ويشاورونه، فإذا رأى من أحدهم خروجا عن العادة، أو حيفا على الرعية، كتب إلى السلطان فى شأنه، فيعزله من فوره، ويعوضه بغيره. وكان يقول للسلطان: لعلك تحسبنى خديما، لست كذلك، وإنّما نحن معشر أهل البيت شفعاء فى الدنيا، وشفعاء فى الآخرة. فكان أهل سبتة فى أيامه فى عيش هنى، ونعمة شاملة، بقى على هذه الحالة المرضية مدة عشرين سنة. وله بسبتة آثار تحكى

الآثار العزفية، كالرياض الأعظم، الذى أمام باب الميناء الأسفل الذى تأنق فى بنيانه وأبدع صنعته، وجلب إليه الماء بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة؛ وكالرياض الذى بالصفارين، حيث كان قعوده مع خواص الناس وعامتهم.

قال صاحب الكواكب الوقادة:

«سمعت أحد كتّابه الخاص به، الملازم له ليلاً ونهاراً، مع مرور الأيام والسنين، يقول: ما أمرنى قط سيدى ومولاى الشريف بكتب شىء مخالف للشرع، بل فى رفع المظالم، وإنهاء الشفاعات، وتوجيه الأمانات، وما فى معنى ذلك، مما ندب إليه الشرع، وحض عليه، ووعد بالثواب على فعله. وطالما سمعت الكاتب المذكور يقسم على ذلك، فنفعه الله به». انتهى.

قلت: تذكرت بهذا الفعل الجميل ما كتب به على دواة أمير المؤمنين أبى عنان، رحمه الله، وهو:

أنا دواة فارس ... أبى عنان المعتمد
حلفت من يكتب بى ... بالواحد الفرد الصمد
أنَّ لا يمد مدة ... فى قطع رزق لأحد

وقد رأيت فى هذا الأيام دواة فى غاية ما يكون من الإتقان والصنعة والتذهيب، وفيها مكتوب البيتان الأخيران، وهى عند بعض أصحابنا الكتاب بالحضرة الفاسية - حاطها الله - وأظنها هى الدواة التى كانت لأبى عنان، والله اعلم.

## رجع إلى ذكر الشريف

وكان الشريف المذكور يصنع أنواع المطاعم الرفيعة، ويتبسط فى ألوانها، ويطعمها الغنى والفقير، والقوى والضعيف، ممن يحضر مجلسه أو يأتى إليه، وبالجملة فهو قطب الجود الذى عليه المدار، وإمام الأدب الذى لا يجاريه الرَّضِيُّ ولا مِهيار؛ ومن نظمه، وقد ساير قاضى الجماعة بحضرة غرناطة، أبا البركات البلفيقى الشهير بابن الحاج السلمى، من ولد العباس بن مرداس رضى الله عنه، زمن الشبيبة فى بعض أسفاره ببر الأندلس، فلما انتهيا إلى قرية بزليانة وأدركهما النصب، واشتد عليهما حر الهجير، نزلا وأكلا من باكر التين الذى هنالك، وشربا من ذلك الماء العذب، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلا بظلها، ثم التفت إلى الشريف وقال:

ماذا تقول، فدتك النفس فى حالى     يفنى زمانى فى حل وترحال

وأُرتج عليه؛ فقال لأبى العباس: أجز؛ فقال بديها:

كذا النفوس اللواتى العز يصحبها     لا ترضى بمقام دون آمال

دعها تجوب الفيافى والقفار إلى     أنَّ تبلغ السؤل أو تفنى بتجوال

وكان عطاء هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال، ثلاثين دينارًا من الذهب العين فى رأس كل شهر، وهو خاتمة الشرفاء العظام بمدينة سبتة. ولهؤلاء الشرفاء بمدينة سبتة نحو الثلاثين قبرًا، فى روضتهم المنسوبة إليهم، بالجانب الشرقى من رابطة الفصال. وهؤلاء الشرفاء من ذرية أبى الطاهر الذى خرج من جزيرة صقلية، وكانت لهم بسبتة وجاهة وسياده، وجلالة ومجاده؛ لمكان بيتهم الشريف، ونسبهم العالى المنيف؛ ما منهم واحد إلاّ غذاه العلم

بلبانه، والأدب ببيانه. وولى منهم قضاء بلدهم سبتة رجلان، لم يطلع مثلهما الملوان؛ تقى وعلمًا، وأناة وحلما؛ أولهما القاضى أبو الشرف رفيع، والثانى ابنه القاضى أبو الحسن على. وكم نشأ عن هذا الأصل الطاهر من جهبذ نحرير، وعالم ماهر؛ وسخى جواد، له إلى الإعطاء ارتياح وإلى الكرم استناد؛ وناهيك بخاتمتهم أبى العباس المذكور.

وكان فائد مضرب الميناء لهذا الشريف الحسينى، دون أن يَشْرَكه غيره؛ وكان له بمضرب أويات يوم يضرب فيه، ويومان لبيت المال، وكانت عادة عامل المضارب، الناظر فى فوائدها وما تحتاج إليه من نفقة وآلة، أن يأمر رجاله وأعوانه، حين يقعد النواتية الكيس، بالوقوف إليه، والدفاع عنه، بعد أنَّ يحضر الشهود، خفرًا وضبطًا لما يحصل من فائد المضرب المالى فى يوميه؛ فإذا كان يوم السيد الشريف يأمر رجاله وخادمه وأعلاجه الإسلاميين، بإباحة المضرب للمساكين، وتفريق الحوت على من لا يصل إليه، ممن يحضر متنزها، إما لحفظ مروءة، وإما لغير ذلك. ولا يزال الناظر من قبله، وهو القائد فارح أحد أعلاجه، واقفًا على حصانه، وقد أحاطت به رجاله، إلى أن يرضى كل من يحضر، وما فضل عن ذلك فهو له. وأما السيد الشريف فلا يحضر، إذ همته أرفع من ذلك، وقدره أعظم، ومكانته بسبتة مكانته، بحيث يأتى إليه فى الموضع الذى أعده لجلوسه برياضه الذى بالصفارين صبيحة كل يوم صاحب القصبة، كائنا من كان، مسلمًا عليه، ثم ينصرف، ثم يأتى الوالى على قبض الجباية مسلمًا، ثم ينصرف بعد تقبيل قدمه، ثم يأتى صاحب الشرطة، وكذا جميع أمراء سبتة، إلاّ القاضى، لمكان خُطته، فيعامل كلا بما يستحق من إكرام وإهانة، وإغلاظ ومجاملة، فلا يتخلف أحد عن

غرضه، ولا يصدر إلاّ عن رأيه ونظره. وهذا كله مع النصيحة للمسلمين، وجلب المنفعة لهم بالقول والفعل، وإطعام الطعام الذى لا يقدر عليه الأمير فمن دونه، ورفع المظالم، ومنح الجاه، إلى غير ذلك، نفعه الله. فكان من حكمة الله عز وجل وبركة أهل البيت، وفضل الجود والكرم ومكارم الأخلاق، وإيصال المنفعة للعباد، أن يخرج فى اليوم الذى له بالمضرب من الحوت، أى نوع كان من الجارى، أضعاف ما يخرج فى اليومين، ويحصل له من الفائد أكثر مما يحصل لمتولى النظر فيهما، فيتصل بيده من فائد يومه خمس مئة الدينار وسبع المئة، وربما يزيد وينقص؛ وقد انتهى فى بعض الأحيان إلى ألفى دينار فى اليوم، حسبما يسنِّيه الله عز وجل؛ هذا بعد العادة التى عودها نفسه النفيسة، من الإيثار والبذل، للسرى والنذل. ولم تكن له همة، رحمه الله، فى احتكار المال وجمعه، بل يصرف ذلك كله فى إطعام الطعام، الخاص والعام، وفى تشييد البنيان، والإنفاق على الفعلة والصناع والخدام، وآثاره ومصانعه بداخل سبتة وخارجها شهادة بذلك مدى الأيام؛ وكم فى أثناء هذا التصرف من مؤاساة فقير، وإعانة ضعيف، وإغاثة ملهوف، برفع لازم أو وظيف[1]، حسبما هو معلوم معروف منقول.

وكان ملوك بنى مرين يعتنون به أتم اعتناء، ويبادرون إلى موافقة أغراضه، وقبول شفاعته، وما كان يتلقاه حين وروده على حضرتهم فاس إلاّ الملك بنفسه، إلى غير ذلك من مناقبه رضى الله عنه، ونفعنا به، وبسلفه الطاهر.

---

(١) المراد به الوظيفة، وهى الراتب الجارى من الأرزاق ونحوها.

قلت: وإنّما ذكرت التعريف بهذا الـشريف الفياض، تفاؤلا بالابتداء به بعد عياض، لأنى اشترطت أنى أخـرج من الشىء إلى ما يناسبه، فبدأت فى ذلك بهذا السـيد الشريف، الذى عظمت مـجادته، وكرمت مناسـبه، وزكت مـآثره، وعلت مناصبـه؛ والأعـمال بالنيـات، والله يبلغنا فى الدارين غـاية الأمنيات.

وبعد أن بلغت سبتة ما ذكـرناه من أحوالها، وبقيت مدة آمنة من شرور الدنيا وأهوالها، وأطلعت فى سمائها نجومـها، كانت علومها للمردة رجومًا؛ كعياض المؤلَّف فيه هذا الكتـاب، وهؤلاء الشرفاء الذين لا يمترى فى فضلهم ولا يرتاب؛ وبَنِى العزفى المشاهير، الذين برزوا فى مـيدان السبق على الخاصة والجمـاهير؛ وحـازوا رياسة الدين والدنيـا، وفازوا بالمكانة السـاميـة والمرتبة العليا؛ وغيـرهـم ممن لا يحصى كثره، ممن كان لهم تقديم وأثَرَه، عـدا عليها الدهر بعدوانه، وسقط شـرفها من إيوانه؛ واستولى عليهـا العدو الكافر، فى قضية يطول شـرحها، وعظم على أهل الإيمان قرحهـا، وأعضل أطباء الملوك إلى الآن جرحها، ولم يزل بنفوس المؤمنين شجوها وبرحها.

أخبـرنى الفقيه الطـيب العدل الفرضى، سيـدى أبو القاسم بن محـمّد الوزير الغسـانى رحمه الله: أنّه لما دخل سـبته، حـين وجهه أمـير المؤمنين، مولانا المنصـور، رحمه الله، إليهـا، فى شأن فداء الكفار المأخـوذين بالغزوة الشهيرة، ذهب إلى المدرسة التى كان بناها أحد ملوك بنى مرين رحمهم الله، وأظنه أبا عنان، وهى من أجلّ المدارس وأعظمها، فرأى فى مـحرابها ناقوسًا وصليبًا، قال: فساءنى ذلك، فـرفعت بصرى فإذا كتابة بخط رائق، فى تلك النقوش فوق ذلك الناقوس، فيها قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ

وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران]. وكان ذلك الكَتْب قديمًا فيها من جملة ما كتب المسلمون بها حين بنائها، على ما جرت به عادة الملوك من كتب الآيات القرآنية فى النقوش بالزليج والمرمر. قال لى رحمه الله: فتعجبت من ذلك الإنفاق، وسلانى ذلك بعض التسلى، وإلى الله ترجع الأمور.

وكان أخذ سبتة، أعادها الله، سنة ثمان وعشرة وثمانمائة. بعد ما استولى العدو الكافر على معظم بلاد الأندلس، مثل قرطبة، ومرسية، وطليطلة، وبلنسية، وغيرها، مما يطول تعداده.

وقد قال بعض الشعراء حين أخذت طليطلة، وكانت من أوّل ما أُخذ من القواعد العظام، يخاطب أهل الأندلس:

يأهل أندلس شدوا رحالكم ... فما المقام بها إلاّ من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ولله در الإمام العلامة خاتمة أدباء الأندلس، أبى الطيب صالح بن شريف الرندى رحمه الله إذ قال يندب بلاد الأندلس، ويبعث العزائم ويحركها من أهل الإسلام لنصرة الدين، وإنقاذ البلاد من يد الكافرين، ولسان الحال ينشده «لقد أسمعت لو ناديت حيًا».

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تُبقى على أحد ... ولا يدوم على حالٍ لها شان

يمـزق الدهر حـتـما كل سـابغـة ... إذا نبت مـشـرفـيـات وخـرصـان

وينتـضى كل سـيف للـفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغـمد غـمدان

أين الملوك ذوو التـيجـان من يمن ... وأين منـهم أكـاليل وتيـجـان

وأين مـا شـاده شـداد فى إرم ... وأين ما ساسه فـى الفرس ساسان

وأين مـا حـازه قـارون من ذهب ... وأين عـاد وشـداد وقـحطان

أتى على الـكل أمـر لا مـرد له ... حتـى قضوا فكـأن القوم ما كـانوا

وصار ما كان من مُلْك ومن مَلِك ... كمـا حكى عن خيـال الطيف وسنان

دار الزمـان على دارا وقـاتله ... وأم كـسـرى فـمـا آواه إيوان

كأنما الصـعب لم يسهل لـه سبب ... يومـا ولا ملك الدنـيـا سليـمـان

فـجـائع الدهر أنـواع منوعـة ... وللزمـان مـسـرات وأحـزان

وللحـوادث سـلوان يهـونهـا ... ومـا لما حل بالإسـلام سلوان

دهى الجـزيرة أمـر لا عـزاء له ... هوى له أُحُـد وانـهـدّ ثهـلان

أصابها العين فى الإسلام فارتزئت ... حـتى خلت مـنه أقطار وبـلدان

فـاسأل بلنسـية مـا شأن مـرسية ... وأين شـاطبـة أم أين جـيـان

وأين قـرطبـة دار العلـوم فكم ... من عـالم قد سـما فـيها لـه شأن

وأين حـمص ومـا تحـويه من نُزَه ... ونهـرها العـذب فـيـاض ومـلآن

قـواعـد كن أركـان البـلاد فـمـا ... عـسى البـقـاء إذا لم تبق أركـان

تبكى الحنيفـية البيـضاء من أسف ... كـما بـكى لفراق الإلف هـيمـان

على ديار من الإسلام خالية ... قد أسلمت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلاّ نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

يا غافلا وله فى الدهر موعظة ... إنَّ كنت فى سِنَةٍ فالدهر يقظان

وماشيًا مرحا يلهيه موطنه ... أَبَعْدَ حمص تغر المرء أوطان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيانُ

يا أيّها الملك البيضاء رايتُه ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبانُ

وحاملين سيوف الهند مرهفةً ... كأنها فى ظلام النقع نيرانُ

وراتعين وراء البحر فى دعةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبانُ

كم يستغيث بنو المستضعفين وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسانُ

ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوانُ

ألا نفوس أبيات لها همم ... أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيانُ

بالأمس كانوا ملوكًا فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوانُ

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزانُ

يا رُبَّ أم وطفلٍ حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدانُ

وطفلةٍ ما رأتها الشمس إذ برزت كأنها هى ياقوت ومرجانُ

يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيرانُ

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمانُ

انتهى.

وكان الشيخ الإمام العلامة الفقيه الوزير الكاتب أبو يحيى بن عاصم صاحب الشرح على تحفة أبيه، رحم الله الجميع، عندما رأى اختلال أمر الجزيرة - أعادها الله - وأخذ النصارى - دمرهم الله - لمعظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلاّ غرناطة، وما يقرب منها، مع وقوع فتن بين ملوك بنى نصر حينئذ، ثم أفضى الملك إلى بعضهم، بعد تمحيص وأمور يطول بيانها، ألف كتابا سماه: «جنة الرضى، فى التسليم لما قدر الله وقضى»، وهو كتاب عجيب جدا غريب، رأيت بعضه بتلمسان، ونقلت منه ما نصه:

«من استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أنَّ النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا فى المسلمين ثارا، ولم يرحضوا عن أنفسهم عارا، ولم يخربوا من الجزيرة منازلا وديارا، ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وأمصارا، إلاّ بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم فى وقوع الافتراق، بين المسلمين والاختلاف؛ وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة؛ وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها فى الفتن المبيرة؛ ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والأهواء لا مفترقة ولا مختلفة، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة؛ فالحرب إذ ذاك سجال، ولله فى إقامة الجهاد فى سبيله

رجـال، وللمـمـانعة فى غـرض المـدافـعة مـيـدان رحب ومجـال، وروية وارتجال[1].

ثم قـال: وتطاولت[2] الأيام مـا بين مـهادنة ومـقـاطعـة، ومضـاربة ومقارعـه، ومُنازلة ومنازعه، وموافـقة وممانعه، ومحاربـة ومموادعه؛ ولا أمل للطاغيـة إلاّ فى التمرس بالإسـلام والمسلمين، وإعمال الحـيلة على المؤمنين، وإضمار المكيـدة للموحدين، واستـبطان الخديعة للمجـاهدين؛ وهو يظهر أنّه ساع للوطن فى العـاقبة الحسنى، وأنّه منطو لأهله على المقـصد الأسنى؛ وأنه مهتم بمراعاة أمورهم، وناظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم؛ وهو يسر حسواً فى ارتغائه، ويعمل الحيلة فى التماس هُلْك الوطن وابتغـائه. فتبًا لعقول تقبل مثل هذا المحـال، وتصدق هذا الكذب بـوجه أو بحال؛ وليت المـغرور الذى يقبل هذا لو فكر فى نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجريبات حـدسه، وقاس عدوه الذى لا ترجى مودته على أبناء جنســه؛ فأنا أناشـده الله هل بات قط بمصالح النصـارى وسلطانهم مـهتـما، وأصبح من خَطْبِ طَرَقهم مغتما؛ ونظر لهم نظر المفكر فى العاقبة الحسنه، أو قصد لهم قصد المدبر فى المعيشـة المستحسنه؛ أو خطر على قلبه أن يحفظ فى سبيل الـقربة أربابهم وصلبانهم، أو عمـر ضميره من تمكين عـزهم بما ترضاه أحبـارهم ورهبانهم؛ فإن لم يكن ممن يديـن بدينهم الخبيث ولم يشـرب قلبه حب التثليث؛ ويكون صادق اللهجـة، منصفا عند قيام الحجة؛ فـسيعترف أنَّ

---

(١) من قوله: «من اسـتقرأ التواريـخ المنصوصة» إلى هنا أورده بنصـه المقرى فى نفح الطيب ج٤، ص ٥٠٨.

(٢) من هنا إلى قوله: «واسلك بنا سـبيل المهتدين» أورده بنصـه المقرى فى نفح الطيب ج٤، ص ٥١ - ٥٣.

ذلك لم يخطر له قط على خاطر ولا مَـرَّ له ببال، وأن عكس ذلك هو الذى كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتـبال، وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبـال، وأشد عـلى قلبه من وقع النبـال؛ هذا وعقـده التوحـيد، وصـلاته التحـميد؛ ومـلته الغراء، وشـريعته البيضـاء؛ ودينه الحنيف القويم، ونبـيه الرءوف الرحيم، وكتـابه القرآن الحكيم، ومطلوبه بالهداية الصراط المسـتقيم؛ فكيف نعتقـد هذه المزية الكبرى، والمنقبة الشهرى؛ لمن عـقده التثليث، ودينه المليث؛ ومعـبوده الصليب، وتسمـيته التـصليب؛ وملته المنسوخـة، وقضيـته المفسوخة؛ وختانه التغطيس، وغافر ذنبه القسيس؛ وربه عيسى المسيح، ونظره ليس البـين ولا الصحـيح، وإن ذلك الرب قد ضُـرج بالدماء، وسـقى الخل عوض الماء؛ وأن اليهود قـد قتلته مصلوبا، وأدركته مطلوبا، وقـهرته مغلوبًا؛ وأنّه جـزع من الموت وخـاف، إلى سـوى ذلك مما يناسب هذه الأقـاويل السخـاف؛ فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة من الخـير مثـقال الذرة، أو يطمع منهم فى جلب المنـفعـة أو دفع المضـرة؛ اللهم احـفظ علينا العـقل والدين، واسلك بنا سبيل المهتدين» انتهى.

ومنه أيضًا ما نصه:

«كانت خـزانة[1] هذه الدار النصـرية، مـشتـملة على كل نفـيسـة من الياقـوت، ويتيـمة من الجـوهر، وفريدة من الزمـرد، وثمينة من الفـيروزج، وعلى كل واق من الدروع، وحام من العُـدة، وماض من الأسلحة، وفـاخر من الآلة، ونادر من الأمتعة، فمن عقـود فذة، وسلوك جمة، وأقراط تُفضل

(١) من هنا إلى قـوله: «وتقصر ديار الملوك المؤثـلة النعمة عن بعـضه فـضلاً عن كله» أورده المقرى بنصه فى النفح ج٤، ص ٥٣ - ٥٥.

على قرَطِى مارية، نفاسة فائقة وحسنا رائقا، ومن سيوف شواذ فى الإبداع، غرائب فى الإعجاب، منسوبات الصفائح فى الطبع، خالصة الحلى من التبر؛ ومن دروع مقدرة السرد، متلاحمة النسج، واقية للبأس فى يوم الحرب، مشهورة النسبة إلى داود نبى الله؛ ومن جواشن سابغة اللبسة، ذهبية الحلية، هندية الضرب، ديباجية الثوب؛ ومن بيضات عسجدية الطوق، جوهرية التنضيد، زبرجدية التقسيم، ياقوتية المركز؛ ومن مناطق لجينية الصوغ، عريضة الشكل، مزججة الصفح؛ ومن درق لمطية، مصمتة المسام، لينة المجسة معروفة المنعة، صافية الأديم؛ ومن قِسِىّ ناصعة الصبغة، هلالية الخلقة، منعطفة الجوانب، زارية بالحواجب، إلى آلات فاخرة، من أتوار نحاسية، ومناور بلورية، وطيافير دمشقية، وسبحات زجاجية، وصحاف صينية، وأكواب عراقية، وأقداح طباشيريه، وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف، ولا يستوفيه العد؛ وكل ذلك ألهبه شُواظ الفتنة، والتقمه تيار الخلاف والفرقة؛ فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله، وتقصر ديار الملوك المؤثلة النعمة عن بعضه فضلا عن كله». انتهى.

وسنذكر من كلامه رحمه الله بعد هذا، زيادة على ما جلبناه الآن، والله المستعان.

وكانت غرناطة منتهى الآمال، ووَسُطَى قلادة الأمصار، ولم تزل محاسنها مجلوة على منصة الدهور والأعصار. وقد استولى وصفها لسان الدين الوزير أبو عبد الله بن الخطيب فى كتاب الإحاطة، ويرحم الله القائل:

غرناطة ما لها نظير ... ما مصر ما الشام ما العراق؟
ما هى إلاّ العروس تجلى ... والأرض من جملة الصداق

قال الفقيه الأديب أبو عبد الله بن محمّد بن أحمد بن الحداد الشهير بالوادى آشى، نزيل تلمسان:

كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال، الفائقة الكمال، من الإحاطة، فى تاريخ غرناطة، المحبّسة على المدرسة اليوسفية، من الحضرة العلية، بخط قاضى الجماعة، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة، صدر البلغاء، وعلم العلماء، ووحيد الكبراء، وأصيل الحسباء، الوزير المعظم أبى يحيى بن عاصم، رحمه الله، ما نصه:

«الحمد لله، الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الإعلام، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام، وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الألباب، وتتقاصر الأفهام، وبه الاستمساك إنْ طرقت الشكوك، أو عرضت الأوهام. وحسبك بما يسلّم فى هذا المقام المتعالى من الأدله، وما يعتمد فى هذا المجال المتضايق من البراهين المستقله؛ فحقيق أن يُتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول، ويُستقبل المهتدى لاستنباطه لما فيه من التبادر إلى الأفهام والتسابق للعقول؛ وإذا ثبت أنَّ المستدل بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل، ومنتمٍ من صحة النظير إلى أكرم قبيل، فلا خفاء أنَّ كتاب «الإحاطة» للشيخ الرئيس ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب رحمه الله، من أثر هذه الدولة النصرية - أدامها الله - بكل اعتبار، ومآثرها التى هى عبرة لأولى الألباب، وذكرى لأولى الأبصار.

أما الأول فلأن الأنباء التى أظهرت صحتها، وأوضحت حجتها، وشرّفت مقصدها، وكرّمت مصعدَها، إنّما هى مناقب ملوكها الكرام، ومكارم خلفائها الأعلام، وأخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور

حمـلة السيـوف والأقلام؛ وأفـذاذ حفظة الدين والدنيـا، والشرف والعلـيا، والملك والإسلام؛ أو ما يرجع إلى مـفاخر حضرة الملـك، وينظم نظم الجمان فى ذلك السلك، من حصـانة قلعتهـا، وأصالة منعتـها؛ وقديم اخـتطاطها، وكريم جـهادها ورباطها؛ وحـسن ترتيبهـا ووضعهـا، وما اشتـمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربعـها؛ وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فـمن قبيل القليل، ومما يرجع إلى شـرف الحضـرة، ممن انتابهـا من أهل الفضل الواضـح والمجد الأثيل.

وأما ثـانيًا فـإنَّ راسم آياتها المتلوه، ومـبدع مـحاسنهـا المجلوه، وناقل صورتها من الفعل إلى القوه، إنّمـا هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمه، ونشأة من نشـآت جودها الشامل النعمه، الهامل الديمـة، فما ظهر عليه من كمـالات الأوصاف، على الإنصاف، فأخـلاف هذه المكارم النصرية أرضعـته، وعنايتهـا الجميلة أسمـته، فوق الكواكب ورفـعته؛ وإليـها ينسب إحسـانه إن انتـسب، ومن كريم تشـريفهـا اكتـسب، من الفضل الظاهـر ما اكتسب. والحضـرة هى منشؤه الذى عظم فيه قدره، بل أُفقـه الذى أشرق فيه بدره؛ والتشريفات السلطانية هى التى فتقت اللهى باللهى، وأحلت من مراقى العـز فوق الـسهـا؛ وأمكنت الأيدى من الذخـائر والأعـلاق، وطوقت المنن كالقلائد فى الأعناق؛ وقلدت الرياسة والأقلام أقلام، وثنت الوزارة والأعلام أعلام؛ فبهرت أنواع المحاسن، وورد مـعين البلاغة غير المطروق ولا الآسن؛ وبرعت التـواليف، فى الفنون المتعـددة، واشتـهرت التـصانيف، ومنهـا هذا التصنـيف المشار إليه، لما له مـن الأذمَّة المتأكـدة. وإذا ظهر هذا الاسـتدلال، وأوضح البيان ما كـتمه الإجمال، فلنفضح الآن بما قـصد، ولنحقق من أنجم السعـادة ما رصـد، وذلك أن لمولاى أميـر المؤمنين، المجاهد فى سـبيل رب

العالمين، الغالب بالله، المؤيد بنصره أبى عبد الله، محمد ابن الخلفاء النصريين - أيده الله ونصره، وسنى له الفتح المبين ويسره - مآثر لم يسبق إليها، ومكارم لم يجر أحد ممن وسم بالكرم عليها، لجلالة قدرها، وضخامة أمرها؛ من ذلك هذا القصد الذى آثر لها كالكتاب المذكور وسواه، مما هو واحد وفذ فى معناه؛ عقد فى جميعها التحبيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العلية هنالك، ليشمل به الإمتاع، ويعم به الانتفاع؛ والله ينفع بهذا القصد الكريم، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم.

وهذه النسخة فى اثنى عشر سفرًا، متفقة الخط والعمل، اكتتب هذا على ظهر الأول منها بتاريخ رجب الفرد، عام تسعة وعشرين وثمان مئة، عرف الله بركته بمنة، آمين». انتهى.

وقال الوزير أبو يحيى بن عاصم المذكور، قدس الله روحه الطيبة، وسقى مثواه غيث رحمته الصيبة، فى كتابه المسمى بـ «الروض الأريض، فى ترجمة شموس العصر، من ملوك بنى نصر»، فى اسم الغنى بالله محمّد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجى، بعد كلام ما نصه:

«كان قد جرى عليه التمحيص الذى أزعجه عن وطنه، إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بنى مرين، فأفادته الحنكة والتجربة هذه السيرة التى وقف شيوخنا على حقيقتها، وانتهجوا واضح طريقتها، وبلغتنا منقولة بألسنة صدقهم، معبراً عنها فى عرف التخاطب بالعادة، فلم يكن الوزير الكيس، والرئيس الجهبذ يجريان من الاستقامة على قانون، ولا يطردان من الصواب على أسلوب، إلاّ بالمحافظة على ما رسم من القواعد، والمطابقة لما ثبت من العوائد؛ وكان ذوو النبل من هذه الطبقة، وأولو الحذق من أرباب هذه المهن

السياسية، يتعجبون من صحة اختياره لما رسم، وجوده تمييزه لما قعّد، ويرون المفسدة بالخروج عنها ضربة لازب، وأنَّ الاستمرار على مراسمها آكد واجب؛ فيتحرونها بالالتزام كما تتحرى السنن، ويتوخونها بالإقامة كما تتوخى الفرائض، وسواء تبادر لهم معناها ففهموه، أو خفى عليهم وجه رسمها فجهلوه، حدثنى شيخنا القاضى أبو العباس أحمد بن أبى القاسم الحسنى:

أنَّ الرئيس أبا عبد الله بن زمرك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل، مما يتوقف عادة على إذن الوزير، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبى عبد الله. قال الشريف: فأمضاها كلها له، ما عدا واحدة منها تضمنت نقص عادة مستمرة، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب: لا والله يا رئيس أبا عبد الله، لا آذن لك فى هذا، لأنّا ما استقمنا فى هذه الديار إلاّ بحفظ العوائد».

ثم قال صاحب الروض:

فلما تأذّن الله تعالى للدولة بالاضطراب، واستحكم الوهن بتمكن الأسباب؛ عدل عن هذه القواعد الراسخة، واستخف بتلك القوانين الثابتة؛ فنشأ من المفاسد ما أعوز رفعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه، وتعذر فيه الدواء الذى يُرجى نفعه؛ وكان قد صحبه من الجد ما سنّى آماله، وأنجح - بإذن الله - أقواله وأعماله؛ فكان يُجرِى الأمر على رسم من السياسة واضح، ونظر من الآراء السديدة راجح؛ ثم يحفه من الجد السياج لا يفارقه، إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله.

انتهى كلام ابن عاصم، وإنّما أتيت به لغرابته.

وقال أبو عبيد البكرى رحمه الله:

«الأندلس شامية فى طيبها وهوائها، يمانية فى اعتدالها واستوائها، هندية فى عطرها وذكائها، أهوازية فى عظم جبايتها، صينية فى جواهر معادنها، عدنية فى منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين».

قال ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب:

خص الله بلاد الأندلس من الرَّيع، وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتمار، بما حرمه الكثير من الأقطار، مما سواها[1].

ثم قال: وحديث الفتح، وما فتح الله على الإسلام من المنح، وأخبار ما أفاء الله من خير، على موسى بن نصير، وكتب من جهاد، لطارق بن زياد، مملول قصاص وأوراق، وحديث أفول وإشراق، وإرعاد وإبراق؛ وعظم امتشاش، وآلة معلقة فى دكان قشاش. انتهى.

ولا خفاء بما كان للملوك المسلمين بالأندلس والعداوة على النصارى - دمرهم الله - من الاستطالة والغلبة، حتى وقع التخاذل والتدابر، فانعكس الأمر. وقد حكى غير واحد أن دُن جانجه بن دُن ألفنش، استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى، ولاذ به، ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى، ولقيه بصخرة عباد، من أحواز رُنْده، فسلم عليه، ويقال إنَّ أمير المسلمين لما فرغ من ذلك، طلب بلسان زناتة الماء، ليغسل يده به من قُبلة ألفنش، أو مصافحته.

(١) أورده المؤلف فى نفح الطيب ج١ ص ١٢٦.

ابن الخطيب:

«والشيء يذكر بالشيء، فأُثبت حكاية اتفقت لى بسبب ذلك، أستدعى بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها، وهى أنَّ اليهودى الحكيم ابن زرزار، على عهد ملك النصارى، حفيد هذا ألفنش المذكور، وصل إلينا بغرناطة فى بعض حوائجه، ودخل إلىّ بدار سكناى، مجاوراً لقصر السلطان بحمراء غرناطة، وعندى القاضى اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة، وبيده كتاب من سلطان المغرب محمّد بن أبى عبد الرحمن بن السلطان الكبير المولى أبى الحسن، وكان محمّد هذا قد فر إلى صاحب قشتالة، واستدعى من قبله إلى الملك، فسهل له ذلك، وشرط عليه ما شاء؛ وربما وصله خطابه بما لم يقنعه فى إطرائه، فقال لى: مولاى السلطان دُن بطرة يسلم عليك، ويقول لك: انظر مخاطبة هذا الشخص، وكان بالأمس كلبًا من كلاب بابه، حتى ترى خسارة الكرامة فيه. فأخذت الكتاب من يده، وقرأته وقلت له: أبلغه عنى أن هذا الكلام ما جرَّك إليه إلاّ خُلو بابك من الشيوخ، الذين يُعَرِّفونك بالكلاب وبالأسود، وبمن تغسل الأيدى منهم إذا قبلوها، فتعلم من الكلب الذى تُغسل اليد منه، ومن لا، وأنَّ جد هذا الولد هو الذى قبَّل جَدُّك يده، واستدعى الماء لغسل يديه منه بمحضر النصارى والمسلمين؛ ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد إلى الحفيد؛ وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه، وأنت معرض إلى اللجإ إليه، فيكافئك بأضعاف ما عاملته به. فقام ابن الحسن المستقصى يبكى، ويقبل يدى، ويصفنى بولى الله، وكذلك من حضرنى. وتوجه إلى المغرب رسولا، فقص على بنى مرين خبر ما شاهد منى وسمعه؛ وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير، جعل الله ذلك خالصًا لوجهه». انتهى.

ولمّا تقلص ظل الإسلام بالجزيرة، أعادها الله للإسلام، واسترد الكفار، دمرهم الله، أكثر أمصارها وقراها، على وجه العنوة والصلح والاستسلام، لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حميّات ذوى البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماتهم من كل الأمصار.

فمن ذلك ما كتب به الكاتب الرئيس أبو عبد الله بن زمرك رحمه الله لما نزل المسلمون بآخر مرج غرناطة، متوجهين لفج خير:

«اعلموا أنا نذكر لكم ما لا يغيب عن أديانكم وأحسابكم؛ إنَّ هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده إليها، وحضهم عليها؛ فالآيات فى المصاحف مسطورة، والأحاديث مشهورة، لبيع النفوس فيها من الرحمن، وبذل المهج رغبة فى حصول ثواب الملك الديان، ينزِّل الله فيها الملائكة المسومين. وتفرح الحور العين، وتسح الرحمة من رب العالمين، ويباهى الله ملائكته بالمجاهدين؛ وقد تضافرت على ذلك النصوص، وكفى شرفا الفوز بمحبة الله فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف]؛ فينبغى فيه الاستغفار من سالف الذنوب، وتطهير السرائر والقلوب، واجتماع الأيدى والكلمة فى مرضات علام الغيوب».

وأبلغ منه ما كتب به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب فى الحث على الجهاد، والترغيب فيه، وهو:

«أيها الناس، رحمكم الله، إخوانكم المسلمون قد دَهِمَ العدو - قصمه الله - ساحتهم، ورام الكفر - قبحه الله - استباحتهم؛ وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم، ومد الصليب ذراعيه إليهم؛ وأيديكم بعزة الله أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى؛ وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا

تُخفِرُوه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه. الجهاد الجهاد، فقد تعين؛ الجار الجار، فقد قرر الشرع حقه وبين؛ اللهَ اللهَ فى الإسلام، اللهَ اللهَ فى أمة محمّد عليه السلام؛ اللهَ اللهَ فى المساجد المعمورة بذكر الله، اللهَ اللهَ فى وطن الجهاد فى سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه؛ أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله عند الشدائد، جددوا عوائد الخير، يصل الله لكم جميل العوائد؛ صلوا رحم الكلمه، وآسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمه؛ كتاب الله بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنة رسول الله ﷺ قائمة فيكم، والله يقول فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم .. ﴿١٠﴾﴾ [الصف]. ومما صح عنه قوله: «من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمها الله على النار». «لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم». «ومن جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا». أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت؛ احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا فى الله بالألسن والأموال حق جهاده:

ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد

إن قال لم فرطتم فى أمتى وتركتوهم للعدو المعتدى

تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية فى البلاد، اللهم دافع عن الحريم الضعيف والأولاد؛ اللهم انصرنا على أعدائك بأحبابك وأوليائك يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما». انتهى.

واستمر الأمر بالجـزيرة على هذه الحالة مدة، والمسلمون لا يزدادون إلا ضعفًا والعدو تكالبًا وشدة؛ حـتى استولى على الجزيرة بأسرها، وشرح ذلك يطول. وكان اسـتيلاؤه على حـمراء غرناطة، ودخـول جيشـه لها ثانى ربيع النبوى، من عام سبـعة وثمان مئة. هكذا رأيته فى تأليف لـبعض المتأخرين، ضَمَّنه القضية، وألفه بسببـها؛ على أنى رأيت بخط الفقيه أبى عبد الله الوادى آشى ما يخالف ذلك، وهو أنه أورد رسالة لابن الخطيب يخاطب بها السلطان أبا سالم المرينى نص محل الحاجة منها:

«ولا شك عند عاقل أنكم إن انـحلت عروة تأميلكم، أو أعـرضتم عن ذلك الوطن، استولت عليه يد عدوه». انتهى.

فكتب بطرته أبو عبد الله الوادى آشى المذكور ما نصه:

«كذلك وقع آخر الأمـر. وكان الاستيلاء على غـرناطة آخر ما بقى من بلاد الأندلس للإسلام فى محرم عام سبعة وتسعين وثمان مئة، فرحم الله ابن الخطيب، العاقل اللبيب، وغفر له برحمته». انتهى كلام الوادى آشى.

على أنه يظهـر فى كلام بعـضهم أن الصلح كـان فى محـرم، ودخول الجيش القصبة الحمراء كان فى ربيع فلا منافاة، والله أعلم.

ورأيت بخط الإمام الونشريشى سيدى عبد الواحد رحمه الله ما نصه:

«استـولى العدو على جبل الفـتح سنة ستّة وسـتين وثمان مـئة، وعلى الحمـة تاسع المحرم يوم الخمـيس عام سبـعة وثمـانين وثمان مئـة؛ وفى عام خمسـة وتسعين وثمان مائة اسـتولى العدو على جمـيع بلاد الأندلس ما عدا غرناطة وبشـرتها، وكان قـبله فى عام اثنين وتسعـين استولى على مـالقة فى رمضان منه، وفى عام سبعة وتسعين استولى على غرناطة». انتهى.

ولمّا دخل النصارى إلى الحمراء خرج أميـرها أبو عبد الله محمّد بن أبى الحسـن علىّ النصرى، واشـترط المسلمـون على العدو الكافـر شروطا أظـهر قبولها، وبسط لهم جناح العدل، حتى بلغت بزعمهم نفوسهم مأمولها؛ وكان من جملـتها أن من شـاء البقـاء عنده أقام فى ظل الأمان مـكرما، ومن أراد الخروج إلى بر العـدوة أنزل بأى بلاد شاء منهـا، من غيـر أن يعطى كراء ولا مغرما؛ وأظهـر للمسلمين العناية والاحترام، حتى كـان النصارى يحسدونهم فى ذلك، ويقــولون لهم: أنتم عند مـلكنا أعـز وأكـرم منـا؛ ووضع عنهم المغارم، حيلة منه وكيدا، ليـغرهم بذلك، ويثبطهم على الجواز. فوقع الطمع لكثير من الناس، وظنوا أن ذلك البرق ليس بخلب، فاشترى كثير من المقيمين الرباع العظيمة، ممن أراد الذهاب للعـدوة، بأرخص الأثمان، وأمر - لعنه الله - بانتقـال سلطان غرناطة أبى عبـد الله إلى قرية أندرش، من قرى البـشرة، فارتحل أبو عـبد الله بعـياله وحشـمه، وأقام بهـا ينتظر ما يؤمـر به، ثم ظهر للطاغيـة أن يجيزه إلى العُـدوة، فأمره بـالجواز، وأعد له المراكب العظيـمة، وركب معـه كثيـر من المسلمين، ممن أراد الجواز، حـتى نزلوا بمليلة من ريف المغرب، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينـة فاس - حرسها الله - وما زال أعـقابه بهـا إلى الآن من جـملة الضعـفاء السـؤال، بعـد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل، المانح المانع، لا إله إلاّ هو.

وكان خلع أبيــه أبى الحسن يوم الأحـد ثالث جمادى الأخـرى من عام تسعين وثمان مئة، خلعه أخوه، ودخل أبو عبد الله المذكور، ابن أبى الحسن، ربض البيازين سادس عشر شوال عام واحد وتسعين، وافتك ملك أبيه من يد عمــه، وتوفى رحمه الله بفاس عـام أربعة وعشرين، وتسع مـئة، ودفن بإزاء

المصلى، خارج باب الشريعة، وخلف ولدين، اسم أحدهما يوسف، والآخر محمّد، وعقبه الآن بها كما ذكرناه، والله وارث الأرض ومن عليها، والله خير الوارثين.

وكان من قدر الله تعالى أنهم لما وصلوا مدينة فاس أصاب الناس بها شدة عظيمة، من الجوع والغلاء والطاعون، حتى فر كثير منها بسبب ذلك، ورجع بعض أهل الأندلس إلى بلادهم، فأخبروا بتلك الشدة، فتقاعس من أراد الجواز، وعزموا على الإقامة والدجن، ولم يُجِز النصارى أحد بعد ذلك إلاّ بالكراء والمغرم وعشر المال، فلما رأى الطاغية أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام فى الوطن، أخذ فى نقض الشروط التى اشترط عليه المسلمون أول مرة، ولم يزل ينقضها فصلا فصلا، إلى أن نقض جميعها، وزالت حرمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلة، واستطال عليهم النصارى، وفُرِضت عليهم المغارم الثقيلة، وقُطع عنهم الأذان فى الصوامع، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا أذلة صاغرين، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر، وأكرههم عليه، وذلك سنة أربع وتسع مئة، فدخلوا فيه كرها، وصارت الأندلس كلها دار كفر، ولم يبق من يجهر بكلمة التوحيد والأذان، وجعلت فى المساجد والمآذن النواقيس والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لا راد لما قضاه الله الملك الديان.

وقد رأيت لبعضهم رسالة ببعض شرح ذلك، ونصها:

«وتعرفنا من غير ما طريق، وعلى لسان غير فريق، أن قطر الأندلس - نظر الله إليه، وعاد بنوره عليه - طرق أهلَه خطب لم يجر فى سالف الدهر،

وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضى فى الظاهر الكفر، ولم يقبل منهم الأسر؛ وكان الابتداء فى ذلك من أهل غرناطة - جدد الله رسمها، وأعاد إلى بلاد المسلمين اسمها - وخصوصا أهل واسطتها، لقلة الناس، وكونهم من الرعية الدهماء، مع عدم العصبية، بسبب اختلاف الأجناس؛ علم النصارى - دمرهم الله - بأن من بقى بها من المسلمين إنما هم أسارى فى أيديهم، وعيال عليهم؛ وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل، وعتوا فيهم بالخروج والجلاء، فلم يبق من المسلمين طائل؛ ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده، ونشر بمحض الغدر بنوده؛ من غير معذرة لفقها، ولا كذبة من معرض العذر نمقها، إلاّ أعْجازا من الكفر، وصدورا من الغيظ والمكر، وخالص الغدر، جمعها وفرقها؛ وكان الطاغية إذا ذاك بإشبيلية - جبرها الله، وجعل بها قبره، ووقى المسلمين والإسلام شره - وبعد أن كان قبل قد انسل إلى غرناطة انسلال القطا إلى الماء، وطلع إليها طلوع الرقيب على خلوات الأحباء؛ وأمر بإخلاء الأرباض، وأذن بالسفر فى البحر للأبعاض، ولم يحضر من الأجفان[1] إلاّ القليل، وما كان قصده إلاّ التفريق والتهويل؛ على ما عهد من غدر النصارى وطغيانهم، وفعلهم الذميم مع المسلمين وثورانهم؛ والإعلان بمحنتهم؛ والحرص على ارتدادهم وفتنتهم؛ وأقام بعد انصرافه عنها، وخروجه منها، بإشبيلية مديدة، وعقاربه لأشياعه من النصارى بغرناطة تدب وتسرى، ونفسه الخبيث بالعاب تفرى؛ ثم انتقل عن الواسطة للبيازين، حيث الحمية، والنصرة الإيمانيه، ومع السراجة والنحيه، والعقل الرصين، والدين المتين؛ فجعل صعبها ذلولا، وأعاد للكفر

(١) الأجفان: بمعنى السفن.

كرها من كان بحضرتها، وتمتع أحزاب الشيطان - قصمهم الله - بنضرتها، نسأل الله تعالى أن يجعل تمتعهم قليلا».

وزيادة الخبر:

«أن طاغية قشتالة وأرغون - قصمه الله - صدم غرناطة صدمه، وأكره على الكفر من بقى بها من الأمه؛ بعد أن هيض جناحهم، وركدت رياحهم؛ وجعل بعدُ جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال، والطاغية يزدهى فى الكفر ويختال؛ ودين الإسلام تنشر بالأندلس نجومه، وتطمس معالمه ورسومه؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه، لكان كل مسلم يندبه ويبكيه؛ فقد عبث البلاء برسومه، وعفى على أقماره ونجومه؛ ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام، وتُوُعد بالنكال والمهالك العظام؛ ومن كان يعذَّب فى الله بأنواع العذاب، ويدخل به من الشدة فى باب ويخرج من باب؛ لأنساكم مصرعه، وساءكم مفظعه؛ وسيوف النصارى إذ ذاك على رءوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلوله، وأفواه الذاهلين محلوله؛ وهم يقولون: ليس لأحد بالتنصر أن يمطل، ولا يلبث حينا ولا يُمْهَل؛ وهم يكابدون تلك الأهوال، ويطلبون لطف الله فى كل حال». انتهى.

وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان، منهم القاضى الشهير أبو عبد الله بن الأزرق، صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل، وكتاب السياسة الملخص من مقدمة تاريخ ابن خلدون، وفيه زيادات بديعات، وكتاب روضة الإعلام، بمنزلة العربية من علوم الإسلام، وغير ذلك، وارتحل من تلمسان إلى المشرق، وسنُلِمٌّ بذكره. ومنهم بنو داود المذكورون فى فَهْرَسَةِ الشيخ ابن غازى، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة؛ ولكن لما

رأوا استطالة العدو عليها، وأنه آخذها لا محالة، قوضوا رحالهم عنها، فنزلوا بتلمسان المحروسة، وأُخِذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب، رحمهم الله. ومنهم الفقيه الأديب، حائز قصب السبق فى كثرة النسخ والكتابة، أبو عبد الله محمّد بن الحداد الشهير بالوادى آشى، وسنذكره إن شاء الله، رحم الله الجميع. وممن خرج بفاس من العلماء، أبو العباس البَقَنّى ثم رجع إلى غرناطة، وقضيته معروفة.

ولا بأس أن نورد كتاب السلطان أبى عبد الله محمّد بن الأحمر المخلوع المذكور، الذى بعث به لصاحب فاس فى ذلك العهد، تمهيدا لعذره، وتوطئة لمقصده؛ وتطارحا على تلك الأبواب وتملقا، وتمسكا بذلك الجناب وتعلقا؛ وهو فى الغاية من الفصاحة والبلاغة، من إنشاء الفقيه الأديب، الشاعر الناظم، الناثر الكاتب، المُجيد البارع البليغ، أبى عبد الله محمّد بن عبد الله العربى العقيلى رحمه الله، وسماه بالروض العاطر الأنفاس، فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس؛ ونصه بعد الافتتاح:

مولى الملوك ملوك العُرْب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم[1]

بك استجار ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم

حتى غدا ملكه بالرغم مستلَبا ... وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم

حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم

وهى الليالى وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد فى الأجم

كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم

(١) الأبيات لدى المقرى فى النفح ج٤، ص ٥٢٩.

فـأيقظـتنا سـهـام للـردى صُـيُبٌ　　يرمى بأفـجع حـتـف من بهن رمى
فـلا تـنم تحت ظل الملك نومـتنا　　وأى مَـلْك بـظـل المُلْـك لـم ينـم
يبكى عليـه الذى قد كـان يعرفـه　　بأدمع مـزجت أمـواههـا بدم
كذلك الدهر لم يبرح كـما زعموا　　يشم بَوّ الصـغـار الأنف ذا الشـمم
وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت　　فـالملك بين ملوك الأرض كـالرحم
وأبسط لنـا الخلق المرجـو باسطه　　واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخـذنا بأقـوال الوشـاة ولم　　نذنب ولو كثـرت أقوال ذى الوخم(١)
فـمـا أطقنا دفـاعا لـلقضـاء ومـا　　أرادت انفـسـنا مـا حل مـن نقم
ولا ركـوبا بإزعـاج لـسـابحـة　　فى زاخـر بأكف المـوج ملتـطم
والمرء مـا لـم يعـنه الله أضيع من　　طفل تشكّـى بفـقـد الأم فى اليـتم
وكل مـا كـان غيـر الله يحـرسـه　　فـإن مـحـروسـه لحم على وضم
كن كالسـموءل إذ سار الهـمام له　　فى جـحفـل كسـواد الليل مـرتكم
فلم يـبح أدرع الكنـدى وهو يرى　　أن ابنه البـر قد أشـفى على الرجم
أو كـالمعلى مـع الضليل الأروع إذ　　أجـاره مـن أعـاريب ومن عـجم
وصـار يـشكره شكرا يكافـئ مـا　　أسـدى إليـه من الآلام والـنعم
ولا تعاتب علـى أشياء قـد قدرت　　وخط مـسطورها فى اللوح بـالقلم

(١) هذا البيت من قول كعب بن زهير فى قصيدته: بانت سعاد:
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم　　أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

وعـد عمـا مضى إذ لا ارتجـاع له    وعـد أحـــرارنا فى جـملـة الخـدم
إيه حنانيك يا بن الأكـرمـين على    ضـيف ألم بفـاس غـير مـحـتـشم
فـأنت أنت ولولا أنت ما نهـضت    بنا إليـــهـــا خطا الوخـــادة الرسم
رحماك يا راحمـا ينمى إلى رُحَمَا    فى النفس والأهل والأتبـاع والحشم
فكم مـواقف صدق فى الجهـاد لنا    والخـــيل عـالـكة الأشـداق لـلجم
والسيف يخضب بالمُحَمَّر من علق    مـا ابيض من سَبَل واسـود من لمم
ولا ترى صدر عضب غـير منقصف    ولا ترى متن لـدن غـيـــر منـحطم
حـتى دهينا بدهيـا لا اقـتدار بهـا    سوى على الصـون للأطفال والحرم
فـقال مـن لم يشاهـدها فَرُبَّـتَمَـا    يخـال جـامـحـهـا يقـتـاد بالخطم
هيـهات لو زبنتـه الحرب كان بـهـا    أعـيـا يدا من يد جـــالت على زلم
تالله ما أضــمرت غـشا ضـمائرنا    ولا طوت صـحة منهـا على سـقم
لكن طلبنا من الأمـر الذى طلبت    ولاتنا قـــبلنا فى الأعـصـــر الدهم
فـخانــنا عنده الجد الخـئـون ومن    تقـــعـــد به نـكبـات الدهـر لم يقم
فاسود ما اخضـر من عيش دهته عِداً    بالأسـمـر اللدن أو بالأبيض الخـذم
وشتت الـبين شمـلا كان منتـظما    والبـين أقطع للمـوصـول من جلم
فـرب مـبنى شــديد قـد أناخ به    ركب البـــلا فـــقـرته أدمـع الديم
قـــمنا لديه أصـــيـــلانا نســائله    أعـيـــا جـوابا ومـا بـالربع من أرم
ومـــا ظنــنا بأن نبـــقـى إلى زمن    نرى به غـرر الأحـبـاب كـالحـمم

لكن رضا بالقضا الجارى وإن طويت    منا الضلوع على برح من الألم

لبيك يا من دعانا نحو حضرته    دعاء إبراهيم الحجاج للحرم

وأعط الأمن الذى رُصَّت قواعده    على أساس وفاء غير منهدم

خليفة الله وافاك العبيد فكن    فى كل فضل وطول عند ظنهم

وبين أسلافنا ما قد علمت به    من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم

وأنت منهم كأصل مطلع غصنا    أو كالشراك الذى قَدْ قُدَّ من أدم

وقد خطوت خطاهم فى مآثرهم    فلم يُذَمَّوا إذن فيها ولم تذم

وصيت مولى الورى الشيخ الإمام غدا    فى الناس أشهر من نار على علم

سلالة الأمراء الجلة الكبرا    ء العلية الظهراء، القادة البهم

بنو مرين ليوث فى عرين أبوا    رؤيا قرين لهم فى البأس والكرم

النازلين من البيضاء وسط حمى    أحمى من الأبلق السامى ومن إرم

والجائسين بدُهْم الخيل كل ذَرًى    والدَّاعسين بسمر الخط كل كمى

يريك فارسهم إن هز عامله    فى مأزق بلظى الهيجاء مضطرم

ليثا على أجدل عار من اجنحة    يسطو بأرقم لداغ بغير فم

فى اللام يدغم من عساله ألفا    ولم نجد ألفا أصلا بمدغم

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم    من عصمة الله ما يربى على العصم

بأس تطير شرار منه محرقة    لكل سدرع بالحزم محتزم

هم بطائفة التثليث قد فتكوا    كمثل ما يفتك السرحان بالغنم

وإن يلثمهم يوم الوغى رهج  أنسوك ما ذكروه عن ذوى اللثم

تضئ آراؤهم فى كل معضلة  إضاءة السراج فى داج من الظلم

هذا ولو من حياء ذاب محتشم  لذاب منهم حياء كل محتشم

طابت مدائحهم إذ طابت أنفسهم  فاشْتَقَّت النسمات اسما من النسم

لله درهم والسحب باخلة  بدرهن على الأنعام والنعم

بحيث الأفق يرى من لون حمرته  كالشيب يخضب بالحناء والكتم

هناك تنهل أيديهم بصوب حيا  يحيى بالاجداث ما فيها من الرمم

وإن بيتى زياد طالما ذكرا  إذا ألمت أحاديث بذكرهم

أحلام عاد وأجساد مطهرة  من المعقة والآفات والإِثَم

يرون حقا عليهم حفظ جارهم  فلم يُضَرْ نازل فيهم ولم يضم

فروعه بالدواهى لا يراع ولا  يغنم منها بما يعرو من الغُمَمِ

هم البحار سماحا غير أن بها  ما قد أناف على الأطواد من همم

وليس يسلم من حتف محاربهم  حتى يكون إليهم ملقى السلم

كم فيهم من أمير أوحد نَدُسٍ  يقرطس الغرض المقصود بالفهم

ولا كسبط أبى حسون من حسنت  أمداحه حسن ما فيه من الشيم

هذاكم ابن أبى زكرى الهمام فقل  فى أصله المنتقى من مجده العمم

خليفة الله حقا فى خليقته  كتائب ناب فى حكم عن الحكم

مهما تنر قسمات منه نيرة  تنل بنان له ما جل من نعم

فـوجــهــه بدجى وكـفــه بجـدا أبهى مـن الزهر أو أندى مـن الديم

وفـضله وله الفـضل المبين جـرى كجـرى الأمثـال فى الأقطار والأمم

وجــوده المتــوالى للبــرية مــا وجــوده بينـهــا طـرا بمنهـــدم

إذا ابتـغت نعـمـا منه العـفـاة له لم يسـمـعوا كلمـة منه سـوى نعم

وإن يعـبس زمـــان فى وجـوههم لم يبـصروا غـير وجه منـه مبتـسم

وجـه تبـين سمـات المكرمـات به كما تبين سـمات الصدق فى الكلم

وراحــــــة لم تـزل فى كـل آونة فى نيلهـا راحة الـشاكى من العـدم

لله مــا التــزمــتــه من نـوافله أيام لا فــرض مـفـروض بملـتـزم

أنسى الخلائف فى حلم وفى شرف وفى سـخـاء وفى عـلـم وفى فـهـم

فجـاز معـتمـدا منهم ومـعتـضدا وامـتـاز عن قائم منـهم ومعـتـصم

وناصر الدين فى الإقـبال فاق وفى مــحـبـة العلم أزرى بابـنه الحكم

أفــعـال أعــدائه مــعـتـلة أبدا متى يرم جزمـهـا بالحذف تنجـزم

فـويل أهل الفـلا من حـيـة ذكـر للمـستلئب اللهــام المجـر ملتــقم

رامو عـداوة من إن شاء غـادرهم مـثل الأحـاديث عن عـاد وعن إرم

فـسوف يأكلهم من جيشـه لجب بكل قــرم إلى لحــمـــانهم قـــرم

وإن الاعـراب إذ سـاروا لغــابتـه لســـــائرون إلى لـقم عـلى لـقم

وهم كمـا قاله مـاض: أرى قدمى بسـعيـه نحو حـتفى قـد أراق دمى

فـقل إذن للـمناوي النَّاوِ لآن أذًى ياغـر غـرك مـا أبصـرت فى الحلم

له صوارم لو ناجتك ألسنها    لبشرتك بعمر منك منصرم

وإن روحك عن قرب سيقبضه    قبض المسلم ما قد حار من سلم

فهو الذى ما له ند يشابهه    من كل متصف بالدهى متسم

يدبر الأمر تدبيرا يخلصه    مما عسى أن يرى فيه من الوهم

ويبصر الغيب لحظ الذهن منه إذا    تعمى عن أدراكه ألحاظ كل عم

وينعم النظر المفضى بناظره    لصوب وجه صواب واضح اللقم

ذو منطق لم تزل تجلو نتائجه    عن مبطل بخصم المبطل الخصم

ومسمع ليس يصغى للوشاة فلم    ينفق لديه الذى عنهم إليه نمى

فعقله لا تواريه العقول وهل    يوازن الطود ما قد طال من أكم

إيه جميع الورى من بدو او حضر    نداء مرتبط بالنصح مرتسم

شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تهنوا    قد لفها الليل بالسواقة الحطم

هذا الأمير المرينى السعيذ له    سعد يؤيده فى كل مصطدم

قد أقسمت أنه المنصور ألسنة    من نخبة الاولْيا مبرورة القسم

فشيعوه ووالوه تروا عجبا    وتظفروا معه بالأجر والغنم

والحمد لله إذ أبقى خلافته    كهفا لنا من يخيم فيه لم يرم

حرز حريز وعز قائم وندى    غمر دراك بلا مَنّ ولا سأم

دامت ودام لها سعد يساعدها    فى كل مبتدإ منه ومختتم

فالله - عز اسمه - قد زانها بحلى    من غر أمداحه كالدر فى النظم

الواهب الألف بعد الألف من ذهب كالجمر يلمع فى مستوقد الضرم
والفاعل الفعل لم يهمم به أحد والقائل القول فيه حكمة الحكم
ذاكم هو الشيخ فاعجب إنه هرم جودا وحاشاه أن يعزى إلى هرم
وحسبنا أن أيدينا به اعتصمت من حبله بوثيق غير منفصم
فما مُحالفه يوما بمضطهد ولا مؤالفه يوما بمهتضم
ولا موافيه فى جهد بمطرح ولا مصافيه فى ود بمتهم
ولا محيا محيه بمنكسف ولا رجاء مرجيه بمنخرم
وما تكرمه سرا بمنكشف ولا تنكره جهرا بمكتتم
وليس لامح مرآه بمكتئب وليس راضع جدواه بمنفطم
ولا مقبل يمناه الكريمة فى محل ممتهن بل دست محترم
وما وسيلتنا العظمى إليه سوى ما ليس ينكر ما فيها من العظم
وإنّما هى وما أدراك ما هى من وسيلة ردها أدهى من الرضم
نبينا المصطفى الهادى بخير هدى محمّد خير خلق الله كلهم
داعى الورى من أولى خيم وأهل قرى إلى طريق الرشاد لأحب أمم
عليه منا صلاة ما ذكرت أمن تذكر الجيران بذى سلم
وما تشفع فيها بالشفيع له دخيل حرمته العلياء فى الحرم

﴿... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف][1]. ﴿...أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف]. ﴿...رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة]. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد]. ﴿... نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال].

أما بعد حمد الله[2] الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمّد، الذى طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح، يدعوا إلى سبيل كل فلاح، أولى قلوب غافلة، ونفوس سواه؛ والرضا عن آله وأصحابه، وعترته الأكرمين وأحزابه، الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه، وعزروه ونصروه فى حالى قربه ونواه.

فيا مولانا، الذى أولانا من النعم ما أولانا؛ لا حط الله تعالى لكم من العزة رواقا، ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصانا ولا أوراقا؛ ولا زالت مخضرة العود، [مبتسمة][3] عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود، ممطورة بسحائب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود:

هذا مقام العائذ بمقامكم، المتعلق بأسباب ذمامكم، المترجى لعواطف قلوبكم، وعوارف إنعامكم، المقبل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم؛ وماذا الذى يقول من وجهه خجل، وفؤاده وجل، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل، بيد أنى أقول لكم ما

---

(١) المقرى: نفح الطيب ج٤، ص ٥٣٥.

(٢) أورد المقرى هذا النص بطوله فى نفح الطيب ج٤، ص ٥٣٥.

(٣) ما بين الحاصرتين عن نفح الطيب.

أقوله لربى، واجترائى عليه أكثر، واجترامى إليه أكبر: اللهم لا برئ فأعتذر، ولا قوى فأنتصر، لكنى مستقيل مستنيل مستعتب مستغفر؛ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ... ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف]. هذا على طريق التنزل والاتصاف، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف؛ وأما على جهة التحقيق، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق: «والله إنى لأعلم أنى إن أقررت بما يقوله الناس، والله يعلم أنى منه بريئة، ولأقولن ما لم يكن، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوننى، فأقول ما قاله أبو يوسف: صبر جميل، والله المستعان على ما تصفون».

على إنى لا أنكر عيوبى، فأنا معدن العيوب، ولا أجحد ذنوبى، فأنا جبل الذنوب؛ إلى الله أشكو عجرى وبجرى، وسقطاتى وغلطاتى. نعم، كل شيء ولا ما يقوله المتقول، المشنع المهول، الناطق بفم الشيطان المسوِّل. ومن أمثالهم: «سُبَّنِى واصدُق». ولا تفتر ولا تخلق؛ فمثلى كان يفعل أمثالها، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها؛ عياذاً بالله من خسران الدين، وإيثار الجاحدين والمعتدين، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين. وأيم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقلعتها، بل لقطفت ما تحت عمامتى من هامتى وقطعتها؛ غير أنَّ الرعاع فى كل وقت وأوان، للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان، كان أحمق وأجهل من ابن ثروان، أو أعقل وأعلم من أشج بنى مروان؛ ورب متهم برى، ومسربل بسربال وهو منه عرى؛ وفى الأحاديث صحيح وسقيم، ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم، ولكن ثَمَّ ميزان عقل، تعتبر به أوزان النقل؛ وعلى الراجح الاعتماد، ثم إشاعة الإحماد، المتصل المتماد؛ وللمرجوح الاطّراح،

ثم الذم الصراح، بعد النفض من الراح؛ وأكثر ما تسمعه الكذب، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمة الله إليه منجذب؛ ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار، ورمينا بما لا يرمى به الكفار، فضلا عن الفُجّار؛ وجرى من الأمر المنقول عن لسان زيد وعمرو، ما لكم منه حفظ الجبار؛ وإذا عظم الإنكاء، فعلى تكأة التجلد الاتكاء؛ أكثر المكثرون، وجهد فى تعثيرنا المتعثرون؛ ورمونا عن قوس واحدة، ونظمونا فى سلك الملاحدة؛ أكُفراً أيضًا كُفرا! غفراً اللهم غفرا، أعد نظرًا يا عبد قيس، فليس الأمر على ما خيل لك ليس، وهل زدنا على طلبنا حقنا، ممن رام محقه ومحقنا؟ فطاردنا فى سبيله عداة كانوا لنا غائظين؛ فانفتق علينا فتق، لم يمكنا له رتق، وما كنا للغيب حافظين.

وبعد، فاسأل أهل الحل والعقد، والتمييز والنقد؛ فعند جُهَيْنتهم تلقى الخبر يقينا، وقد رضينا بحكمهم يؤثمنا فيوبقنا، أو يبرئنا فيقينا. إيه يا من اشرأب إلى ملامنا، وقدح حتى فى إسلامنا؛ رويدًا رويدًا، فقد وجدت قوة وأيدًا؛ ويحك، إنما طال لسانك علينا، وامتد بالسوء إلينا؛ لأن الزمن لنا مُصْغِر، ولك مُكْبِر، والأمر عليك مقبل، وعنا مدبر، كما قاله كاتب الحجاج المدبِّر.

وعلى الجملة، فهبنا صرنا إلى التسليم مقالك جدلا، وذهبنا فأقررنا بالخطأ فى كل وردٍ وصدر، فلله در القائل:

إنَّ كنت أخطأت فما أخطأ القدر

وكأنا بمعتسف إذا وصل إلى هنا، وعدم إنصافه يعلمه الهنا؛ قد ازور متجانفا، ثم افتر متهانفا، وجعل يتمثل بقولهم:

«إذا عُيروا قالوا مقادير قدرت»

وبقولهم: «المــرء يعجز لا مـحالة»؛ فيـعارض الحق بالبـاطل، والحالى بالعاطل، وينزع بقول القائل: «رُبَّ مسمع هائل، وليس تحته من طائل». وقد فرغنـا أوّل أمس من جوابه، وتركنا الضـغن يلصق حرارة الجـوى به؛ وسنلم الآن بما يوسعه تسكيـتا، ويقطعه تبكيتا. فنقـول له: ناشدناك الله تعالى، هل اتفق لك قطُّ وعَـرَض، خروج أمر مـا على القصـد منك فيـه والغرض؛ مع اجتهادك أثناءه فى إصدارك وإيرادك، فى وقـوعه على وفق اقتراحك ومرادك؟ أو جمـيع ما تزاوله بإدارتك، لا يقع إلا مطابقـا لإرادتك؟ أو كل ما تقـصده وتنويه، تحرزه كما تشاء وتحويه؟ فلابد أن يقر اضطراراً. بأن مطلوبه يشذ عنه مراراً، بل كـثيرا مـا يفلت صيده من أشـراكه، ويطلبه فـيعجـز عن إدراكه؛ فنقول: ومسألتنا من هذا القبيل: أيهـا النبيه النبيل؛ ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ماشـينا، مما يسايرنا فى غرضنا منه ويماشـينا، كقوله ﷺ: «كل شىء بقضاء وقدر حتى العجز والكَيْس». وقـوله أيضًا: «لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض على أن ينفـعوك بشىء، لـم يقض الله لك، لم يقدروا عليـه، ولو اجتمـعوا على أن يضروك بشىء لم يقض الله عليك، لم يقـدروا عليه». أو كما قال ﷺ. فأخلق به أن يلوذ بأكناف الإحجـام، يزم على نفثة فيه كأنما ألجم بإلجام؛ حـينئذ نقول له، والحق قـد أبان وجهه وجـلاه، وقهره بحجـته وعـلاه: ليس لك من الأمـر شىء قل إن الأمـر كله لله. وفى مـحاجـة آدم موسى ما يقطع لسان الخـصم، ويرحض عن أثوب أعراضنا ما عسى أنَّ يعلق بها من درن الوصم؛ وكيفما كانت الحال، وإن أساء الرأى والانتحال، ووقعنا فى أوجـال وأوحال؛ فـثل عـرشنا، وطويت فرشـنا، ونكس لواؤنا، وملك مثوانا، فنحن مثل من سوانا؛ وفى الشر خيار، ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار؛ فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفًا، ولا عدمنا أدوات أدعية

تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفا؛ وإلا فتلك بغداد دار السلام، ومتبوأ الإسلام، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام؛ مثابة الخلافة العباسية، ومقر العلماء والفضلاء أولى السير الأويسية، والعقول الإياسية؛ وقد نوزلت بالجيوش ونزلت، وزوولت بالزحوف وزلزلت، وتحيف جوانبها الحَيْف، ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف، ولا تسل إذ ذاك عن كيف؛ أيام تجلت عروس المنيه، كاشفة عن ساقها مُبْدِيه، وجرت الدماء فى الشوارع والطرق كالأنهار والأوديه، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم فى رقابهم والأردية؛ وللنجيع سيول، تخوضها الخيول؛ فتخضبها إلى أرساغها، وتهم ظماؤها بوردها، فتنكل عن تجرعها ومساغها؛ فطاح عاصمها ومستعصمها، وراح ولم يغد ظالمها ومتظلمها؛ وخربت مساجدها وديارها، واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها؛ فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف، حسبما عرفت أو حسبما تعرف؛ فلا تكن متشككا متوقفا؛ فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا؛ فأين تلك الجحافل، والآراء المدارة فى المحافل؛ حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر، ولم تجد ولا قلامة ظفر؛ إذن فمن سلمت له نفسه التى هى رأس ماله، وعياله وأطفاله، واللذان هما من أعظم آماله؛ وكلٌّ أو جلٌّ أو أَقَلٌّ رياشه، وأسباب معاشه، الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه؛ ثم وجد مع ذلك سبيلا إلى الخلاص، فى حال مياسرة ومساهلة، دون تصعب واعتياص، بعد ما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص؛ فما أحقه حينئذ وأولاه، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه؛ على ما أسداه إليه من رفده وخيره، ومعافاته مما ابتلى به كثير من غيره؛ ويرضى بكل إيراد وإصدار، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار، فالدهر غدار، والدنيا دار مشحونه بالأكدار؛ والقضاء لا يرد، ولا يصد؛ ولا

يغالب، ولا يطالب؛ والدائرات تدور، ولا بد من نقص وكمال للبدور؛ والعبد مطيع لا مطاع، وليس يطاع إلا بالمستطاع، وللخالق القدير جلت قدرته فى خليقته علم غيب، للأذهان عن مداه انقطاع؛ ومالى والتكلف لما لا احتاج إليه من هذا القول، بين يدى ذى الجلالة والمجادة والفضل والطول: فله من العقل الأرجح، ومن الخلق الأسجح، ما لا تلتاط معه تهمتى بصفره، ولا تنفق عنده وشاية الواشى، لا عد من نفره، ولا فار قدحه بظفره؛ والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب، وتجر براحتها إلى المتاعب؛ وقديمًا للأكياس من الناس خدعت، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت، وفعلت بهم ما فعلت، بيسار الكواعب التى جببت وجدعت، ولئن رهصت وهصرت فقد نبهت وبصرت، ولئن قرعت ومعضت، لقد أرشدت ووعظت؛ ويا ويلنا من تنكرها لنا بمره، ورمينا لنا فى غمرة أى غمره؛ أيام قلبت لنا ظهر المجن، وغيم أفقها المصحى وأدجن، فسرعان ما عاينا حبالها مُنْبَتَّه، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغته؛ فمن استعاذ من شيء، فليستعذ مما صرنا إليه، من الحور بعد الكور، والانحطاط من النجد إلى الغور:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ⁂ إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها ⁂ تقلب تاراتٍ بنا وتصرف

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقًا، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأسًا دهاقا؛ ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب، والمنفتح حين سُدت الأبواب، ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا المُلْك من الأثواب؛ وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان. ووجه الله

تعالى يبقى، وكل من عليها فانٍّ، وإلى هنا ينتهى القائل ثم يقول: حسبى هذا وكفان؛ ولا ريب من اشتمال العِلْم الكريم، على ما تعارفته الملوك بينها فى الحديث والقديم، من الأخذ باليد عند زلة القدم، وقرع الأسنان وعض البنان من الندم، دينا به تدينت حتى مع اختلاف الأديان، وعادة اطردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان.

ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة، خير فيها وأعطى من أمانه، المؤكد فيه خطه بأيمانه، ما يقنع النفوس ويكفيها. فلم نر، ونحن من سلالة الأحمر، مجاورة الصفرة، ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهرانى الكفر؛ ما وجدنا على ذلك مندوحة ولو شاسعة، وأمنا المطالب المشاغب حمة شرٍ لنا لاسعة؛ وادكرنا أى ادكار، قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الإنكار: ﴿... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ... ﴿٩٧﴾﴾ [النساء]؛ وقول الرسول عليه الصلاة والسلام، المبالغ فى ذلك بأبلغ الكلام: «أنا برئ من مؤمن مع كافر لا تتراءى نارهما»؛ وقول الشاعر الحاث على حث المطيه، المتثاقلة عن السير فى طريق منحاتها البطيه:

وما أنا والتلدد نحو نجد | وقد غضت تهامة بالرجال

ووصلت [أيضًا][(١)] إلينا، من الشرق كتب كريمة المقاصد لدينا؛ تستدعى الانحياز إلى تلك الجنبات، وتتضمن ما لا مزيدَ عليه من الرغبات؛ فلم نختر إلاّ دارنا، التى كانت دار آبائنا من قبلنا، ولم نرتض الانضواء إلاّ لمن بحبله وُصِل حبلنا، وبريش نبله رِيش نبلنا؛ إدلالاً على محل إخاء متوارث لا عن كلاله، وامتثالاً لوصاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالة

(١) ما بين حاصرتين عن نفح الطيب.

وجلاله؛ إذ قد روينا عمن سلف من أسلافنا، فى الإيصاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا؛ ألا يبتغوا إذا دهمهم داهم بالحضرة المرينية بدلا، ولا يجدوا عن طريقها فى التوجه إلى فريقها معدلا. فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفِجاج، وركبنا إلى البحر الفرات ظهر بحر الأجاج؛ فلا غرو أن نرد منه على ما يقر العين، ويشفى النفس الشاكية من ألم البين، ومن توصل هذا التوصل، وتوسل بمثل ذلك التوسل؛ تطارُحا على سدة أمير المؤمنين، المحارب للمحاربين، والمؤمن للمستأمنين؛ فهو الخليق الحقيق، بأن يسوغ أصفى مشاربه، ويبلغ أوفى مآربه؛ على توالى الأيام والشهور والسنين، ويخلص من الثبور إلى الحبور، ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين؛ ولعل شعاع سعادته يفيض علينا، ونفحة قبول إقباله تسرى إلينا؛ فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر، لإنشاد قول الشريف الرضىّ فى الخليفة القادر:

عطفا أمير المؤمنين فإننا ... فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبدًا كلانا فى المعالى معرق
إلاّ الخلافة ميزتك فإننى ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

لا، بل الأحرى بنا والأحجى، والإنجاح لسعينا والأرجى؛ أن نعدل عن هذا المنهاج، ويقوم وافدنا بين يدى عُلاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج، وينشد ما قال فى الشيرازى ابن حجّاج:

الناس يفدونك اضطرارًا ... منهم وأفديك باختيارى
وبعضهم فى جوار بعض ... وأنت حتى أموت جارى
فعش لخبزى وعش لمائى ... وعش لدارى وأهل دارى

ونستوهب من المنان الوهاب تعالى وجلت أسماؤه، وتعاظمت نعماؤه؛ رحمة تجعل فى يد الهداية أعنتنا، وعصمة تكون فى مواقف المخاوف جنتنا؛ وقبولا يُعَطِّف علينا نوافر القلوب، وصنعًا يُسَنِّى لنا كل مرغوب ومطلوب؛ ونسأله، وطالما بلغ السائل سؤلاً ومأمولا، متابا صادقا على موضوع الندم محمولا، ثم عزاء حسنًا وصبرًا جميلا، عن أرض أورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومديلا، وسادلا عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولا، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح]. فليطر الطائر الوسواس المرفرف مطيرًا، كان ذلك فى الكتاب مسطورًا، ولم نستطع عن مورده صدورًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

ألا، وإنَّ لله سبحانه فى مقامكم العلى الذى أيده وأعانه، سرًّا من النصر، يترجم عنه لسان من النصل، وترجع فروع البشائر الصادقة، بالفتوحات المتلاحقة، من قاعدته المتأصلة إلى أصل، فبمثله يجب اللياذ والعياذ؛ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء. ولأمر ما آثرناه واخترناه، بعد أنَّ استرشدنا الله تعالى واستخرناه، ومنه جل جلاله نرغب أنَّ يخير لنا ولجميع المسلمين، ويؤوينا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع، وجانب [رفيع][1]، آمين، آمين، آمين.

نرجو أن يكون ربنا، الذى هو فى جميع الأمور حسبنا؛ قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا، وساقنا توفيقه وحدانا؛ إلى الاستجارة بملك حفى، كريم وفى؛ أعز جارا من أبى دُواد، وأحمى أنفا من الحارث بن عُباد. يشهد بذلك الدانى والقاصى والحاضر والباد، إن أغاث ملهوفا فما الأسود بن قنان

(١) ما بين حاصرتين عن نفح الطيب.

يذكر، وإنَّ أنعش حُشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله وحده يشكر؛ جليسه كجليس القعقاع بن شور، ومذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب إلى ثور؛ إلى التحلى بأمهات الفضائل، التى أضدادها أمهات الرذائل؛ وهى الثلاث: الحكمة والعدل والعفة، التى تشملها الثلاث: الأقوال، والأفعال، والشمائل؛ وينشأ منها ما شئت من عزم وحزم، وعلم وحلم، وتيقظ وتحفظ، واتقاء وارتقاء، وصول وطول، وسماح ونائل؛ فبنور حلاه المشرق، يفتخر المغرب على المشرق؛ وبمحتده السامى خطره فى الأخطار، وبيته الذى ذكره فى النباهة والنجابة قد طار، يباهى جميع ملوك الجهات والأقطار، وكيف لا وهو الرفيع المُنْتَمى والنِّجار، الراضع من الطهارة صفو ألبان، الناشئ من السراوة وسط أحجار، فى ضِئْضئ المجد، وبحبوح الكرم، وسراوة أسرة المملكة التى أكنافها حرم، وذؤابة الشرف التى مجاذبتها لم ترم؛ من معشر أى معشر، بخلو إن وهبوا ما دون أعمارهم، وجبنوا إن لم يحملوا سوى ذمارهم، بنو مرين، وما أدراك ما بنو مرين:

سم العداة وآفة الجزر

النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر

لهم من الهفوات انتفاء، وعندهم من السير النبوية أكتفاء؛ وانتسبوا إلى بَرّ بن قيس، فخرجوا فى البر عن القيس؛ ما لهم القديم المعروف، قد نفد فى سبيل المعروف، وحديثهم الذى نقلته رجال الزُّحوف، من طرق القنا والسيوف، على الحسن من المقاصد موقوف؛ تحمد من صغيرهم وكبيرهم، ذابلهم ولَدْنهم، فلله آباء أنجبوهم، وأمهات ولدنهم:

شم الأنوف من الطراز الأول

إليـهم فى الشدائد الاسـتناد، وعليـهم فى الأزمات المعـول، ولهم فى الوفاء والصفاء والاحتفـاء، والعناية والحماية والرعاية، الخطو الواسع، والباع الأطول، كأنما عناهم بقوله جرول:

أولئك قوم إنَّ بنوا أحـسنوا البنى وإنَّ عاهدوا وفوا وإنَّ عقدوا شدوا

وإنَّ كانت النعماء فيهم جزوا بها وإنَّ أنعـموا لا كدروهـا ولا كدوا

وتعـذلنـى أبناء سـعـد عليـهم ومـا قلت إلاّ بالتى علمت سـعـد

وبقوله الوثيق مبناه، البليغ معناه:

قـوم إذا عـقودا عـقـداً لجـارهم شدوا العِـنَاجَ وشدوا فوقـه الكربا

يزيحون عن النزيل كل نارح قـاصم، وليس له منهم عائب ولا واصم، فهم أحق بما قاله فى مِنقر قيس بن عاصم:

لا يفـطنون لعـــيب جـــارهم وهم لحـــفظ جـــواره فـطن

حلاهـم هذه الغريزة التى ليست باسـتكراه ولا جعل، أمير المؤمنين، دام نصره، قـسيمـهم فيهـا حذو النعل بالنعل، ثم هو عليـهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مـستـعل؛ ارفض مزنهم منه عن غـيث مُلِثّ يمـحو آثار الّلزْبه، وانشق غـيلهم منه عن ليـث ضار منقـبض على براثنه للـوثبة، فـقل لسكان الفلا: لا تغـرنكم أعدادكم وأمـدادكم، فلا يبالى السـرحان المواشى، سواء مـشى إليهـا النقرى أو الجـفلى؛ بل يصدمـهم صدمـة تحطم منهم كل عرنين، ثم يبـتلع بعد أشلائهم المعـفرة ابتلاع التنين؛ فـهو هو كما عـرفوه، وعهـدوه وألفوه؛ أخو المـنايا، وابن جلا وطلاع الثنايا، مـجتمع أشـده؛ قد احتنكت سنه وبان رشـده؛ جاد مجد؛ محـتزم بحزام من الحزم، مـشمر عن ساعد الجد:

لا يشرب الماء إلاّ من قليب دمٍ ولا يبيت له جار على وجل

أسدى القلب آدمى الرواء، لابس جلد النمر لذوى العناد والنواء:

وليس بشاوى عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم

ولكنه يسعى عليه مفاضة دلاص كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين، والوحاء الوحاء، لاحقين به خاضعين؛ قبل أن تساقوا إليه مقرنين فى الأصفاد، ويعيا الفداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد؛ حينئذ يعض ذو الجهل والفدامه، على يديه حسرة وندامه، إذا رأى أبطال الجنود، تحت خوافق الرايات والبنود، قد لفحتهم نار ليست بذات خمود، وأخذتهم صاعقة الذين من قبلهم: عاد وثمود؛ زعقات سبطانات تؤز الكتائب أزًّا، وهمزاً محققًا للخيل بعد المد المشبع للأعنة همزاً، وسلاً للهندية سلاً وهزا للخطية هزا، حتى يقول النسر للذئب: هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا. ثق خليفة الله بذاك، فى كل من رام أذى رعيتك أو أذاك، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى فى ذوى الشقاق والنفاق، الذين يشقون عصا المسلمين، ويقطعون طريق الوفاق؛ وينصبون حبائل البغى والفساد فى جميع النواحى والآفاق؛ فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين، أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا؟ وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدى كيد الخائنين.

وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم، بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدر ثناء أبهى من در العقد النظيم؛ منتظمين فى سلك أوليائكم؛ متشرفين بخدمة عليائكم؛ ولا فقد عزة ولا عدمها، من قصد مثابتكم العزيزة وخدمها؛ وإنَّ المترامى على سنائكم،

لجدير بحرمتكم واعتنائكم؛ وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصنا حصينا، عاش بقية عمره محروسا من الضيم مصونا؛ وقد قيل فى بعض الكلام: من قعدت به نكاية الأيام، أقامته إغاثة الكرام؛ ومولانا أيده الله تعالى ولى ما يزفه إلينا من مكرمة بكر، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد فى صحائف حسن الذكر، ويروى مُعنعن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر؛ وغيره من ينام عن ذلك فيوقظ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ؛ وما عهد منذ وجد إلا سريعا إلى داعى الندى والتكرم، بريئًا من الضجر بالمطالبة والتبرم؛ حافظ للجار الذى أوصى النبى ﷺ بحفظه، مستغفرا وسعه فى رعيه المستمر ولحظه، آخذًا من حسن الثناء فى جميع الأوقات والآناء بحظه:

فهو من دوحة السنا فرع عز ... ليس يحتاج مجتنيه لهز
كفه فى الإمحال أغزر وبل ... وذراه فى الخوف أمنع حرز
حلمه يسفر اسمه لك عنه ... فتفهم يا مدعى الفهم لغزى
لا تسله شيئًا ولا تستنله ... نظرة منه فيك تغنى وتجزى
فنداه هو الفرات الذى قد ... عام فيه الأنام عوم الإِوَزّ
وحماه هو المنيع الذى تر ... جع عنه الخطوب مرجع عجز
فدعوا ذهنه يزاول قولى ... فهو أدرى بما تضمن رمزى
دام يُحْيِى بكل صنع ومَنٍّ ... ويعافِى من كل بؤس ورجز

وكأنا به قد عمل على شاكلة جلاله، من مد ظلاله، وتمهيد خلاله، وتلقى ورودنا بحسن تهلله واستهلاله، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله، وإيرادنا

على حوض كوثره المترع بزلاله. والله [سبحانه][1] يسعد مقامه العلى، ويسعدنا به حله وارتحاله، ومآله وحاله؛ ويؤيد جنده المظفر، ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه واستنزاله، وهز الذوابل لإطفاء ذباله؛ وهو سبحانه وتعالى المسئول أن يريه قرة العين فى نفسه وأهله وخدامه وأمواله، وأنظاره وأعماله، وكافة شئونه وأحواله. وأحق ما نصل بالسلام وأولى، على المقام الجليل مقام الخليفة المولى؛ أزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبياء الله وأرساله، سيدنا ومولانا محمّد ﷺ وعلى جميع أصحابه وآله، صلاة وسلاما دائمين أبدا، موصلين بدوام الأبد واتصاله، ضامنين لمجددهما ومرددهما صلاح فاسد أعماله، وبلوغ غاية آماله، وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وإفضاله.

انتهى الكتاب[2]؛ وأوردته بطوله لما فيه من ذكرى واعتبار، بما فعلته الدنيا مع الملوك الأعاظم الكبار، ولأنّ الكلام جر إليه، والله تعالى الكفيل بخلاص من توكل عليه.

وصاحب هذا الإنشاء وصفه الإمام ابن داود بقوله: «الفقيه الخطيب الفاضل، خاتمة الأدباء بالأندلس، أبو عبد الله محمّد بن الفقيه الصالح أبى محمّد عبد الله العقيلى المعروف بالعربى.

ومن بديع نظمه هذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| جز بالبساتين والرياض فما | أبهج مرئيها وأجلاه |
| واعجب بها للنبات وكُتُكُ فى | أسفلها ناظرا وأعلاها |
| وقدّس الله عند ذاك وقل | سبحانه لا اله إلاّ هو |

(١) ما بين الحاصرتين عن نفح الطيب.

(٢) إلى هنا انتهى النقل عن المقرى فى نفح الطيب ج٤، ص ٥٨٤.

ورأيت بخط ابن داود المذكور أنه وقع بينه، أعنى ابن داود، وبين الفقيه المدرس أبى عبد الله محمّد بن أبى الفضل بن إبراهيم البسطى، نزاع فى مسألة نحوية، قال: وطال فيها الكلام بما ما تقيد عنى فى غير هذا، فقال الفقيه الخطيب الأديب العلامة أبو عبد الله محمّد بن عبد الله العربى يورى بالقضية، ويشير إلى قصة نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام:

ندد البسطى فى مسألة لابن داود وقد أحكمها

وقديما وقعت معضلة وابن داود الذى فُهِّمَهَا

انتهى.

ومن نظم الشيخ الفقيه، الأستاذ المقرئ الخطيب، الفذ الأوحد، سيدى أبى العباس أحمد الدقون رحمه الله، قصيدة فى ندب الجزيرة، تذكر النفوس بشجوها، فترسل العيون دموعها الغزيرة افتتحها بنثر نصه:

الحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على سيدنا محمّد وعلى آله خير آل. أما بعد فيقول خديم أهل الله تعالى، عبيد الله أحمد بن محمّد الأندلسى، الشهير بالدقون، لطف الله به بمنه وكرمه:

إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء، بأخذ الحمراء؛ قرعت باب الندبه، لما تقدم من الصحبه؛ فقلت أبياتًا صدرت من قلب كئيب، مبكية كل لبيب أريب؛ وسميتها بالموعظة الغراء، بأخذ الحمراء، مبيحا لمن رغب فيها، ولم يرغب عنها، أو استحسن شيئا منها، أن يحدث بها عنى؛ وذلك بعد إتقان لفظها وحفظها، وفهم وعظها ولحظها؛ وإن كنت لا أحسن أن أقول، وربما أُعْزَى بها إلى الفضول؛ لكنى لا أعدم المثيل، وفى مثل هذا قيل:

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها     كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

والله حسبى وعدتى، وهو مقيل عثرتى. وهذا مطلع صباحها، ومنبع افتتاحها:

أمنت من عكس آمال وأحوال     وعشت ما بين أعمام وأخوال

ولا ابتليت بما فى القلب من نكد     فالجسم مشتغل من غير أشغال

وكيف لا وبقاع الدين خالية     من أرض أندلس من أجل أهوال

عمت فغمت قلوب المسلمين فيا     للمسلمين من أعداء وأنكال

جاشت بها من جيوش الكفر ما درست     بهم معالم أخيار وأقيال

أهل الشجاعة أهل العلم أهل تقى     أهل النفاسة فى قول وأفعال

عنهم وفيهم أحاديث النبى بدت     وهم معاقل قول الله للتالى

رهبان ليل وفرسان نهار فمن     يلمم بساحتهم يظفر بآمال

لا عيب فيهم سوى أن المضاف لهم     يسلو عن أهل وأوطان وأموال

فهل ترى بعد هذا النفسَ سائلة     وكيف تَسأل عن وصف وعن حال

تالله لا زال ما فى القلب من أسف     ولو أكون حليف المنزل الخالى

أو يفتح الله فى نصر يمن به     فالله باق يقى من كل محتال

قد رام إطفاء نور الله مجتهدا     وباذلا كل ما قد حاز من مال

سطا بجيش كموج البحر فى عدد     نعم، وفى عدد من رهط أبطال

مؤيدا باجتماع المصر يتبعه     شر الخلائق مسرور بإقبال

يسبى المسامع بالأنفاط[1] مشبهة     وقع الصـــواعق فى هـد وزلزال

يبنى ليـهدم مـا الإسـلام شيـده     والوصف يعجز من يدعى بقلقال[2]

فـهـو المقـاتل فى الأبراج منتـقل     إلف النحـوس وتـغـيـر وترحـال

فاستوطن المرج لا ينوى الرحيل ولا     يخـشى المغيث بسـهل أو بأجبـال

والمسلمون من الأضغان قد ملئت     قلوبـهم وأبوا تســديد أخـــلال

والحق مخـتلف والحمق مـؤتلف     والكل منصـرف عـن نصـر أبطال

وهم لديه كـطيـر وهـو ينتـفـه     والطير يرجـو البقـا مع كيد قـتّال

إذا تجـرد مـن ريش يطيــر به     أضـحى يدافع عن روح بأوصـال

سـدوا مـسـالك أرزاق ومنفـعـة     كـدودة الـقـز فى نسج لســربال

ثم اسـتغاثـوا: ألا فرسان عـادية     قال الصـدى: لست ذا رمح ونبال

والصيف ضيعت ما أملت من لبن     فـفارق الجـبح من تدخـين نحـال

وارْحَل بنحلك نحو الغرب فى كرم     من قبل وضـعك فى قيـد وأغلال

فاستمكن الرعـب فى الأكباد واتـفقت     بعـد اختـلاف على تأمـين أرذال

واحتل غرناطة الغـراء قد عدمت     حب الحـصـيـد ونصـر الله والآل

كأنها الشمس فى أفق العلى كسفت     فـــهل علـى طلل ترمى بـأبطال؟

وهل تعـود ليـال قـد سلفن بهـا     ونحن لا نشكـى تنكيـد ضـلال؟

---

(١) فى سائر الأصول: «أنفاض» والمثبت يقتضيه السياق. والأنفاط آلات ترمى بها الحصون.

(٢) فى هامش المطبوع: «يريد بالقلقال هنا: الفصيح اللسن، كما هو شائع على ألسنة المغاربة حتى اليوم.

وهل يعود لها الدين الذى أنست … به وقد أيست من فتح أبدال؟

فأصبحوا لا ترى إلاّ مساكنهم … كمثل عاد وما عاد بأشكال

قد فرقوا كسبا فى كل منزلة … وقد سبا عده من أيد أو عال

فلا المساجد بالتوحيد عامرة … إذ عمروها بناقوس وتمثال

ولا المنابر للوعّاظ بارزة … للأمر والنهى أو تذكير آجال

ولا المكاتب بالصبيان آنسة … تتلو القرآن بأسحار وآصال

آه على الدين والدنيا وما نفعت … آه إذا صدرت من قلب بطال

إنا إلى الله والرجعى له وبه … تعلق القلب فى تصحيح إعلال

وكان ما كان والألطاف شاملة … لاحت بنُقْلة نسوان وأطفال

فلنكرم الآن من ينزل بمنزلنا … فالدهر ذو دول فاسمع لأمثال

وإذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم … حق الجوار ولا توصف بإهمال

نلقاهم ولنا بشر ومعذرة … ورحمة يا حماة العم والخال

ولا نذد عن ورود الحوض وارده … ولا ندع قول ذى نصح وإجمال

إخوانكم رفعوا أيدى الضراعة مع … كسر القلوب فلا يلقوا بإخمال

وقل لوال تلطف فى مغارمهم … يلطف بك الله إذ تدعى لأحمال

هذا النذير جهارا جاء ينذرنا … والأذن فى صمم عن قيل أو قال

ونحن فى غفلة عما يراد بنا … نمشى على مهلة من طول إمهال

يأهل فاس أما فى الغير موعظة … إن السعيد لموعوظ بأمثال

فـقل تعـالوا إلى نصح وتذكـرة　　فـالأمر جـد فلا تـصحب لمكسـال
كيف الحياة إذا الحيَّات قد نفحت　　على السـواحـل أو همت بإرسـال
ولا سبـيل إلى الترياق غـير تقى　　والحزم فـى سعة مـن قبل إعـجال
والأخـذ فى جـمع القلوب على　　بذل النصـيـحـة أو إبراء أدخـال
والزهد فى الدنـيـا وزخـرفـهـا　　والأمر بالعـرف مع تحسين مـقوال
ولا ترم فى أمــان الروم منـزلة　　خوفـا على الدين أو بعدا من أنذال
فمن يبت فى أمان الكلب منتصبا　　لسـخط مـولـى ولا عـذر بأثقـال
وارباً بنفسك عن أرض تهـان بها　　فحـيثما كنت لا تخـشى من اقلال
فالموت عندى خيـر من حياة فتى　　قـد اكـتسى بعـد عـز ثوب إذلال
والهجرة الآن قد عادت كما سبقت　　فـافهم تـفاصـيل أقـوال وإجمـال
واحتل بذهنك ولتسمع نصائح من　　قد طب مَنْ حَبَّ لم يوصف بمحتال
فى صدر سبع على التـسعين زائدة　　شمـس الجزيرة غابـت بعد إكـمال
وبلغ الكلب ما قـد شاء من أرب　　إذ لم يجـد ذائدا عن ديننا العـالى
ليـقـضـى الله أمـرا كـان قـدره　　والأمــر لله فى قــول وأفـعــال
وقد عظمت ولو أسمعت لانتشرت　　سـحائب الـدمع لم تقلع عن انزال
فليـشتـغل كل مسكين بمهـجتـه　　والله يحــفظنا من كـل مـهــوال
ثم الصـلاة على المختـار سيـدنا　　مـحـمّـد والرضـا عن آل او تالى

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان أبى يزيد خان العثمانى، رحمه الله، ما نصه بعد سطر الافتتاح:

الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها؛ ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عداتها، حضرة مولانا، وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر؛ ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين؛ كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمّد عليه السلام؛ محيى العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم؛ ظل الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه؛ ملك البرين، وسلطان البحرين؛ حامى الذمار، وقامع الكفار؛ مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغياثنا، مولانا أبو يزيد، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونًا بالانتصار، مخلد المآثر والآثار، مشهور المعالى والفخار؛ مستأثرا من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل، فى الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر فى هذه الدار. ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد، مجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروى صدور السمر والصفاح، وألسنة السلاح، باذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخابر مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد:

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولى خير خليفة

سلام على مولاى ذى المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة

سلام على من وسع الله ملكه ... وأيده بالنصر فى كل وجهة

سلام على مولاى من دار ملكه ... قسطينة أكرم بها من مدينة

سـلام عـلى من زين الله مـلكه ... بجـند وأتراك من أهـل الرعـاية

سـلام عليكم شرف الله قـدركم ... وزادكـم مـلكـا عـلـى كل مـلـة

سلام على القاضى ومن كان مثله ... من العلـمـاء الأكـرمـين الأجلة

سـلام على أهل الديـانة والتـقى ... ومن كان ذا رأى من أهـل المشورة

سـلام عليكم من عبـيد تخلفـوا ... بأندلس بالـغـرب فى أرض غـربة

أحـاط بهم بحر من الروم زاخـر ... وبحـر عـميق ذو ظـلام ولجـة

سـلام عليك من عبـيد أصـابهم ... مصـاب عظيم يا لها من مـصيـبة

سـلام عليكم من شيـوخ تمزقت ... شيـوبهم بالنـتف من بعـد عـزة

سلام عليكم من وجـوه تكشفت ... على جملة الأعلاج من بعـد سترة

سـلام عليكم مـن بنات عـواتق ... يسـوقـهم اللبـاط قـهـرا لخلوة

سلام عليكم من عـجائز أكرهت ... على أكل خـنزير ولحمِ لجِـيـفـة

نقـبل نحن الكل أرض بسـاطكم ... وندعو لكم بالخير فى كل سـاعة

أدام الإله ملـككم وحـيـاتكم ... وعـافـاكم من كـل سـوء ومـحنة

وأيدكم بالنـصـر والظفـر بالعـدا ... وأسكنـكم دار الرضـا والكرمـة

شكونا لكم يا مولاى مـا قد أصابنا ... من الضـر والبلوى وعـظم الرزية

غُـدِرنا ونُصِّـرنا وبُدِّل ديننـا ... ظُلمنا وعـوملنا بكل قـبـيحـة

وكلنا علـى دين النبى مـحـمّـد ... نقـاتل عـمـال الصـليب بنيـة

ونلقى أمـورا فى الجهـاد عظيمـة ... بقـتل وأسـر ثم جـوع وقلة

فجـاءت علينا الروم من كل جانب ... بسـيل عظيم جـمـلة بعـد جـملة

ومالوا عـلينا كالجـراد بجمـعهم ... بجـد وعـزم مـن خـيـول وعـدة

فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم ... فنقـتل فـيـهـا فـرقة بعـد فـرقـة

وفـرسانهم تـزداد فى كل ساعـة ... وفـرســاننا فى حـال نـقص وقلة

فلمـا ضعـفنا خـيمـوا فى بلادنا ... ومــالـوا علينا بـلدة بعـــد بلدة

وجاءوا بأنـفاط[1] عظام كـثيـرة ... تهــدم أسوار الـبـلاد المنيـعـــة

وشدوا عـليها فـى الحصار بـقوة ... شـهــورا وأيامـا بجـد وعـــزمـة

فلمـا تـفـانت خـيلنـا ورجـالنا ... ولم نر مـن إخـواننا مـن إغـــاثة

وقلت لنا الأقوات واشتدت حالنا ... أطعناهم بالكره خـوف الفضـيحـة

وخـــوفـــا على أبنـائنا وبنـاتنا ... من أن يؤسـروا أو يقتلوا شر قـتلة

على أن نكون مثل من كـان قبلنا ... من الدجن من أهل البلاد القـديمة

ونبــقــى على آذاننا وصــــلاتنا ... ولا نتركن شـيئـا مِنَ امر الشـريعة

ومن شاء منا البـحر جـاز مؤمنا ... بما شـــاء من مـــال أرض عـــدوة

إلى غـير ذاك من شـروط كثـيرة ... تزيد على الخمسين شـرطا بخمسة

فـقـال لنا سلطانهم وكـبـيـرهم ... لكم مـا شـرطتـم كـامـلا بالزيادة

وأبدى لنا كـتـيـا بعهـد ومـوثق ... وقـــال لنا هـذا أمـــانى وذمــتى

فكونوا عـلى أمـوالـكم ودياركم ... كـــمـــا كنتم من قـــبل دون أذية

---

(١) الأنفاط: الآلات التى ترمى بها الحصون والأسوار كالمدافع.

فلمـا دخلنا تحت عـقـد ذمامـهم بدا غـدرهم فـينا بنقض العـزيمـة

وخان عـهودا كـان قد غرنـا بها ونصـــرنـا كـــرها بعنـف وسطوة

وأحرق ما كانت لنا من مصاحفٍ وخلطهـــا بالزبل أو بـالنجـاســةِ

وكل كـتـاب كـان فى أمـر ديننا فـفى النار ألـقـوه بهـزءٍ وحـقـرة

ولم يتـركوا فـيـها كـتـابًا لمسلم ولا مـصـحـفًـا يخلى به للقـراءة

ومن صـام أو صلى ويعلم حـاله فـفى النار يلـقـوه على كل حـالة

ومن لو يَجِئْ منا لموضع كـفرهم يعـاقـبـه اللـبـاط شـر العـقـوبة

ويلطـم خـــديه ويأخـــذ مـــاله ويجعله فى السـجن فى سوء حالة

وفى رمـضان يفـســدون صيـامنا بأكل وشـــرب مـــرة بعـد مـــرة

وقـــد أمـــرونا أن نسب نـبـــينا ولا نذكـــرنه في رخـــاء وشـــدة

وقد ســمعوا قـوما يغنون باســمه فـــأدركـــهــم منهم ألــم المضـــرة

وعـاقـبـهم حكـامـهم وولاتهم بضـــرب وتغـريم وســـجن وذلة

ومن جاءه الموت ولـم يحـضر الذى يذكـــرهم لـم يدفنوه بـحـــيـلة

ويتـرك فى زبل طريحًـا مجـدلا كـمثـل حمـار مـيت أو بهـيمـة

إلى غـــيـر هذا من أمـور كثـيـرة قـــبـــاح وأفـــعـــال غـــزار ردية

وقـد بدلت أسـمــاؤنا وتحـولت بغـــيـــر رضًـــا منا وغـيـــر إرادة

فـآهًا على تبـديل دين مـحـمـد بدين كـــلاب الروم شـر البـــرية

وآهًـا عـلى أبـنـائـنـا وبـنـاتـنـا يروحـــون للَّبـاط فى كـل غـدوة

يعلمـــهم كـفـــراً وزوراً وفـرية ولا يقـدروا أن يـمنعـهم بحـــيلة

وآهًا على تلك المسـاجد سـورت مـزابـل للكفـــار بعـد الطـهـارة

وآهًا على تلك الـصـوامع علقت نواقـيسـهم فـيهـا نظيـر الشهـادة

وآهًا على تلك البـلاد وحـسنهـا لقـد أظلمت بالكفـر أعظم ظلمـة

وصـار لعـباد الصـليب معـاقـلا وقـد أمنوا فـيـها وقـوع الإغـارة

وصرنا عـبيداً لا أسارى فنفـتدى ولا مـسلمـين نطقـهم بالشـهـادة

فلو أبصرت عيناك مـا صار حالنا إليـه لجـــادت بالدمـوع الـغـزيرة

فيـا ويلنا، يا بؤس ما قـد أصابنا من الضـــر والبلوى وثـوب المذلة

ســألـناك يا مـــولاى بـالله ربنا وبالمصطفى المخـتـار خـيـر البـرية

وبالســادة الأخـيـار آل محـمـد وأصــحابه أكـرم بهم من صحـابة

وبالسيـــد العـبـاس عم نـبـينا وشـيبـته البـيضـاء أفضل شـيبـة

وبالصـالحـين العـــارفـين بربهم وكل ولى فـــاضل ذى كـــرامـــة

عسى تـنظروا فينا وفـيما أصـابنا لعل إله الـعـرش يأتـى برحـمـــة

فـقولك مـســمـوع وأمرك نافـذ ومـا قلت من شىء يكون بسرعـة

ودين النصارى أصله تحت حكمكم ومن ثم يـأتيـــهم إلى كل كـــورة

فـبـالله يا مـولاى منوا بفـضلكم علينـا برأى أو كـــلام بحـــجـــة

فأنتم أولو الإفضال والمجد والعلا وغـوث عـــبـاد الله فى كـل آفـة

فـسل بَابَهُم أعـنى المقـيم برومـةٍ بماذا أجـازوا الغدر بـعد الأمـانة؟

وما لهم مالوا علينا بغدرهم بغير أذى منا وغير جريمة

وجنسهم المغلوب فى حفظ ديننا وأمن ملوك ذى وفاء أجلة

ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة

ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده فذاك حرام الفعل فى كل ملة

ولا سيما عند الملوك فإنه قبيح شنيع لا يجوز بوجهة

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم فلم يعلموا منه جميعًا بكلمة

وما زادهم إلاّ اعتداء وجرأة علينا وإقدامنا بكل مساءة

وقد بلغت أرسال مصر إليهم وما نالهم غدر ولا هتك حرمة

وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قهرة

وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم علينا لهذا القول أكبر فرية

ولكن خوف القتل والحرق ردنا نقول كما قالوه من غير نية

ودين رسول الله ما زال عندنا وتوحيدنا لله فى كل لحظة

ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة

وإن زعموا أنا رضينا بدينهم بغير أذى منهم لنا ومساءة

فسلْ وَحَرا[1] عن أهلنا كيف أصبحوا أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة

وسل بلفيقا عن قضية أمرها لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة

ومنيافة بالسيف مزق أهلها كذا فعلوا أيضًا بأهل البُشُرَّة

وأندرش بالنار أحرق أهلها بجامعهم صاروا جميعًا كفحمة

(١) وحر: اسم بلد.

فـهـا نحن يا مـولاى نشكو إليكم … فـهـذا الذى نلناه من شـر فـرقـة
عـسى ديننا يبـقـى لنا وصـلاتنا … كمـا عاهدونا قـبل نقض العـزيمة
وإلا فيجلونا جمـيعًا من أرضهم … بأمــوالنا للغــرب دار الأحبـــة
فـإجـلاؤنا خيـر لنا من مـقـامنا … على الكفـر فى عز على غـير ملة
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم … ومن عندكم تُقضى لنا كل حـاجة
ومن عندكم نرجـو زوال كـروبنا … ومـــا نلنا من ســوء حـــال وذلة
فـأنتم بحـمـد الله خـيـر ملوكنا … وعـــزتكـم تعلو علـى كل عـــزة
فنســأل مـولانا دوام حـيــاتكم … بملك وعـــز فى ســرور ونعـــمـة
وتهدين أوطان ونصـر على العدا … وكـــثـــرة أجناد ومــــال وثروة
وثم ســلام الله تتلوه رحـــمـــة … عليكم مـدى الأيام فى كل ساعـة

انتهت الرسالة بحمد اله، وكتبتها وإن كانت ألفاظها غير بليغة، تكميلا للفائدة، والله الهادى إلى سواء السبيل.

وكـان أهل الأندلس فى عنفوان أمـرهم فى غـاية البلاغـة. حتى قـال الرئيس ابن الجياب يفتخر بذلك:

أبى الله إلا أن تكون اليـد العليـا … لأندلس من غـيـر شرط ولا ثنيـا
وإن هى عـضـتهـا نيـوب نوائب … فصـيرت الشهـد المشور بهـا شريا
فمـا عدمت أهل البلاغة والحِـجا … يقيـمون فيهـا الرسم للدين والدنيا
إذا حطبـوا قـامـوا بـكل بليـغـة … تُجَلّى القلوب الغلف والأعين العميا

وإن شعروا جاءوا بكل غريبة تخال النجوم النيرات لها حَلْيا

فنسأل فى الدنيا من الله سترة علينا، وفى الأخرى إذا حانت اللقيا

ولعمرى، لقد صدق قائل هذه الأبيات، فإن البلاغة لم تزل شمسها بالأندلس باهرة الإياة، ظاهرة الآيات، إلى أن استولى عليها العدو، وعطل من أهل الإسلام الرواح إليها والغدو، وفى أهل بقية لسان ويراعة، وتصرف فى فنون الإجادة وبراعة، وقد قصصنا عليك آنفًا الرسالة التى كتبها الملك المخلوع لصاحب المغرب فيما سردناه، واطلعت منها على ما يؤيد ما قلناه، من الغرض الذى انتحيناه وأردناه: وقد كان ذلك الكاتب وطبقته تلقفوا كره البلاغة من يد طبقة أخرى حازت معلى القداح، وتبرجت لها من الفصاحة كل خود رداح، كالفقيه الكاتب أبى عبد الله الشران، المبرز فى أدواته على الأنداد والأقران، وكالأديب الشهير الفقيه عمر، الذى لم تزل أخباره إلى الآن سمر، وكفارس تلك الحلبة، الكاتب القاضى الرئيس، الوزير الفقيه، أبى يحيى بن عاصم، الذى حليت بعلومه اللبات والمعاصم، وغيرهم من الجهابذة النقاد، والأعلام الذين تخضع لهم المحاسن وتنقاد، إن جدوا وصلوا مقطوع الأسباب، وإن هزلوا، على عادة الأفاضل فى مثل هذا الباب، ملكوا النفوس وسحروا الألباب؛ وقد سبق من كلام ابن عاصم ما يصحح ما ادعيناه، ولنورد زيادة إذا أبصرنا المنصف المستفيد تقر عيناه، فنقول:

أما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة، وعند الخاصة مرفوضة، إلاّ القليل الذى يُسمح فى مثله لصاحب القلم، كمقامته التى سماها بتسريح النصال، إلى مقاتل الفصال، ونصها[1]:

(١) انظر فى ذلك: المقرى فى نفح الطيب ج٥، ص ٤٠.

يا عماد السالكين، ومحط رحال المستفيدين والمتبركين، وثمال الضعفاء والمساكين والمتروكين، فى طريقتك يتنافس المتنافس، وعلى أعطافك تزهى العبارات وتروق الدلافس؛ وبكتابك تحيا جوامد الأفهام، وبمذبتك تُشرد ذُباب الأوهام؛ وفى زنبيلك يدس التالد والطارف، وبعصاك يهش على بدائع المعارف، الله الله فى سالك، ضاقت عليه المسالك؛ وشاد، رمى بالبعاد، أدركته متاعب الحرفة، وأقيم من صف أهل الصفة؛ فلا يجد نشاطًا على ما يتعاطى، ولا يلقى اغتباطًا، وإن حل زاوية أو نزل رباطًا؛ أقصى عن أهل القرب والتخصيص، وابتلى بمثل حالة برصيص؛ فأحيل عليك، وتوقفت إقالته على توبة بين يديك؛ فكاتبك استدعاء، واستوهب منك هداية ودعاء؛ ليسير ما سويت، ويتحمل عنك أشتات ما رويت؛ فيلقى الأكفاء الظرفاء عزيزًا، ويباهى بك كل من خاطبك مستجيرًا، فاصرف إلى مُحيا الرضا، وأعد من إيناسك العهد الذى مضى، ولا تلقنى مُعرِضًا ولا مُعَرِّضًا، وأصغ إلىَّ سمعك كما قدر الله وقضى:

| | |
|---|---|
| تعال نجددها طريقة ساسان | وعض عليها ما توالى الجديدان[1] |
| ونصرف إليها من مثار عزائم | ونحلف عليها من مؤكد أيمان |
| ونعقد على حكم الوفاء هواءنا | لنأمن من أقوال زور وبهتان |
| ونقسم على ألا نصدق واشيًا | يروح ويغدو بين إثم وعدوان |
| يطرق حوالينا ليفسد بيننا | بمنطق إنسان وخدعة شيطان |
| على أننا من عالم كلما بدا | تعوذ منه عالم الإنس والجان |

(١) القصيدة بطولها لدى المقرى فى نفح الطيب ج٥، ص ٤١ - ٤٦.

وحاشاك أن تلفى عن الصلح معرضا إلى الصلح آلت حرب عبس وذبيان

وإنى أهمتنى شئون كثيرة وصلحك أولى ما أقدم من شانى

فأنت إمامى إن كلفت بمذهبٍ وأنت دليلى إن صدعت ببرهان

سأرعاك فى أهل العباءات كلما رأيتك فى أهل الطيالس ترعانى

ويا لابسى تلك العباءات إنها لباس إمام فى الطريقة دهقان

تفرقت الألوان منها إشارة بأنك تأتى من حلاك بألوان

ويا بأبى الفصال شيخ طريقة خلوب لألباب لعوب بأذهان

إذا جاء فى الثوب المحبر خلته زنيبرة قَدْ مُدَّ منها جناحان

فما تأمن الأبدان آفة لسعها وإن أقبلت فى سابغاتٍ وأبدان

سأدعوك فى حالات كيدى وكديتى بشيخى ساسان وعمى هامان

وإن كان فى الأنساب منا تباين فما تنكر الآداب أنا نسيبان

ألا فادع لى فى جنح ليلك دعوة لتنجح آمالى ويرجح ميزانى

لك الطائر الميمون فى كل وجهة سريت إليها غير نِكْسٍ ولا وانى

فكم من فقير بائس قد عرفته فرقت عليه نعمة ذات أفنان

وكم من رفيع الجاه واليت أنسه فعاش قرير العين مرتفع الشان

فلو كنت للفتح بن خاقان صاحبا لمّا خانه المقدار فى ليلة الخان

ولو لكنت للصابى صديقًا ملاطفًا لمّا قبلت فيه مقالة بهتان

ولو كنت من عبد الحميد مقربا لما هزم السفاح أشياع مروان

ولو كنت قد أرسلتها دعوة على      أبى مسلم ما حاز أرض خرسان

ولو كنت فى يوم الغبيط مراسلا      لبسطام لم تهزم به آل شيبان

ولو كنت فى حرب الأمين لطاهر      لمّا هان فى يوم اللقاء ابن ماهان

ولو كنت فى مغزى أبى يوسف لما      رماه بغدر عبده فى تلمسان

ولو أنَّ كسرى يزدجرد عرفته      لما طاح مقتولا على يد طحان

ولو أنَّ لذريقًا وطئت بساطه      لما أثرت فيه مكيدة أليان

وفيما مضى فى فاس أوضح شاهد      غنى لدينا عن بيان وتبيان

ولمّا اغتنى منك السعيد بكاتب      رأى ما ابتغى من عز ملك وسلطان

فلا تنسى من أهل ودك إننى      أخاف الليالى أن تطول فتنسانى

ولا خير أن تجعل كفاء قصيدتى      كفاء ابن دراج على مدح خيران

فجد بدنانير ولا تكن التى      ألم بها الكندى فى شعب بوان

فجودك فينا الغيث فى رمل عالج      وفضلك فينا الخبز فى دار عثمان

وما زلت من قبل السؤال مقابلا      مرادى بإحساب وقصدى بإحسان

ولا تنس أياما تقضت كريمة      بزاوية المحروق أو دار همدان

وتأليفنا فيها لقبض أتاوة      وإغرام مسنون وقسمة حلوان

وقد جلس الطرقون بالبعد مطرقا      يقول نصيبى أو أبوح بكتمان

عريف يلحانى إذا ما أتيته      ولم أنصرف عنكم بواجب ألحان

وقد جمعت تلك الطريقة عندنا      أئمة حساب وأعلام كهان

إذا استنزلوا الأرواح عند الحلول تأرجت طوائف ميمون وأشياع برقان

وإن بخروا عند الحلول تأرجت مجامرهم عن زعفران ولوبان

وإن فتحوا الدارات فى رد آبق ثنت عزمه أوهام خوف وخذلان

فيحسب أن الأرض حيث ارتمت به ركائبه سرعان رجل وركبان

وقد عاشرنا أسرة كيموية أقامت لدينا فى مكان وإمكان

فلله من أعيان قوم تألفوا على عقد سحر أو على قلب أعيان

ونحن على ما يغفر الله إنّما نروح ونغدو من رباط إلى حان

مع الصبح نضيفها عباءة صفة والليل نذليها زنانير رهبان

أتذكر فى سفح العقاب مبيتكم ثمانين شخصًا من إناث وذكران

لديكم من الألوان ما لم يجىء به طهور ابن ذنون ولا عرس بوران

ثم ذكر خمسة أبيات أقذع فيها، فلذا تركتها[1]، ثم قال:

فأقسم بالأيمان لولا تعففى عن السوء لانحلت عقيدة إيمانى

فعد للذى كنا عليه فإنَّ لى على الغير إن صاحبته حقد غيران

فمن يوم إذ صيرت ودى جانبًا وأعرضت عنى ما تناطح عنزان

ولا روت الكُتّاب بعد نفارنا محاورة من ثعلبان لسرحان

وما هو قصدى منك إلا إجازة تخولنى التفضيل ما بين خلانى

وإنك إن سخرت لى وأجزتنى لنعم وليًّا صان ودى وجارانى

ولم لا ترويِّنى وأنت أجل من سقانى من قبل الرحيق فروّانى

(١) الأبيات ذكرت فى نفح الطيب بتمامها.

ألا فأجزنى يا إمامى بكل ما		رويت لمد غليس أو لابن قزمان
ولا تنس للدباغ نظما عرفته		فإنكما فى ذلك النظم سيان
ومزدوجات ينسبون نظامها		إلى ابن شجاع فى مديح ابن بطان
وألمم بشىء من خرافات عنتر		وألمع ببعض من حكايات سوسان
وإن كنت طالعت اليتيمة واسنى		بلامية فى الفحش من نظم واسانى
أجزنى بكشف الدك أرضى وسيلة		وخير جليس فى بساط ودكان
وناولنى المصباح فهو لغربتى		ميسر أغراضى ورائد سلوانى
وألحق به شمس المعارف إننى		أسائل عن إسناده كل إنسان
وقد كنت قبل اليوم عرفتنى به		ولكننى أنسيته بعد عرفان
ولا بد يا أستاذ من أن تجيزنى		ببدء ابن سبعين وفصل ابن رضوان
وكتب ابن أخلى كيف كانت فإنها		لوزن رقيق القول أكرم ميزان
ولا تنس ديوان الصبابة والصفا		لإخوان صدق فى الصفا خير إخوان
وزهر رياض فى صنوف أضاحك		وجبذ كساء فى مكايد نسوان
كذاك فناولنى كتاب حباحب		وزدنى تعريفًا بها وببرجان
ولى أمل فى أن أروّى رسالة		مضمنة أخبار حى بن يقظان
وحبس على الكاس والكوز والعصا		فإنك مثر من عصى وكيزان
وصير لى الدلفاس أرفع لبسة		فقد جل قدرى عن حرير وكتان
وقد رق طبعى واعترتنى خشية		يكاد بها روحى يفارق جثمانى
وخل مفاتيح الطريقة فى يدى		وسوغ لهم فيها مزيدى ونقصانى

فـإنـى لـم أخـدمك إلاّ بنيـة     وإنى لم أتبـعك إلاّ بـإحسـان
فكن لى بالأسـرار أفـصح مـعلن     فإنى قـد أخلصت سـرى وإعلانى

انتهت المقـامة. وأثبتهـا لأنها أخف ما رأيت من هزليـات الفقيه عـمر المالقى، رحمه الله وسامحه، ومـثل هذا الهزل قد وقع لكثير من الأئمة على سبـيل الإحماض، ولم يعنـوا غالبًا إلاّ إظهـار البلاغة والاقـتدار، كمـا فعل الحريرى وغير واحد، والأعمال بالنيات.

ومن نظم الفقيه عمر المذكور قوله عفا الله عنه:

إلى الله ربى أشـتكى سوء حـالتى     عـسى فـرجٌ يأتى بأفـضل حـالى
ومـا أسـفى إلاّ لمالى أبيـعـه     وخـائن مـالى يـشتـرى بمالى

ومن أبدع ما صدر عنه رحمه الله مقـامة فى أمر الوباء، رأيت أن أثبتها لغرابة منزعـها، وإن كان بعض فصـولها لا يجرى على المشهـور من مذاهب العلماء، ونصها:

إلى حمراء الملك وقلعـته، ومقر العز ومنعته، ومطـلع كل قمر نصرى يخـجل الأقمـار بطلعـته، أبقـاها الله على تعـاقب الزمان، منزل أمـان ودار إيمان، وأمتعها بحياة الملك الخزرجى اليـمان، من موجبة إجلالها كما يجب، المعتـرفة بفضلها وشـرفها وأنوار الشمس لا تحـتجب، والواقفة عند إشـارتها وطاعتـها، فإن تأمـر أمتثل وإن تدع أسـتجب، مالـقة، المستـمسكة بذمتـها الوثيقة، المتـشوفة إلى أخبارها تشوف المحـبة الشفيقة، إلى ريحـانة قلبها فى الحقيقة، وإلى هذا يا سيدتى ويا عـدتى، ويا ذخيرتى ويا عمدتى، أمتعنا الله وإياك بحيـاة من استنفذها من الورطات، وردنا إلى الصـواب مما كان منا من

الغلطات، مولانا الغالب بالله وحده، الموعود بعزيز النصر وقريب الفتح والله ميسر وعده.

سلام عليك يتعطر بذكر مولانا أمير المسلمين فوحه، وينشق كالمسك الفتيت روحه، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنى أحمد الله الذى إذا استكفى بعزته كفى، وإذا استشفى بكلمته شفى، وإذا سئل بواسع رحمته عفا؛ وأصلى على رسوله محمد الكريم المصطفى، وعلى آله وأصحابه، أكرم من نصح له وأخلص ووفى.

كتبته إليك يا سيدتى عن نفس قلقة، ساهرة أرقه، حاذرة مشفقة، ملهبة بل محترقة؛ وإنى أقسم عليك بالرب الذى كرمك بالعز وشرفك، وعرفك من لطائف الفرج بعد الشدة ما عرفك، أن تسعدينى على تسكين لوعتى، وتأمين روعتى وتراجع رقادى بعد سهادى، وقضاء حاجة جلت فى فؤادى، وتفهمى مراد إشارتى وإشارة مرادى، وتتركى هوى النفس الذى للحق معاند وللرشد معادى.

ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم: «الشفيق مولع بسوء الظن»، ومن منن الله على عبده الوقاية من المتالف جل الله العظيم المن؛ وعلى قول المتنبى:

ربما ضر عاشق معشوقا     ومن البر ما يكون عقوقا

والمثل الأول لى والآخر لك، والله ييسر فى حفظ مولانا أملى وأملك. وإنى أتعجب من مساعتتك على إقامة مولانا بمنزل، هذا المرض به فاش، وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش، وسمعت أنّ حديث السفر لمالقة

أثقل عليك من حديث رقيب وعاذل وواش؛ وأنَّ الآراء فى ذلك اختلف، ولم يرجع فيها إلى سنن تقدمت وعوائد سلفت؛ والأوائل من المؤمنين رحمهم الله ما تركوا شيئًا سدى، بل نصبوا كل طريق إلى النجاة علم هدى، وسمعت يا سيدتى أنَّ القضية عول على المقام والاستسلام، وخلوف فيها رأى الخليفة الرشيد لما تحول فى مثلها عن سكنى دار السلام، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام؛ وقد سمعت فى الأجوبة الظريفة، ما صدر من قوله: أخشى أن أكون أول خليفة؛ وقد كنت يا سيدتى أرتجى أن يكون لهذا المرض ارتفاع، أو يحصل بدخول فصل البرد انتفاع؛ فتركت الكتب منتظرة لذلك إلى أن تزايدت الحال وأنت على حالك، لا يمر الترحال بخاطرك ولا ببالك، وأنا أقول: أما واجب التسليم، لتقدير العزيز العليم؛ فمتأكد شرعًا، لا يضيق به المؤمن ذرعًا؛ لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد، إذا قيل له اهرب من الأسد؛ وقد أبصره مقبلا إليه، أو منقضا عليه؛ أيأخذ فى تحفظه واحتراسه، أم يصبر لافتراسه؟ ومن قيل له فى ظلم الليل: ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل؛ أن ينام فى مكانه، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه؟ ومن نودى: هذه الخيل قد طلعت مغيرة، والرعاة فى الجبال مستجيرة؛ فارفع غنمك قبل الاكتساح، فالوقت فى انفساح؛ أيتركها تسرح، ولا يبرح؛ أم يرفعها لتسلم، مما تدرب وتعلم؟ وكذلك إذا قامت الرماة صفوفا وأصابت سهامهم من الخلق الوفا؛ أيرجّح الحق تباعدًا أم وقوفًا؟ وكذلك أيضًا المنازل، التى تدوم بها الزلازل فأرضها فى كل يوم تميد، ودهش القلوب بها حاضر عتيد أو الخسوف بها فى يوم ينقض وفى يوم يزيد لا تسمع فيها إلا سقوط جدار، على ركن دار؛ وانفكاك الأركان، على السكان؛ وإخراج ميت، من تحت بيت؛ وسقوط سارية، على جارية؛ أيعزم على السكنى والاستيطان تحت

هذه الحيطان؛ أم يؤخذ فى الاحتيال، بالخروج بالأطفال والعيال؟ يا سيدتى الحمراء، سألتك فاخبرينى، وإن تحير فهمى فاعذرينى ووصل إلى الكتاب الشريف، من جنان العريف؛ يذكر أن السلامة كانت به مستصحبة لمولانا ولناسه، وأن العافية كانت بهم منتشقة أنفاس رنده وآسه، ما عرضت به إلى طبيب حاجة ولا استدعى فيه المعاور للنظر فى رجاجة؛ ولا لقول ولا عمل، ولا بلغ فى الجساوة والقساوة أقل أمل؛ ولم ينتقص من الساكنين بهذا البستان، من عبيد مولانا السلطان، غير فتى من الخصيان، لا يساوى عشرة دراهم فى سوق الفتيان، والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامة، بطول أيام الإقامة؛ وعرفنى أيضا جنان العريف فى وافد كتابه، ووارد خطابه، أن رغبته كانت فى انتقال مولانا نصره الله من صحيح هوائه، وسلسبيل مائه؛ ونفحة جنابه، وتلاعب النسيم العاطر بين قبابه. إلى مالقة حيث الجو الصقيل، والروض الذى يطيب به المقيل، والراحة التى تمتزج بالأرواح كما قيل؛ حيث العَرْف الأرِج، والوادى المنعرج والساحل الذى ينشرح به الصدر الحرج، حيث البنفسج يدير كئوس البهار، والياسمين نجوم طالعة بالنهار؛ حيث يتمارج طيب الزهر، بعَرْف الأترج ونفحات السحر حيث يشبه أنين السوانى، حنين المتعشقات من الغوانى، إذا حمد الصباح، وانفلق الإصباح؛ وعمرت صغار القوارب، ونادت بحُرية الشباك: إلى المضارب، وسالت أنوار المشارق على جوانب المغارب، ونادى محرك الجيش: ظهور الخيل، وصباح الخير، واستقبلوا الوادى الكبير لمصيد الأرانب والحوت والطير؛ شكر الله جنان العريف على ما قصد ونوى، وعلى ما اظهر من اتباع حق ومخالفة هوى، اعتماداً من أخبار الدول القديمة على ما حفظ وروى. وقال لى يا سيدتى: إنك وقفت مع الحديث المنصوص، الوارد فى مثل هذا المرض على الخصوص؛

وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض على الخصوص؛ وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه، ومن القدوم على معتركاته ومصارعه؛ والحديث الصحيح، والرشد فيه قول صريح؛ ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد فى كتابه الجامع من البيان والتحصيل؛ والاتفاق من الجميع أن النهى فى هذا الحديث ليس بنهى تحريم، وإنّما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم؛

فلا إثم ولا حرج، على من أقام ولا على من خرج. وقال عمرو بن العاص: الأفضل الخروج لأهل الفطنة، اتقاء من يؤدى إلى فتنه؛ وكفى بعمرو بن العاص حجة لمن أراد انتصارا، والكلام كثير، ولكنى اختصرته اختصارا؛ وإن نظراً قدمه كثير من الصحابة ورجحه، لخليق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنجحه! يا ليت تفقهى كله يكون من هذا القبيل، وجاريا على هذا السبيل، مستنداً إلى قول صحابى جليل، ومستدلاً بأرشد علم ودليل، ولو كان على خلاف المشهور من قول خليل. وهنا يقال: ما فى هذه القلة غير هذا الإغريل[1]. يا سيدتى الحمراء؛ أراك فى هذه القضية تفقهت وتوقفت فيما بينه عالم وذو علم، وَمَنَعْت مما ليس فيه حرج ولا إثم؛ ولو كنت حاضرة لكان لى معك حديث طويل، واحتجاج ينصره نص وتأويل. وسمعت أنكِ أشفقتِ من عظيم النفقة، وليس هذا موضع الشفقة؛ فالأمر ليس بغال، ولو يشترى بكل ذخيرة وكل مال؛ والأولى بالملامه، من يفضل شيئًا على السلامه. القمح يأكله السوس، والذهب تغنى عنه الفلوس، فكيف يستعظمان فيما تؤمن به النفوس. وبلغنى أنكِ قلت: مالقة ليس بها زرع، وبقليل المقام يضيق لها صدر وذرع، وفلاحتها وحرثها ليس لهما أصل ولا

(١) كذا فى الأصل ولا وجه له.

فرع؛ وعز على هذا الكلام ولكننى سلمت والسلام؛ فإن سعرى عن سعر غرناطة منحط، وفى لمحة بصر يضيق منى بالطعام فى كثير من الأيام ساحل وشط، ولا يعلم أنه دامت لى شدة قط. لى فى الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على سبع مائة العام، ما أشغلت فيها فكراً ولا قلباً بادخار قوت ولا باحتكام طعام؛ أثق فى اليوم والغد، بالرزق الرغد؛ تأتى به الرياح على الأعناق، ويفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق، وتجلبه الأحباب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهاب الرزاق.

قالت النملة: افتخارى، بادخارى؛ قالت العصفورة: توسلى، بتوكلى؛ قالت النملة: أعتمد على الحب؛ قالت العصفورة: أتوكل على الرب. فلما جن الليل، أقبل السيل؛ فخرجت النملة بالعوم، وبقيت الحبوب بين الدوم؛ فنزلت العصفورة وسجدت، والتقطت من مدخر النملة كل ما وجدت؛ وقالت: خسر المحتكر، وربح طالب الرزق المبتكر، الكريم لا يفتخر بما يدخر.

وصح عندى أنَّ الوزير أعزه الله ليس عنده فى هذا كله كلام ولا قول وأنَّ الأمر عنده مُفَوّض إلى الرب الذى له القوة والحول. وسمعت يا سيدتى أنَّ هذا السقم، أعظم تأثيره إنّما هو فى قطع الأكباد، من صغار الأولاد؛ الذين من فوق السبع ودون العشر، وهم فى هذه السنين رياحين القلوب العاطرة النشر؛ وهذا إلى كتبى لك أعظم داع، فإنَّ الأولاد سوائم والوالد راع؛ والراعى لا يترك غنمه فى الطريق سبع ضار، ولا قريبًا من حريق نار؛ ومحن نشاهد الطير ينقل أفراخه من وكر إلى وكر، ويسترها بملتف الشجر إذا خاف عليها عادية جارح أو صاحب مكر؛ فكيف لا نقتدى فى تأمين روعتنا

بمن تقدم من الأكابر، ونقف فى حامل السيل بأولادنا الأصاغر؛ فما عندكِ فى هذا كله من القول ومن الجواب؟ وما يظهر لك من وجه الرأى والصواب؟ اكتبى بذلك كتابًا أعتمد عليه، وأستند إليه؛ وقبلى عنى يد مولانا تقبيلا، ويا ليتنى وجدت إلى ذلك سبيلا؛ وأخبريه أنى فى خدمته على نيتى الأولى، عاكفة على شكر منته الطولى؛ أدام الله حياطة البلاد والنفوس بحفظه وحياطته؛ وأسمعنى البشارة بقدومه على محدث مالقة من حمراء غرناطة؛ ويحفظه فى النفس والأولاد والملك والبلاد، بمنه وفضله.

وكتب بتاريخ ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وثمان مائة. انتهت المقامة.

وكلام المذكور كثير، ومحله من عذوبة المنطق أثير؛ أعلى طبقة من نثره طريقةٌ مَعَرّيّه، حسبما يظهر ذلك بالتأمل لنفوس بالإنصاف حرية؛ وله عدة تآليف أكثرها هزلية، ولذلك لم أجلب شيئًا منها سوى ما تقدم، مما يقتضى ما أصلناه من المزية، والفضيلة للبلاد الأندلسية.

ومن أحسن مقطوعاته التى تطرح بها على باب الكريم، وتطفل بها تطفل من لا يبرح عن باب سيده ولا يريم؛ ويرجى له بها كل جميل، والله لا يخيب ما أمله من تأميل قوله رحمه الله:

عقيدة دين الحق أن محمدا ... له الفضل إطلاقًا على كل مخلوق

وإن سبقت رسل بكتب وبعثة ... فما هو فى مجد وفضل بمسبوق

فهذا إذا ما عشت أولى عقيدتى ... وهذا إذا ما مت آخر منطوق

وقوله:

جئتك يا رب ولا عذر لى ... وهل لعبد السوء من معذره؟

أرجـــوك فـــيـــمـــا أنـــت أهل له فـأنـــت أهل العـفـــو والمغـــفـــره

وقوله فى مرضه:

يا ســامـــعـين الكلام مـخـــتلطا نظـمًـــا ونثـــراً قـــلائداً ودرر

صلوا عـلى المصطـفى وســيلـتنا محـمدٍ وارحـموا الـفقـيه عـمر.

وأما الكاتب الرئيس أبو عبد الله الشـران، فهو الشـيخ الفقـيه الرئيس الصدر، العـلامة العماد، الذخـر الأرفع، العلم الأوحد، الأمجـد الأسرى، الذى لا يجارى فى الإنـشاد والاختـراع كلامًا جـزلاً، وقولاً فـصلاً، رئيس الكتبـة بالحضرة العلية، أبو عـبد الله ابن الشيخ الفاضل الماجـد الأعز الأرفع الأوجه أبى إسحاق، كان حيا سنة سبع وثلاثين وثمان مائة. هذا كلام بعض الأندلسيين فيه.

وقال القلصـادى فى حقه: هو الـفقيه الـوجيه اللبـيب اليقظ الأدرى، الأديب الأحظى، الرئيس النبـيل الأرقى؛ وحيـد عصره وأوانـه، وفريد دهره وأقرانه، أبو عبد الله محمد الشران الغرناطى، تغمده الله برحمته.

وذكر هذا الشـيخ القلصادى فى طـالعة شرحـه لأرجوزة أبى عـبد الله الشران المذكور، التى أولها:

بحـمــــد خـيـر الوارثيـن أبتـدى وبالـســـراج النـبـــوى أهتـــدى

وهى أرجوزة عذبة النظم، سهلة المأخذ مختصرة فى علم الفرائض.

ومن بديع نظم الكاتب أبى عبد الله الشران رحمه الله تعالى قوله:

فـلا تمنع الـعـين انهـمـــالاً فـإنه غـرام شجٍ إسناده غـــيـر مـهـمل

أحاديث ترويها الجـفون عن الحشا ويثـــبت منهـــا مـرسل بمـسلسل

وقوله يخاطب الفقيه الصالح سيدى أحمد بن حرشون، وقد أهدى له قرص زعفران:

أهلا بقرص زعفران أطلعت ... من حسنها للقلب باعث أنسه
حيا الخلوص به وغير عجيبة ... للبدر أن حيا بقرص شمسه
يا نيرا للمجد أهدى نيرا ... كل امرئ إهداؤه من جنسه

وقوله:

لمّا اختفت شمسك عن ناظرى ... أرست منه مطر الدمع
وأقبلت ظلمة الليل النوى ... فما ترى فى رخصة الجمع

وحكى الحافظ أبو عبد الله التنسى رحمه الله أنه لما صرف الفقيه أبو الفضل ابن جماعة عن رياسة الكتابة بغرناطة إلى قضاء الجماعة وولى مكانه صاحب الترجمة أبو عبد الله الشران لقى بعض رؤساء الدولة ابنَ جماعة يوما فقال له: يا سيدى إنَّ السر الذى عهدناه فى الحضرة غاب عنها بغيبتك. فقال له: وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع وأخذتم الشر المكرر.

ثم إنَّ ابن جماعة كان عنده إعذار فدعا أعيان البلد إليه ولم يدع الشران فكتب إليه الشران:

ماذا أعد المجد من أعذاره ... فى ترك دعوتنا إلى إعذاره
إن كان الرسم دون محضرنا اكتفى ... لا بد أن يبقى على إعذاره

ثم قال الشيخ التنسى: والشران هذا ممن له باع مديد فى الشعر وتصرف حسن. انتهى.

ومن بديع نظم الشران المذكور قوله رحمه الله :

| | |
|---|---|
| دوام الحـال من قـضـايا المحـال | واللطف مـوجـود على كل حـال |
| والنصـر بالصـبـر مـحـلى الظُّبى | والجـد بالجـد مـريش النبـال |
| وعـادة الأيام مـعـهـودة | حـرب وسلم والليـالى سـجـال |
| ومـا على الدهر انتـقـاد على | حـال فـإن لحـال ذات انتـقـال |
| من لـليـالـى بائتـلاف وكم | من اعـتـبـر باخـتـلاف الـليـال |
| أخـذ عطاء مـحـنة منحـة | تفـرق جـمع جـلال جـمـال |
| حـال انتظام وانـتـشـار مـعـا | كـأنما هـذى الليـالى لآل |
| وهل سنى الصـبـح وجنح الدجى | لخـلـقـة الأضـداد إلاّ مـثـال |
| والـظُّـلَم الحُـلْـكُ عـلى نـورهـا | تدل والعـسـر بيـسـر يدال |
| والسـيف قـد يصـدأ فى غـمـده | ثم يجلى صـفـيـحـتـه الصـقـال |
| والشـمس بعد الغـيم تُجْلَى كمـا | للغـيث من بعـد القنوط انهـمـال |
| والفـرج الموهـوب ترجـى به | لطائـف لم تجـر يـومـا ببـال |
| فـصـابر الدهر بـحـاليـه من | حلو ومـر واعـتـدا واعـتـدال |
| فـمـا للصـبـر عـلى حـالة | وإنما الـصـبـر حلى الرجـال |
| ولا يضـيق صـدرك من أزمـة | ضـاقت فـصنع الله رحب المجـال |

إلى هنا توجـد هذه القصيـدة بأيدى الناس ورأيت بخط بعض الأخـيار بعد هذا البيت زيادة كثيرة على ذلك منسـوبة لصاحب القصيدة وهى لا تبعد

من نفسه على إنَّ فيها إيطاء. وهأنا أيضا أثبتها بجملتها لغرابتها وجزالتها ولاشتمالها على مديح المصطفى المجتبى ﷺ ونصها بعد قوله: «رحب المجال»:

| | |
|---|---|
| وانظر بلطف العقل كم كربة | فرجها لطف كحل العقال |
| وكل إليه كل حاج فما | لذى حجا إلاّ عليه اتكال |
| وكل بدء فله غاية | وغاية الخطب الشديد انحلال |
| وكل عود فله آية | وآية العقل اعتبار المآل |
| وفى مآل الصبر عقبى الرضا | من فرج يدنى وأجر ينال |
| عجبت للعبد الضعيف القُوَى | يغر بالرب الشديد المحال |
| يهوى على الآمال مسترسلا | طوع الهوى حيث أمالته مال |
| تخدعها النفس بتخييلها | وهل خيال النفس إلاّ خبال |
| يخال أن الأمر جار على | تدبيره هيهات مما يخال |
| الخلق والأمر لمن لم يزل | فى مُلكه المَلْك وما إن يزال |
| والفعل والترك دليل على | مراده والكل طوع انفعال |
| يعطى فلا منع ويقضى فلا | دفع ويمضى حكمه لا يبال |
| يدبر الأمر فعن أمره | تقدير ما فى الكون سفل وعال |
| يضل يهدى حكمة أنفذت | فضلا وعدلا فى هدى أو ضلال |
| وحكمة البارئ فى حكمه | ما لمجال العقل فيها مجال |

| | |
|---|---|
| والرب لا يسأل عن فعله | قد قضى الأمر ففيم السؤال |
| فيا أخا الفكر اشتغالا بما | فى غيره للفكر حق اشتغال |
| سلم ففى التسليم من كل ما | ينفذ تسليم وتنعيم بال |
| وارض بما فاتك أو نلته | فعكسه ما لك فيه مجال |
| وفوض الأمر إلى الحق لا | تركن من الدنيا لحال محال |
| فذو الحجا فيما اتقى وارتجى | بالعدل حال ومن العذل خال |
| يرضى بقسم الرب كل الرضا | فى كل حال ما عن العهد حال |
| يرى خلال الشكر والصبر فيـ | ـما سر أو ساء أبر الخلال |
| فهو على الحالين قد نال من | مناه فى الدارين اقصى منال |
| ما أقصر الدنيا على مَرِّها | كالظل ما أقصر مدّ الظلال |
| فافطن لها حزما ففى ظلها | ما قال حازم حيث قال |
| ما يقظات العيش إلاّ كرى | ولا مرائى العين إلاّ خيال |
| يا ليت شعرى والمنى عبرة | والشعر قول ينافى الفعال |
| هل يستحيل العهد من صبوته | فقد مضى عهد الصبا واستحال |
| والشيب هل يوقظنى صبحه | فالنوم فى ليل من اللهو طال |
| وكسرتى من عسرتى هل تقى | وعثرتى من عبرتى هل تقال |
| هذا زمانى فى تول وفى | عزمى توان والهوى فى توال |
| حال من احتل بدار البلا | ولم يحدث نفسه بارتحال |

يا رب مـــا المخلص من زلتى　　لا عـمل لا حـجة لا احـتيـال
يا رب مـــا يـلقـــاك مــثلى به　　عن طاعـة لـم ألقـهـا بامــتـثـال
يا رب لا أحـــمل حـر الصـــبا　　فكيف بالنـار لضعـفى احـتمـال
أم كيـف عذرى وقد أعـذرت لى　　بأخـذ حـذرى مـن دواعى النكال
رحـــمـــتـك اللهم فـــهـى التى　　لهـا على العـاصيـن مثلى انـثيـال
ولا تعــــاملنـا بأعـــمــــالـنا　　لكـن رجـا آمـــالنا صل ووال
وبامـــتـــداح المـصطفى هـب لنا　　مـــآثم الفـــعل لبـــر المقـــال
فـمـا ســوى حـبى لـلمــصطفى　　وســيـلة لى بعـــراها اتصــــال
ذلك تجـــــرى وعلـى فـــضـلـه　　طمـعت فى الفضل بلا رأس مـال
فـــإن يـفـــز قــدحى بمـدحى له　　فـــقـــد يجل النـور قــدر الذبال
ورائد الـغــــر الغــــوالى عـلى　　مـــــوثقــــــة ممـا نوى مــن نوال
أعظـم بأمـــداح نبـى الهــــدى　　حـبل اعتـلاق أو شـفـاء اعتـلال
خـيـر الورى مـن باد أو حـاضـر　　أكـرمهم من خـاف أو ذى انتعـال
فـــاديهــم من فـــتكـات الردى　　هاديـهم فى هـلكات الـضــــلال
حـاميـهم بالعـضب إذ لا حـمى　　كـاليـهم فى الخطب إذ ليس كـال
منيلـهم إذ لا جــــدى يـرتجى　　مـــقــيلهم إذ لا عـــثـــار يقـــال
قـــريعـــهم فـى بقـــات العـــلا　　شـفيـعـهم فى عـرصات السـؤال
مـؤويهم من حـوضـه من صـدى　　مـــؤويــهم من جـــاهـه فى ظلال

أطول من سال بسيب الندى ... أَصْوَل من فى الحق بالسيف صال
من خصه الله بخصل المدى ... فى كل ما عم الهدى من خصال
من باهر الحسن وفضل التقى ... وحكمة النطق ومجد الفعال
حال من العلم بأسنى حلى ... واف من الحلم بأزكى خلال
نور مبين صادق فارق ... مبشر هاد ختام كمال
أبيض يستسقى الحيا باسمه ... كهف الأيامى لليتامى ثمال
الرحمة المهداة ضمن احتفا ... والنعمة المسداة خلف احتفال
كم آية جلى لنا أو تلا ... وغاية جلى بها دون تال
ذو العرش أسمى قدره فاسمه ... فى العرش مقرون مع اسم الجلال
وذكره رَفّع فى ذكره ... حمدا ليتلو مدحه كل تال
أعطاه دون الرسل خمسا كفت ... يد امتنان العطايا الجزال
لم يبعث الرسل اشتمالا وفى ... بعثته للثقلين اشتمال
وقسمة الأنفال حِلاً وما ... من قبل كانت لنبى حلال
والأرض طهرا ومصلى لأن ... كان له كون بها واحتلال
والنصر بالرعب لشهر مدى ... ينازل الأعداء قبل النزال
والنعمة الكبرى التى نالها ... شفاعة الأخرى ونعم المنال
وليلة المعراج أسرى فما ... أسرى وأسنى شرفا فى الليال
جال وجبريل أنيس له ... من السموات العلى حيث جال

حتى انتهى من سدرة المنتهى إلى مقام لم ينله مقال

قال له الروح مقامى هنا وأنت فاصعد لمقام الوصال

فقال: يا أنسى أفردتنى حيث دهتنى مدهشات الجلال

فقال: كلا إنّما الأنس ما أنت موال ولك الله والْ

طأ حضرة القدس اتصالا فما أبيح منها لسواك اتصال

فزجًّه فى النور زجا رأى وراءه للحق نور الجمال

شاهد ما شاهد مما ارتقى عن مبلغ العقل ووهم الخيال

فقال قوم بفؤاد رأى وعالم بالعين والقلب قال

وليس ذا وهو محال على حال مقام الحب مما يحال

حيث تدلى قاب قوسين أو أدنى نجيبًا فى ظلال الدلال

وبعد ما فى النجم يتلى علا ثم أتى والنجم فى الأفق عال

وباحتمال الجسم والروح فى مسراه صح القول دون احتمال

وبانشقاق الصدر طفلا فقس له انشقاق البدر عند اكتمال

لنسبة بينهما فى الهدى والحسن والقرب وبعد المنال

فنور هذا كم جلا من دجى ونور هذا كم هدى من ضلال

كلا بل الأنوار حيث انجلت حسا ومعنى منه كلا تنال

ولانشقاق البدر من نوره أبدى انشقاقًا وهو تغيير حال

شق هلالين على صفحتى ظلمائه فى كل شق هلال

والشطر منه لاستلام الثرى		بين يديه بالسلام استمال
بل أخجل البدر لنقصانه		فانحط منشقا لبدر انكمال
هم سألوها آية أعرضوا		عنها وقد جاءت وفاق السؤال
قالوا وقد خالوا[1] بسحر أتى		فقالت هذا السحر سحر حلال
بل عجبوا من نكتة الكون أن		أعطاه رب الكون ما منه سال
وهجرة بل وصلة للرضا		وربما نيل بهجر وصال
ضفا لحجب الستر دون العدا		فى الدار والغار عليه انسدال
إذ غار بالحكمة نور الهدى		فى الغار من غارة حزب الضلال
وما اختفى من خيفة بل لأن		تظهر أسرار معانى المعال
حيث ثنى بعد عنان الردى		سراقة عما سرى واستقال
هيل كثيب الطرف خسفًا به		عن كثب والصنع للطرف هال
أهوى كما أهوت بميلاده		من قصر كسرى الشرفات العوال
نسبة حال كان من سرها		أن بسواريه غدا وهو حال
هناك هامت بالحمام العدا		فحام حوليه حمام فحال
فاطرد الكسر على جمعهم		واطرد الفتح له صدق فال
والعنكبوت اعتمدوا حجة		خالوا بها الغيل من الليث خال
فأعجب لهم بالواهن استوثقوا		ظنا وللبرهان هم فى جدال
ما أصدق الصديق فى قوله		عدل لنا فى حجج الصدق قال

---

(١) فى بعض الأصول: «حالوا» وفى بعضها الآخر: «جالوا»، ولعل الصواب ما أثبته.

أشفق لا حرصًا على نفسه ... بل غار من علق نفيس يذال

يا أيها الصديق بشراك لا ... تحزن وشِمْ للنصر أمضى النصال

فحكمة العصمة إحرازها ... ما بين أظفار الظبى والعوال

لله ما أشرفها عزة ... ليس لغير الله منها ابتهال

نبوة لاحت براهينها ... قطيعة ترغم أنف الجدال

وهل جدال فى عُلّى أوجبت ... وآدم فى طينه ذو انجدال

وإذ بدت فى وجهه غُرة ... خرت له الأملاك طوع امتثال

ونوح اذ نُجِّىَ فى فلكه ... كان على أنوار هذا اشتمال

كذا خليل الله فى ناره ... من نوره أهدى هدى الخلال

إذ قال جبريل له سل تنل ... فقال علم الحال حسب السؤال

ونال إسماعيل منه الفدا ... بالذبح أو إسحاق إنَّ صح نال

وهود استجلى لديه الهدى ... ويوسف منها تحلى الجمال

وخلعة الإشراق منها اكتسى ... بالطور موسى عند خلع النعال

والروح روح الله لاقى بها ... بشرى تلقتها صدور الرجال

فيا له نور انتقاء بدا ... فى غرر الآباء منه انتقال

والشمس والبدر معًا والضحى ... والشهب منه أشرفت والهلال

ونوره أجلى، وبرهانه ... أعلى، وكم من دونها من معال

تفجرت أنمله بالندى ... معنى وبالحس جرت بالزلال

وأنطق الطير بتصديقه وأفصح الذئب به والغزال

وسبَّحت فى راحتيه الحصى وانهزم الجمع لحشو الرمال

والجذع إذ عوض من وصله بفصله حن حنين الفصال

وهل إلى آياته منتهى وعن غاياته النجم آل

فما بليغ بالغًا وصفه يقصر عن ذاك المقام المقال

وبعد مبدا نون أو منتهى براءةٍ ماذا عسى أن يقال

يا سيد الكونين فضلا به قد ساد فى الأولى ويوم المآل

يا سابق الرسل اصطفاء ويا خاتمهم جمعا لمعنى الكمال

يا ملجأ الخلق ومنجاهم إذا بهم ضاق انفساح المجال

يا من به نال المحب الرضا ويا شفيعا فى الذنوب الثقال

رحماك فينا يا نبيَّ الهدى فلم تزل رحماك ذات انهمال

رحماك فى أوطاننا راعها من لحظك الأحمى بعين ابتهال

رحماك فى سلطاننا واله من نصرك الأمضى بأرضى نوال

رحماك فى غربتنا كن لها أنسا فإنَّ العهد بالأنس طال

رحماك فى كربتنا حلها منك بسر فهى رهن اعتقال

رحماك فى عيلتنا أغنها أنا على رفدك طُرًّا عيال

رحماك فى قلتنا زكها زكاة تكثير لجاه ومال

صالت علينا بالوفور العدا وهل على راجيك غوثا يصال

صالت بَعدٌ واعتداد معًا     وما على ذاك الحمى يستطال

خالت بأنا لا غياث لنا     حاشى غياث الخالق مما يخال

وبالغنى اختالت وما إن لنا     فى غير أفياء غناك اختيال

فأنت للخلق ملاذ الورى     والوزر الأحمى لدى ذى الجلال

صلى عليك الله نور الهدى     أزكى صلاة قرنت باتصال

انتهت القصيدة. ومن ذلك قوله رحمه الله:

لك يا فقيه وضعت خدى فى الثرى     طمعا بوصلٍ منك غير مؤجل

فأجاب ذلك لا يجوز لأنه     عندى رِبًا من باب ضع وتعجل

وقوله:

لى سيد زار وما زرته     فمنى النقص ومنه التمام

إن يحتمل سهوى ففقه مضى     لأننى المأموم وهو الإمام

وطالما زار الغمام الثرى     ولم يزر قط الثرى للغمام

وقوله رحمه الله، وهو غاية فى بابه:

بعثت بها ذكرى على ثقة إلى     مؤمل وعد من لقائك مرقوب

فما زلت فذا فى رءوس ذوى العلى     وما وعد رأس مثل موعد عرقوب

وقوله:

عاب منى العداة شعراً وثغراً     رميا فى الصبا بشيب وشين

قلت: لا عيب فِيَّ ما دام فضل     فى النهى واللسان والشفتين

وقوله:

قلت لما جبرت بالعاج ثغراً ولقد رمت بالمحال احتجاجًا
صاح لا بأس أنَّ يعوج شبابى بالتلاقى أما ترى الثغر عاجا

وقوله:

أتراني أحوط الثغر ربطًا فأُضحكت وتاهت بثغر بالجفون يحاط
فقلت لخوف الحل منه ربطته أينكر فى الثغر المخوف رباط

وقوله:

إلهى لك الشكوى وحسبى رحمة نداؤك فى شكوى الخطوب إلهى
وحقك ما للهو أبدعت خلقى وهأنا فى غى البطالة لاهى
بنفسى وشيطانى ودنياى والهوى فتنت ولكن أنت حسبى لاهى

ولنختم ما أردنا جلبه من نظمه الذى هو بحر لا ساحل له بقوله:

يا رب قلت وقولك الحق الذى أحكمت: انك تستجيب لمن دعا
فاختم لعبدك بالرضا واحكم له بالستر فى الدنيا وفى الأخرى معا

* * *

وأما الرئيس أبو يحيى بن عاصم فهو الإمام العلامة، الوزير الرئيس، الكاتب البليغ الجليل الخطيب الجامع الكامل، الشاعر المفلق الناثر، الحجة، والخاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق، القاضى محمّد بن محمّد بن محمّد بن محمّد بن محمّد بن عاصم القيسى الأندلسى الغرناطى، قاضى الجماعة بها، كان رحمه الله تعالى من أكابر فقهائها وعلمائها، أخذ عن الإمام المحقق أبى

الحسن بن سمعت[1]، والإمام القاضى أبى القاسم بن سراج، والشيخ الراوية أبى عبد الله المنتورى، والإمام أبى عبد الله البيانى وغيرهم، وذكر فى شرحه تحفة والده أنّه ولى القضاء عام ثمان وثمانين وثمان مائة، وله عدة تآليف منها شرحه العجيب على تحفة والده فى الأحكام، وهو كتاب نافع، فيه فقه متين، ونقل صحيح، وكانت بينه وبين عَصْرِيّه الإمام مفتى غرناطة أبى عبد الله السرقسطى، مراجعات ومنازعات فى مسائل فقهية. ومن تآليفه رحمه الله: كتاب جنة الرضى، فى التسليم لما قدر الله وقضى؛ وكتاب الروض الأريض، كأنه ذيل به إحاطة ابن الخطيب، وله غير ذلك[2]، وسنذكر شيئًا من كلامه بعد هذا إن شاء الله تعالى. ومن أغرب ما صدر عنه، رضى الله عنه، قصيدة، تنفك منها قصيدتان أخريان بديعتان، إحداهما من المكتوب الأحمر، والأخرى من المكتوب بالأخضر، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة، كما ستراه، وقد ألفيتها بخط بعض أعلام سبتة، وهو الفقيه أبو عبد الله محمّد ابن على بن محمّد بن فرج، وجده محمّد بن فرج هو الذى نأتى بجملة من نظمه فى النعْل النبوية، عند ما نتعرض لذلك إن شاء الله تعالى، فى محل هو أنسب من هذا الموضع، وقد سقط من هذه القصيدة نحو ثلاثة أبيات، فعوضتها بغيرها على ذلك السنن، على أنّ بعض كلماتها لم تسقط إلى طرف.

ونص ما كتبه السبتى المذكور من نظم السيد الأستاذ العلم الصدر المفتى القاضى رئيس الكتاب، ومعدن السماحة، ومنبع الآداب سيدى أبى يحيى بن عاصم رحمه الله ورضى عنه، يمدح السلطان العادل المقدس المنعم المرحوم المجاهد، أبا الحجاج يوسف بن نصر، قدس الله روحه، ونضر ضريحه، قال: ونقلتها من خط ناظمها رحمه الله. انتهى. وهذه هى القصيدة:

---

(١) كذا فى سائر المراجع التى ترجمت له، وفى متن المطبوع: «سمعة» وبهامشه: «كذا فى نفح الطيب (الطبعة القديمة) وفى الأصلين: «سمعت» وهو تحريف.

قلت: ليس هذا بتحريف، بل أورد المقرى فى نفح الطيب (ط. دار صادر) الوجهين، وانظر النفح ج٢ ص ٦٩٧، ج٣ ص ٥٢٤، ج٦ ص ١٤٨. أما سائر كتب تراجم المالكية فقد أوردته: «سمعت» وانظر فى ذلك: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج ج٢ ص١٧٨، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج٢ ص ٢١٨..

(٢) أورده المقرى فى نفح الطيب ج٦ ص ١٤٨ بحروفه.

أما الـهوى ما كنـت مذ بان عـهده أهيـم بلقــيـــا من تنـاثر وده
رعى الله لو أنصف الـصب فى الهـوى لما فـاض منه الدمع مـذ بان صـده
ولو جـاد من بعــد المطال بروزة لما شـب اشــواقـى وقلبـى زنده
كمـا خان صبـرى يوم أصبح وأصلى لظى زاد مـاء من جـفـونى وقـده
لذلك أسـال الدمع كالدر مـدمعى من الوجد فـاستولى على الجفن سـهده
حكى لـؤلؤاً من سلـكه مـتـناثرا وإلاّ ليـم قــد تتـابـع مــده
ذخـرت الشـمـين القـدر منه بمقلتى ومـا زلت من خوف النكال أعـده
ولا عجب مذ أعـوز القرب أن غدا وكـالقــمـر الزاهى سنـاه ويعـده
أيلحق باللقـيا أو الوصل من يغـو ر فى نوره بـدر الســمـاء وجنده
وصـير جـسـمى للصـبـابة وابتلى يـتم قـلبـى إذ تمكـن وجــــده
أقطـع أنفـــاسى عليـــه كــآبة والله من بدر لغـيـرى سـعــده
فـمن شعـره الليل البهـيم ومن سنى مــقــبلـه للحـسن نـور يمـده
بحكم الدلال الجــور حكم جـوره ومن شـــأنه ألا قـــريـن يرده
له مـعطف مسـتـحسن القـد ناعم به علقت فـى الحب بالرغم أسـده
رمى فى فؤادى جـمراً اذكى لهيـبه به ظبـى أنس قــد تلـهب خـده
فـيعـبق من نار الحيـا عاطر الشـذا كــأنى بـذاك الخــال قــد نم نده
ويبــدو بآفــاق الجـمــال هلاله له الليل فـرعـاو الكواكب عـقـده
كـأنَّ الظبى فى مـرتع الطرف لحظه كـأنَّ القنا فى الـلين والفـعل قـده

يروق العيون العطف منه فشبهت به قضب البان اعتدال وملده

ويا نعم ورد الخد لو جار قطفه وطيب رحيق الثغر لَوْحَلّ ورده

يجول به ريق شهى يحيلنى إليه لظى فى القلب قد شب وقده

ويحمى المحيا واللمى بلواحظ عن الدنف المغرى به فتصده

فلله من ريم ضلوعى كناسه وروض يسقيه من الدمع عهده

ويمنع منه المستهام فما له وفى لثمه لو جاد باللثم قصده

وبالحسن منه يستبيح حمى النهى وكل المنى واليمن يحويه برده

ويلوى بدينى فى الهوى وهو موسر له در ثغر لَوْ يُنال وعقده

أفى العدل أن يحكم بتحريم ريقه لأن كان للشهد المعلل ورده

تخيلته لو نيل بالنهب فى الكرى وما ذقته يشفى من السقم شهده

فأجنى كما شاء الوصال رضابه ويجنى على قلبى هواء وصده

ويشفى بذلك المبسم العذب ريقه فؤادى إذ يشفى بلثمى خده

وحلو الجنى مر الجفا باهر السـ نى له نهب هذا القلب قسرا ورده

بدا فى المثال كالغزال محاسنًا وتخشاه أبطال العرين وأسده

وللحب يدعو لحظه الأوطف الورى ألا هكذا قلب المشوق أقده

تملك رقى طرفه مع سقمه وبالشرع فى حكم الغرام يرده

وأظهر مكنون الهوى منذ جار فى الـ ـمُعَنَّى الذى قد طال فى الحب جهده

وقد كان تحت الكتم عذرى ووجده فأسهر منه ما اختفى قبل صده

ويحسبه فى الحكم بالجور كالورى ... وهل بالسليم القلب يحسب ضده

إذا بالظنون الكاذبات يناله ... ينام فكم عم الليالى سهده

يلوح سناه للمشوق وقربه ... عليه حرام إذ يحلل بعده

وفى مجتلاه الباهر الحسن والروا ... حياتى، وشبه القتل للنفس فقده

وأنعش بالإنصاف مهما بدا وإن ... أرى منه ظلمًا عاود القلب وجده

ويبديه نور الحسن وهنًا لمقلتى ... ويخفيه فرع فاحم الوصف جعده

يميل على المشتاق بالهجر حكمة ... فمنه استعار الميل عنى قده

فيا هاجرى والصد قاتل ... وروض نعيمى فى رضاك وخلده

أما والفتون البابلى وسحره ... ليقنعنى هزل الوصال وجده

ويا مقولى مالى سواك مؤزر ... فخل الهوى وامدح لمن حق حمده

فصغ لؤلؤء من مدحى ابن ملوكنا ... إمام الورى الباهى على الخلق رفده

مَنَ اورثه الملك المؤصل نصره ... وأكسبه المجد المؤثل سعده

لباب العلى قطب المعالى وتاجها ... وبدر أهدى الوضاح فى الدهر سعده

به قد غدا ثغر الهدى وهو باسم ... منير سناه مشرق الأفق سعده

وأضحى الكمال طوده فإنَّ أعتدى ... على البدر نقص فالجبين يمده

ومهما عفا عاد الحجا وهو قائل ... كذلك الحلم والصفح الذى أستعده

وبالشم يزرى عقله الأرجح الذى ... لنحو المعالى والمجادة قصده

فمعنى الحلى تهديه للقلب ذاته ... وسر العلى يبديه للعين مجده

ومن كفه غيث الندى وغمامه ومعنى السماح المستماح ورغده
إذا انهل منه الواكف الثر للورى فصفو الندى والجود قد لذ ورده
تخال هتون البذل منهن زائلا يكيفه برق الجلال ورعده
وكل نوال هامل من بنانه فأقصى صفات الجود قد جاز جوده
وفيض نداه يشرح الحال إنه يمد الحيا فى السمح إذ يستمده
وفى غيثه الثجاج للمعتفى الغنى إذا بالأيادى منه يبدأ رفده
وللفضل والإحسان والبأس سبقه وللملك والإسلام والعلم عضده
وأفعاله عند استباق المدا شأت وفعل ظباه بالكماة وجرده
له مشرفى دائم القطع للطلا فكل كمى للعدا فيه فقد
وبين سكون فى الندى من الحجا وبين مضا بالقتال يعده
وزينه من قصده الجمع للعلا كما زين السيف الصقيل فرنده
وحزم وعزم بين بكر وثيب به المرهف الماضى يفلل حده
فيوم الندى الإسلام يسعد دهره ويوم الوغى الإشراك يتعس جده
ومن بأسه أضحى الحما متمنعًا وللفخر منه صارم يستعده
وتمسى عداه كالحميم شرابهم وما شيدوا فى دهره فيهده
ويغدو الموالى فى سرور وغبطة من البشر أبكار وعون توده
قد اعتاد ترك الكافرين وشأنهم لهيب وشأن هامل الدمع ورده
فأبطالهم رهن الفناء ومالهم إلى البذل عقباه وبالسيف رده

ولم يبق إلاّ من حمى الحسن للعطا	وشــفع فى أحيـــائه منه خــده
ولأصبح فى الـعلياء كالبـحر كـفه	كـما قـد غدا مـثل الجواهر رفـده
فصوب الحيـا فى جوده برقه الظبى	يربك هـشيـم الكفـر مما يقـده
نداه المعـين الثَّــر قـد نعم الهـدى	ويشـفى به حزب الضـلال وجنده
وأحكم رفع الملك إذا نصب العـدا	على حـال ذل نال من ضل جهـده
أيا سـامى القـدر الذى جل ذكـره	ويا مـحـرز المجـد الذى عـز نده
صـفاتك فى الـعليا عـزيز منالهـا	لهـا كل طبع أحـرز الفـضل فـرده
فمـا شئتـه من عزة الجـار والحمى	وقد رسـما فوق السـماكين مـجده
وابعدت فى وصف العلى عن مسابق	لهـــا وتدانى من نوالـك رغـــده
وجودك فـيه ذو الرجـا مغـرم فإن	حـمى جـوده ذم المهـلب أزده
وكم من فنون يسـتمد بهـا الضحى	إذا مـــــا تـنـاءى لمـنال ممـده
وكم بات يتلو سـورة الفتح عـزمه	ويحكم مـثل الأمر والنهى وجـده
وأصبح باسـتحقاقه الحـمد من أولى الـ	ـعـدالة فى الأحكام قد بان رشـده
بعدل وإحـسان قـد آخت كليهـما	حـلاه كـمـا آخى المـهند غـمـده
وبأس وبطش يحميان حمى الهدى	فحـتى لقد تلفى مع السـرح أسده
وحلـم وجـــــودهـا تن ومـكارم	علاهن كـل الوصف عنها وجـهده
وكـيف ينال المدح أوصـاف ماجـد	يود العــــلا حـينا وحـيـنا توده
يعم بعــفـو خص بالذنب مـطقـه	وتهــدى إلى الرشـد المبـين ألده
وللسيف نصر يا بـن نصر على العدا	فسـاعة إذ يجلى جلى الكفـر حده

وللملك عـز أكسب الذل من بغى	فـحاقت به من مـؤلم القهـر نكده
ففى ذمـة العلياء تلك الحـلا العلى	ولمّا بـدت للدين أنجـــز وعـــده
أنرت بهـا من فاحم الظلم مـا دجا	فلجت سـعودهن لـلملك عضـده
فزالت دجون الجور عن مطلع الهدى	فنور سناه فـى اقـتبـال وسـعـده
هـو الملـك لـم تـغطـه إلا نـزاره	بما ليـس فى إمكانهـا ومـعـده
وفى منتهاك الأشرف الأصل للورى	دليل يحـوز الشفع فى المجـد فرده
ويمناك يوم الجود ترب الحيا اغتدت	ألا فـهى أقســام السـمح وحـده
لك المرهف السـفاح بـالفتح مـثنى	مع العلَـم الموعـود بالنصـر جنده
وجمعت شـتى الجود فى وتر راحة	فغـيث الندى منهـا قد انهل عـهده
فكم كامل الأوصاف والذات ماجد	إلى ذلك الهـامـى العـميم مـرده
على يمـين قلتـهـا غـيـر حـانث	لجـــودك تنظم الـنوال ونضــده
فقد عز فى الدنيا له المثل فى العلى	فـما يوسـف إلاّ الحيـا طاب ورده
وأين المسـامى والمضـاهى مـجـادة	لناصـر ديـن الله والمجـد مـجـده
كريم المساعى حـافظ الدين والهدى	ذو الإنعـام والفضل المبـجل عقـده
ففى الفخر أضحى الفضل والمجد طبعه	وفى الدهر أمـسى ليس يوجـد نده
ومـحـتـده السـامى الكريم نجـاره	يمـاثله فى رفـعـة القــدر بنده
فشـتى الخلال العـز جمعـهن عنده	بما حـــار من علم ودين يـمـده
ودونك يا مـولاى حسنـاء غـادة	مـهـذبة كـالدر نظم عـقـده
مـرنحـة الأعطاف تلعب بـالنهى	فـتسبى الحـجـا طورا وطورا ترده

هدية عــبــد مـخلص لك قـلبـه وفى تلـكم الذات الكـريمــة وده

فـألفاظهـا تحكى جـمـان دموعـه وقرطاسـها يحكيـه فى اللون خده

قال جـامع هذا التصنيف: أشار الرئيـس أبو يحيى بهذا الشطر الأخـير إلى الكاغد الأصفر الذى كانت فيه هذه القصيدة مكتتبة، ثم قال:

وأنقـاسـها من كـل لون غريبـهـا وترتيــبـهـا مـن ذاته يسـتــعـده

فـأكحلهـا من مقلتى أستمـيحـه وأحـمـرها من أدمـعى أستـمـده

وأخضرها من طيب عيشى الذى مضى لديك وأرجـو بالـرضـا تسـترده

وأعـجـب شىء أنهـا بكـر فكرتى ومـا بلغت مـعـشار شـهـر نعـده

وقـد ولدت بنتـين ثنتـين مـثلهـا يروقـك من مــعـناها مــا توده

وكلتـاهما قد جـردت من نظامـها مـوشـحـة كـالسـيف راق فـرنده

فـخذها فـفيـهـا للنواظر مسـرح ومن مدحك الحسن الذى تستمده

بقيت كـما تهـواه ما هبت الصبا فـمـالت بهـا بان العـذيب ورنده

انتهت القصـيدة الفريدة، وهأنا أذكر البنتين اللتـين ولدت، ثم أذكر ما ولدت كل واحدة منهما بحول الله وقوته.

فأما القصـيدة الخارجة من المكتوب بالأخـضر فهذا نصها، وتوشـيحها ينتظم من المكتوب فيها بالأخضر وهى هذه:

تنـاثر الدمـع من جــفــونى كــالـدر من سلكـه الثــمــين

مــذ أعــوز الوصـل والتـلاقى من بـدر حــسـن بلا قـــرين

عـلقـت فـى الحـب ظبـى أنـس جـمـــاله مــرتع العــيـون

وحل فى القلب عن كناس فماله يستبيح دينى
يحكم بالنهب فى فؤادى إذ ناله نهبه العرين
أهكذا الشرع فى المعنى العذرى والحكم بالظنون
يحلل القتل منه ظلما بالهجر والصد والفتون
مالى سوى مدحى ابن نصر بدر الهدى المشرق الجبين
ذا الحلم والصفح والمعالى غيث الندى الواكف الهتون
قد جار فى السمح والأيادى سبق المدى دائم السكون
وقصده الجمع بين بكر للفخر فى دهره وعون
وشأنه البذل للعطايا كالبحر فى جوده المعين
نال من المجد كل طبع وصف العلا فيه ذو فنون
وسور الحمد من حلاه لقد تلاهن كل حين
تهدى إلى الرشد إذ تجلى تلك الحلى فَاحِمَ الدُّجون
كأنها الشفع فهى مثنى فى وتر الأوصاف واليمين
قل له المثل والمضاهى فى الدهر فى رفعة ودين

انتهت البنت الخضراء، وهذا نص بنتها الموشحة، المستخرجة من الأخضر:

تناثر الدمع، كالدر مذ أعوز الوصل من بدر
علقت فى الحب جماله

وحل فى القلب        فماله

يحكم بالنهب        إذ ناله

أهكذا الشرع العذرى        يحلل القتل بالهجر

ما لى سوى مدحى        بدر الهوى

ذا الحلم والصفح        غيث الندى

قد جار فى السمح        سبق المدى

وقصده الجمع للفخر        وشأنه البذل كالبحر

نال من المجد        وصف العلا

وسور الحمد        لقد تلا

تهدى إلى الرشد        تلك الحِلَى

كأنها الشفع فى وتر        قلّ لها المثل فى الدهر

انتهت.

ويمكن أن تستخرج باختصار هكذا:

تناثر الدمع، مذ أعوز الوصل

علقت فى الحب، وحل بالقلب، يحكم بالنهب

أهكذا الشرع، يحلل القتل؟

مالى سوى مدحى، ذا الحلم والصفح، قد حاز فى السمح

وقصده الجمع، وشأنه البذل

له من المجد، وسور الحمد، تهدى إلى الرشد

كأنها الشفع، قل لها المثل

انتهت.

وأما البنت الحمراء فهى الخارجة من المكتوب بالأحمر، وتوشيحها ينتظم من المكتوب فيها بالأحمر، وهذا نصها:

| | |
|---|---|
| ما كنت لو أنصف بعد المطال | أصلى لظى الوجد الأليم النكال |
| كالقمر الزاهى فى نوره | عليه كالليل البهيم الدلال |
| مستحس القد ذكى الشذا | كالليل فرعا والقنا فى اعتدال |
| مورّد الخد شهى اللمى | فى لثمه كل المنى لو ينال |
| كأن للشهد وما ذقته | رضابه العذب الجنى فى المثال |
| ولحظه الأوطف مع سقمه | أسهر منه كالسليم الليال |
| وحسنه الباهر مهما بدا | لمقلتى منه نعيم الوصال |
| خل الهوى وامدح إمام الورى | قطب المعالى والهوى والكمال |
| طود الحجا الأرجح سر العلى | معنى اليماح والندى والجلال |
| نواله يشرح للمعتفى | فعل ظباه بالعدا فى القتال |
| لسيفه المرهف يوم الوغى | أضحى الحمام كالحميم الموال |
| فيترك الكفر رهن الفنا | وقد غدا مثل الهشيم الضلال |

مــرفع القــدر عـــزيز الحــمى　　وقـــد تـدانى جـــوده للمـنال
ممثـل الأمــر والأحـكام قـــد　　حـمى الهـوى وجـوده أن ينال
وخص بـالنصـــر على من بـغى　　لما بدت سـعـوده فى اقـتـبـال
الملك الأشـــرف ترب الحـيـــا　　غيث الندى الهامـى العميم النوال
يوسـف الناصـــر دين الهـــدى　　ذو الفـضل والمجد الكريم الخـلال

انتهت البنت الحمراء.

وهذا نص موشحتها، وهى بنتها، الخارجة منها من المكتوب بالأحمر:

مـــا كنـت لو أنـصف　　أصلى لظى الـوجـد الأليم
كــالقـــمـــر الـزاهى　　عليــه كـالليل البـهــيم

* * *

مـســتـحــسن القــد　　كــالليـل فـرعًــا والـقنا
مـــــورد الخـــــد　　فى لـثـــمـــه كل المـنى
كـــأن للـشــــهــــد　　رضـــابـه العـــذب الجـنى

* * *

ولحـــظـــه الأوطـــف　　اســـهـــر منه كـــالسـليم
وحــــسنه الـبـــــاهر　　لمـقلـتى مـنه نـعـــــيـم
خل الـهـــوى وامـــدح　　قطب المـعـــالى والهـــوى
طود الحـــجـــا الأرجح　　مـعـنى السـمـــاح والندى
نـوالـه يـشـــــــرح　　فـــعــل ظبـــاه بالـعـــدى

لســـــيــفـــه المـرهف أضحـى الحمام كـالحمـيم
فــــيـــتـــرك الكافــــر وقـد غـدا مـثل الهـشـيم

***

مـــــرفع الـقـــــدر وقــــد تدانى جـــوده
ممـثـل الأمـــــــــر حــمى الهـــوى وجــوده
وخـص بالـنـصـــــر لمّا بـدت ســـعـــــوده

***

المـلـك الأشـــــرف غيث الندى الهـامى العميم
يـوسف الـنـاصـــــر ذو الفـضل والمجـد الكريم

ويمكن اختصارها أيضًا هكذا:

ما كنت لو أنصف، كالقمر الزاهر
مستحسن القد، مورد الخد، كأن للشهد
ولحظه الأوطف، وحسنه الباهر
خل الهوى وامدح، طود الحجا الأرجح، نواله يشرح
لسيفه المرهف، فيترك الكافر
مرفع القدر، ممثل الأمر، وخص بالنصر
الملك الأشرف، يوسف الناصر

قلت: وإنّما لـم أجزم بهذه المخـتصرة لأجل أن النـاظم صرح بأن كل واحدة من البنتـين الحمراء والخضـراء لم تلد إلاّ موشحة واحـدة من البنتين، ولو ولدت موشحتـين لصرح بذلك، ولا شك أنَّ الموشحة غيـر المختصرة أتم معنى، وأكمل مسـاقا، فالأصوب الاقتصار عليها، وإن كـان يمكن استخراج أكثر منها لمن تأمل حق التأمل، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فقـد أبدع هذا الرئيس فى هذه القصيدة، وإن كان فـيها بعض تكلف، وقصده ابداع من قـصد صاحب عنوان الشرف الوافى[1]، لأن هذا اخرج من الخارج شيئين على ما لا يخفى، غير أنَّ صاحب عنوان الشرف أطال، واستـخرج أربعـة علوم متـباينة، من أول وهـلة، وكلاهمـا قد أبدع رحمهـما الله؛ ولم أتحقق: هل وقف ابن عاصم على كـتاب عنوان الشرف، فاهتدى بأضوائه أم لا؟ والله تعالى أعلم.

ومن كتاب جنة الرضى له رحمه الله ما نصه:

«الحمد لله الذى عوض من الخلاف وفاقًا وأعـقب من الافتراق اجتماعا واتفاقا، وهيـأ لأسواق الائتلاف برفع الخلاف نفاقا، ويسـر لوطن الجهاد من توثير المهاد أرفاقـا، وزين بأنجم المسعود من النصر الموعود آفـاقًا، وعقد على جمع الكلمة من الأمة المسلمة إجماعا وإصفاقًا. نحمده سبحانه وهو المحمود بجمـيع اللغات، ونشكره على ما سـنى من آمال على وفق الأمنية مـبلغات، ونثنى عليـه بما أسدى من عـوارف مخولات، ومـواهب مسـوغات؛ حـمدا نستكثر من درره النفيسة إنفاقا، وأمانتـه العظيمة فلا نأبى من حمدها إشفاقا؛ ونشهد أنه الله لا إله إلاّ هو الواحد الأحـد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحـد؛ شهادة نرفع لواءها المرنح العذبات خفـاقا، فلا

---

(١) فى الأصـول: «الشامى» وصـوابه من كشف الظنون وفـيه: «عنوان الشـرف الوافى، فى الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافى».

لاقى بعد هذه الشهادة لمقاصد السعادة إخفاقا؛ ونشهد أنَّ سيدنا ومولانا محمدا ﷺ عبده ورسوله، ونبيه المصطفى وخليله؛ نبى الرحمة، ونور الظلمة، وشفيع الأمة، والمبعوث بالكتاب والحكمة، والمجموع له بين مزية السبق ومزية التتمة؛ شهادة تستحفظ بقاع الأرض أرفاقا، فلا تخشى معها القلوب، وقد حصل منها الغرض المطلوب، شكًا ولا نفاقا؛ ونصلى على النبى الكريم، المبعوث بالخلق العظيم؛ صلاة نحل بها من عقلة الذكر وثاقا، ونؤكد بها القبول إذا عارض العمل المقبول ميثاقا؛ ونرضى عن آل محمد وصحبه، وعشيرته وحزبه، المختصين بالقربة، الفائزين بالرضا من ربه؛ أكرم الناس أعراقا، وأعظمهم من خشية الله إطراقا، وأبهرهم فى مقامات الهداية إشراقا؛ ونستوهب منه التأييد والنصر، والفتح الذى تفوت عجائبه الحصر، والمنح الذى لا تعرف صلاةُ صلاته القصر؛ لهذه الخلافة الغالبية، التى أطبقت على الإغضاء أحداقا، وأظهرت من الحلم لما كان من مكنون العلم مصداقا؛ ونبتهل إلى الله فى دوام أيامها، وإعلاء إعلامها، وإمضاء ذابلها المرهوب وحسامها؛ حتى يتنفس الإسلام خناقا، وتسير بها الرفاق، وقد تهادتها الآفاق، وخداً وإعناقا، وتخضع لها الجبابرة، والملوك القياصرة، رقابا وأعناقا؛ ونمد إليه يد الافتقار، ونبسط كف الضراعة والاضطرار فى كف الفتن عن هذا الوطن وكف الكفار عن هذه الديار وتيسير الفرج القريب لهذا القطر الغريب وتسهيل الصعب العسير لهذا الصعق النائى عن الولى والنصير فيجمع بين القلوب النافره والنفوس المتنافره افتراقا ويجعل دم العداة بسيوف الحماة الكماة مراقا ويتحف بأنبائه المعجبة وأخباره المغربة المطربة شاما وعراقا.

أما بعد[1] فإن الله على كل شىء قدير وإنه بعباده لخبير بصير وهو لمن أهل نيته وأخلص طويته نعم المولى ونعم النصير بيده الرفع والخفض والبسط

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ١٤٩.

والقبض والرشد والغى والنشر والطى والمنح والمنع والضر والنفع والبطء والعجل والرزق والأجل والمسرة والمساءة والإحسان والإساءة والإدراك والفوت والحياة والموت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون فهو الفاعل فى الحقيقة وتعالى الله عما يقول الآفكون وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون وإن فى أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان عنده قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وعبرة لمن تفهم قوله تعالى: إنَّ الله يفعل ما يشاء وإنَّ الله يحكم ما يريد فبينما الدسوت عامره والولاة آمره والفئة مجموعه والدعوة مسموعه والإمرة مطاعه والأجوبة سمعا وطاعه إذا بالنعمة قد كفرت والذمة قد خفرت».

ثم قال[1] رحمه الله:

«والسعيد من اتعظ بغيره ولا يزيد المؤمن عمره إلاّ خيرا جعلنا الله ممن قضى بخيره وبينما الفرقة حاصلة والقطيعة فاصلة والمضرة واصلة والحبل فى انبتات والوطن فى شتات والخلاف يمنع رعى متات[2]، والقلوب شتى من قوم أشتات والطاغية يتمطّى لقصم الوطن وقضمه ويلحظه لحظ الخائف على هضمه والأخذ بكظمه ويتوقع الحسرة إن يأذن الله بجمع شمله ونظمه على رغم الشيطان ورغمه إذا بالقلوب قد ائتلفت والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله وازدلفت والمتضرعة إلى الله قد ابتهلت فى إصلاح الحالة التى سلفت فألقت الحرب أوزارها وأدنت الفرقة النافرة مزارها وجلت الألفة الدينية أنوارها وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ورفعة الوحشية الناشبة أظفارها وأعذارها وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ١٤٩.

(٢) المَتات: ما يتوسل به من حرمة أو قرابة أو نحو ذلك.

وغصت الفئة المتضرعة أبصارها وأصلح الله أسرارها فتجمعت الأوطان بالطاعه والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعه وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعه وألقت إلى الإمامة الفلانية يد التسليم والضراعه فتقبلت فيئاتهم وأحمدت جيئاتهم وأسعدت آمالهم وارتضيت أعمالهم وكملت مطالبهم وتمت مآربهم وقضيت حاجاتهم واستمعت مناجاتهم وألسنتهم بالدعاء قد انطلقت ووجهتهم إلى الخلوص قد صدقت وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت وكانت الإدالة فى الوقت على عدو الدين قد ظهرت وبرقت».

إلى أن قال[1] رحمه الله تعالى:

«وكفت بقدرة ربه القدرة القاهرة والعزة الباهرة من عدوان الطاغية غوائل بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل. ومعلوم بالضرورة أن الله لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها دليل على سوغ الكرم والجود وإنَّ من أعظم نعمه التى يُعْجَزُ عن أداء شكرها وإن طالت آماد الأعمار ويتناغى فى الثناء عليه فى أمرها فلا يبلغون من ذلك معشار المعشار وتتجارى الألسنة والأقلام فى تقرير وصفها فلا تصل من ذلك إلى حد يقنع ولا إلى مقدار وفى مثلها قال الله تعالى: ﴿...وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ... ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]. وما ذلك إلاّ منة قدرها عظيم وخطرها جسيم وصراط العدل بها مستقيم وبها امتن الله فى قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ... ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال] إلى: ﴿حَكِيمٌ﴾. فهل يستطاع شكر النعمة التى لا يكون إنفاق الأرض جميعها أهل

(١) نفح الطيب ج٦ ص ١٥٠..

قيمــه أو يختلف اثنان بوجه أو حال فى كــون هذه النعمة عظيمــه أو يتمارى أحد فى كون جمع الكلمة فى هذا الوطن الغريب منة ومنحة كريمه!

ومن اسـتقـرأ التواريخ المنصـوصة وأخـبار الملوك المقـصوصـة علم أن النصارى دمرهم الله لم يدركوا فى المسلمين ثارا ولم يرحضوا[1] فى أنفاسهم عارا».

قال جامع الموضوع وفقه الله:

قد قـدمت هذا من كلام الرئيس ابن عـاصم وهو قوله: «ومن استـقرأ التواريخ المنصوصة فراجعه فيما سبق إلى قوله هناك: «وروية وارتجال».

ثم قال هنا بإثره ما نصه:

«إلى أن استقلت هذه الدولة الفلانية على قواعـدها واستقرت بأحلامها الراجحه وأعلامها الشامخه واسـتمرت على قوانين من السياسة كانت ضابطة نشر المملكة عن الأفتراق واستظهـرت أبناؤها الغر من الوفاء بشم اعتلقت بها أتم الاعتلاق فـحفظ الله الدولة الفلانية إلاّ فى الندرة ووقـاها من ذلك الأمر الصعب بوقاية من الاكتساب ووقـاية من القدر وتطاولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة».

وقال جامع الموضـوع وفقه الله: راجع تمام هذا الكلام فيـما قدّمناه إلى قوله هنالك: «اللهم احفظ علينا العقل والدين واسلك بنا سبيل المهتدين».

وقال هنا بإثره ما نصه:

«وإنّما الـنعمة التـى لا يقدر قدرها ولا يـوفى شكرها هى التى تكلفت

---

(١) فى سائر الأصول: «ولـم يرفعوا» والمثبت لدى المقرى فى نفح الطيب ٥٠٨/٤.

بتبيينها تـكييفات الأقدار وانجلت عن بيانها تدبيرات الفـاعل المختار فجمع الله بها القلوب وهيأ الغرض المطلوب وتتابعت بيعات البلاد وتوافقت أهواء العباد وانتظم الملك جسمـا واحدا له روح طاهر واستقل الإسلام رسمـا ثابتا حكمه نص وعدله ظاهر وهدى الله المسلمـين مع جمع الكلمة إلى القصـد الشرعى ووفقهم إلى القيام بحكمه المحتـوم وحقه المرعى فاتخاذ السلطان فى مثل هذه الأوطان واجب قياسا وسـماعة وتعذر الخلافة فى مثل هذه المسافـة غير جائز إجماعا.

أيها الملأ المشـتمل على الشـرفاء الذين بتـقديمهم يسـتنجز من البـركة موعـودها والعلمـاء الذين هم حفظة الشـريعة الحنـفية أن تُـتَعدى حـدودها والأشيـاخ الذين بجهادهم استـقر واجبهـا واستقام واجـبها واستند عـمودها والقواد الذين بحمايتهم تقام أحكامها وتحاط أعلامها وتُوَفَّى عهودها والفرسان الذين هم حماتها وأنجادها وأنصارها وجندها والخاصة الذين بهم يرجح عملها وينجح أملها ويتم مقصودها:

تعلمون حـقا أنَّ هذا الوطن الفلانى كـان قد تعين للهـلاك بسبب هذا الخلاف وتوقـعت القلوب المشفقة حـدوث الفاقرة بسبب هذا الأخـتلاف وإنَّ الشـارع صلوات الله وسلامـه عليـه يمنع من كل مـا يؤدى إلى الفرقـة بأتم الوجوه ويؤكـد الترغيب والتـرهيب بكل ما يخـافه المؤمن ويرجوه وأن الفـقه المذهبى إذا حـصلت البـيعـة فى الأعناق وتحلت بهـا تحلى الحَمـام بالأطواق معروف ومعلوم وإنَّ اشتداده فى سد باب الافتراق على العموم والإطلاق لازم محتوم والأقدار الإلهية قد هيـأت قصد الألفة بلا كلفة ويسرت سبب الاتفاق بحكم الوفاق فـاقبلوها نعمـة مسداه وتحفـة مهداه وشدوا عليـها أيدى الضنه واعلموا مـا فيها لله عليكم من المـنّه وتعاقدوا على ألا تبقـوا من الخلاف أثرا

واتفقوا على القصد الذى يخلصكم عند الله سمعا ونظرا وفى هذا التيسير الذى ساعدت به الألطاف الخفيه وساعفت به من قبل الرب الصنائع الحفيه ما يتأكد به الأعتبار ويرشد إلى أنّه أراد الله نفوذه وربك يخلق ما يشاء ويختار ومما يستكمل هذا القصد الذى أشرنا إليه ويستوفيه قول تاج الدين رحمة الله عليه: ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر فى الوجود غير ما أراد الله أن يظهر فيه.

وفَرْض على كل إنسان فى نفسه ما طلبه به الشارع وعذبت فيه بالتفويض لحكم الله المشارع. فالواجب علينا أن نجتمع ونأتلف ونتفق ولا نختلف ونعتمد صريح الفقه أخذا وتركا ونتبع صحيح النقل الذى لا يدع ريبا ولا شكا ونسأل من الله الهداية إلى سبيل السلف الذين سبقوا ونعزم العزم على أمر الله فى قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران].

وإنَّ أولى الناس فى ذلك بإرهاف العزيمه وتوخى السبل المستقيمه والقيام بمضمون هذا الرسم المستقل والوفاء بتكميل قصد الكاتب فيه والممل لخواص الدولة الفلانية الذين لحقهم التمحيص والاختبار وتخولتهم بأبلغ الموعظة الأقضية والأقدار وهم الذين ربحت منهم فى هذه السوق التجاره والمقصودون بالخطاب من باب إياك أعنى واسمعى يا جاره وهم الممنون عليهم باسترجاع المغصوب المستحق والواقفون من انكسار القلوب والتنصل من الذنوب موقف الأولى به والأحق والمعنيون بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ... ﴿١٦﴾﴾ [الحديد]. ويختص منهم عماد الدولة وعميد الجملة بالحظ الأوفر مما يتضمنه هذا التأنيب ويستمنح من الله عقب التذكره بهذه الموعظه: ﴿...وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر].

فإنا إذا نظرنا إلى ما كان قد طرق من الابتلاء وشاهدنا ما كان معرضا للوقع من البلاء وراجعنا البصيرة فى النعم التى كنا عنها مسلوبين والتربة التى كنا عليها مغلوبين والأبواب التى كنا عنها محجوبين والشرذمة التى كنا بها مربوبين والأنفال التى كنا فى عدد من يحيى رسومها محسوبين وقد سلط الله علينا كثيرا من الظلمة الذين أعنّاهم فعند ذلك لعنّاهم وأهاننا الذين كنا أكرمناهم جزاء لما احترمناهم فنسونا أحوج ما كنا إلى أن يذكرونا وخذلونا أفقر ما كنا إلى أن ينصرونا وأسلمونا أشد ما كنا فاقة إلى أن ينجدونا وتركونا أعظم ما كنا حاجة إلى أن يساعدونا وخانونا أظهر ما كنا اضطرارا إلى وفائهم وظاهروا علينا أتم ما كنا افتقارا إلى غنائهم فلا شك إنّ المؤاخذة كانت بسبب تلك الذنوب وأن الجناية هى التى أوجبت ما طرقنا من الخطوب فأزف العذب وعاد من أعدى الأعادى الأحباب وتبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا وتقطعت بهم الأسباب وكادت العقوبة العظيمة إن تلحق والأخذة الربانية أن تمحق لولا أن الله تداركنا بالعفوا وتجاوز عن الهفو وأنالكم من الإدالة ما كنتم تؤملون واستخلفكم فى الأرض لينظر كيف تعملون. فلنجعل ما وعظنا الله به من تلك الأزمات نصب الأعين ولنتخذ حمده على ما منحنا من الإنالة هجير الألسن ولنعلم أن ذلك التمحيص إنّما كان تنبيها من الله على ما عطلنا من حدوده وإيقاظا من الغفلة عن القيام بحقوقه والوفاء بعهوده ولنتحقق أن ما من الله به من جبر الأحوال وخلف الأموال؛ واستقبال العز غضا جديدا، وصرف الهوان وقد كان عذابا شديداً؛ إنّما هو إبلاغ فى الحجة علينا، وإعذار بالموعظة إلينا؛ وربما عاهدنا الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين، ولننزعن عما ارتكبنا من جرائر العاصين وجرائم الطالحين؛ فالوفاء الوفاء حتما إن أردنا أنّ نكون من المفلحين. وقلما أزف العذاب فرفع إلاّ عمن كان

من الصالحين، ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ... ﴿٩٨﴾﴾ [يونس] إلى قوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ فلنقدر قدر هذا التدارك، الذى أخذ بأيدينا من مهاوى الانتقام، ولنتأمل موقع البلاء الذى أحلنا من تجديد النعمة بأسنى مقام؛ ولنحذر نسيان ما ذكرنا به، فلم نذكر تلك الشدائد بل نسيناها، ولا نفرح بما أوتينا فرح المغرور الذى لا يتراجع ولا يتناهى؛ فإنَّ فى ذلك أمل الشيطان وسؤله، ولعن الله ومقته، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ... ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام] إلى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾.

اللهم هل بلغت، وبالغت فى النصح وأبلغت، اللهم فأشهد. و«يا قوم إنْ كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت»، وإليه أبرأ من حولى وتقصيرى عما فيه قصرت، وعما عنه نكلت.

ثم قال رحمه الله:

«وإنَّ مولانا السلطان الملك الفاضل التالى الذاكر، العفيف الطاهر، المسترجع الصابر، المجاهد المصابر، المرابط المشاغر؛ أمير المسلين ابن نصر الخزرجى نسبا السعدى منشأ النصرى جدا وأبا، أيده الله على أعداء الدين، وجعله من الأئمة المهتدين؛ ممن إذا جُنِى عليه غفر، لعلمنا به أنّه حليم والله آخذ بيده كلما عثر؛ فأرشدنا بذلك إلى أنّه كريم، وممن تطرقه الخطوب، وهو بالألطاف مصحوب، وتحدق إليه النوائب وهو من نظرها الشزر محجوب، وممن جمع له الناس على أن يخشاهم فزاده إيمانًا، وقال: حسبى الله ونعم الوكيل، فانقلب بفضل من الله ونعمة، وممن صبر واسترجع فى نقص الأموال والأنفس والثمرات، فبُشِّر بصلوات من ربه ورحمة، فتمالأت على أذنيه أصناف من الناس فى مرات متعدده، وإناء من الدهر متجدده، فأتعس

الله جدودهم، وأضرع إليه خـدودهم، وأرغم بحوله وقوته أنوفهم، ورد عنه بسيف من الأقـدار رماحهم وسـيوفهم، وأدنى لهم بأسـباب مخـتلفة الأنواع حتوفهم: فمِن آمن أخذ من مأمنه الذى كان يستند إليه ومن خائف قد أدهشه الروع فهـو يحسب كل صيحـة عليه؛ فكأن ألسنة الأقدار تنهـاهم عن منازعة الإراده، وكأن واعظ الاعتبار يحذرهم من شقـاقهم الكفيل له بالسعاده؛ وكأنّ شاهد الحال يقول هذه إرادة الله قضاها، وسنته السابقة أنفذها وأمضاها، فَمِن المنازع فيما حكم الله به وقـضى، ومن الساخط فى المحل الذى يطلب فيه من الله الرضا؟ ولو كـان استيلاؤه على الملك بقـوة عصبيـته، وإهلاك مناوئه عن طبيعه غـضبيه؛ لارتاب فى ذلك الناظر ووجد السبـيل إلى الاحتياج المناظر، ولكنه طالما عورض فى الملك فكبا معارضه لفيه، وأتيحت له النصرة من محل لـم يحسـبها فـيه؛ وشد ما احـتال على نصرته غـير واحد، فـانعكست عليه حيـلته؛ وتوسل إلى مكروهه، فطاحـت فى قليب الانقلاب عليـه وسيلتـه؛ وبغى عليه غير ما مرة فنصره الله على من بغى عليه، وابتغى بالسوء فرده الله على من سـعى به إليـه؛ ولعل ذلك لغـيب عن العيـان مكتـوم، وحكم من الحكيم العليم محتوم؛ أو لأثر من الاختصاص قد علمه الله وليس لنا بمعلوم، أو لأمر قد تقاصرت عنه مـدارك العقول، وكلت دونه رواجح الحلوم؛ ولهذه المعـانى المقرره، والمقـاصد المحـرره، والمذاهب المفـسره، والفـوائد المسطره، وغرائب أحاديـثها المشتهـره، خص الملأ المقصود فيـه بالتذكره، والمعتـمد منه بالإيقاظ والتـبصره؛ من أعضـاد الدوله، وسيوف الصـوله، وأولياء الخلوص الزكى الشيمه، وموالى النعمة الفـلانية، وهـم الذين خولتهم موعظته الحسنه، وأعجبتهم أغـراضه المتعدده، ومقاصده المستحـسنه؛ وعلموا أنه الحق، فسألوا من الله التوفيق إلـيه؛ والإرشاد إلى الاتصاف به والعمل علـيه، والهداية إلى

التماس رضـا الله لديه، ووقفوا على ما هو لهم فى هذا الـكتاب منصوص، وأن سلطانهم بمزيـة الدفاع عنـه مخـصـوص، وأنّه قـد تطابقت على إيشـاره نصوص، واستـوى فى تسلم الطاعة له عموم وخـصـوص؛ فجددوا له البـيعة الوثيقـة، على ما أوجب فى ذلك الحكم المشروع، وأعطوه على ذلك العـهد الأكيـد حسـبمـا اتفقت عليـه أصول وفروع؛ وعـقدوا له مـضمـونها عـقدا صحيحًا، وعهدوا على ما تقتضيه السنة صريحا؛ وشهدوا له فيه على أنفسهم أنهم بالوفاء بها قائمون، ولشروطها المرعية حافظون؛ وعلى أحكامها الشرعية محافظـون؛ وعلى ما بويع عليه رسول الله ﷺ من السـمع والطاعه، ولزوم السنة والجمـاعة، وإمحاض النـصيحة جـهد الاستطاعـه؛ فأيديهم فى السلم والحرب مصروفه فى مرضاته، ونيتهم صادقه فى مسنونات الوفاء ومفترضاته؛ ولقد شاهدوا الفرقة وما جنته، والفتنـة وما فتنته، والألفة وما سنته، والهدنة وما قربت من إصلاح وأدنته فليغتبطوا بها عهدا كريما وعقدا قد تضمن فضلا عظيما بل عمـيما واستلزم إنعاما جـسيما وليوفوا بها الوفـاء الذى يوليهم بها نعيمـا مقيما ويدفع عنهم عـذابا أليما فإنه عز وجـل يقول: «فمن نكث» إلى قوله: «عظيـما». وقد بسطوا أكـفهم إلى الله ضارعيـن وفى رحمته طامـعين ولعظمتـه خاضـعين ومن هيـبته خـاشعين ولخـليفتـه طائعين وفى الخـيرات مسارعين يدعونه رغبا ورهبا مستنزلين لرحمته بالإخلاص والإنابه واقفين على قدم الرجاء بباب الذى أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابه ويسألونه خير ما قدره وقضاه والسلوك على ما فيه رضاه.

اللهم بابك قـصدنا وقبـولك أردنا وعلى فضلك اعـتمـدنا وإلى عزتك استندنا وفى مرضاتك اجتهدنا وبهـدايتك استرشدنا فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة

عين وأصلح شأننا كله اللهم إنا بك مستنصرون وبعزتك مستظهرون ولغناك مفتقرون ومن تقصيرنا مستعيذون ومن ذنوبنا مستغفرون ولشامل عفوك منتظرون وفى خفىّ ألطافك مستبصرون ولعظيم انتقامك مستحضرون ولعميم صفحك مستشعرون فآتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

اللهم انصر من بايعناه سلطانا ومهد به بلادا وأوطانا وأرغم بتوخيه للحق طاغية وشيطانا وآتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا. اللهم اعمر بالمسرة ناديه وكاف عنا أياديه واكبت اللهم أعاديه وكن لنا وليا نصيرا فأنت نعم المولى ونعم النصير. وصل اللهم على سيدنا ومولانا محمّد النبى الأمى القرشى الهاشمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا فأنت اللطيف وأنت الخبير».

انتهى ما أردت نقله من جنة الرضا للرئيس أبى يحيى بن عاصم رحمة الله عليه.

ورأيت بخط الوادى آشى ناقلا من كتابه المسمى بالروض الأريض ما نصه:

ابن فتوح إبراهيم بن أحمد بن فتوح العقيلى يكنى أبا إسحاق العالم المتفنن صاحبنا محقق نظّار وأستاذ فوائد تدريسه لجين ونضار كلا بل جواهر ويواقيت ومناسك هدى لها من السعادة مواقيت فحسب الطالب الموثوق بفهمه المصروف للتحصيل مطالع مواقع سهمه أن يلازم حلقة تعليمه وأن يشد يد الضنة بما يلقى من محصول تفهيمه فإكسير الإفادة إنما حصلة الوافدون من جابر صنعته وكيمياء السعادة إنما يلقاها الظافرون فى نضرة روضه المخضل ونبعته وقرض الشعر مما يمكن دخوله تحت فرعه ويندرج تحت قدرة تصرفه

بجنسه نوعه إلاّ أنّه لِمَا يصدر منه عن قريحة كاتم وسالك من البخل به على طرف النقيض مما سلكه حاتم.

فمما علق بحفظى منه خطوبة أرجوزة صنفها فى النجوم:

سبحان رافع السماء سقفا ناصبها دلالة لا تخفى

مبدعها فلا ترى فروجا مودعها الأفلاك والبروجا

انتهى. وإنما ذكرته لتعلم أصلاحه فى كتاب الروض الأريض. وقد نقلت كلاما آخر منه فيما سبق فراجعه ولو تتبعت ما حصل لدى من نظمه ونثره لطال الكتاب جدا.

وقد وقفت بتلمسان المحروسة على ظهير منشور سلطانى أصدر للرئيس ابن يحيى بن عاصم المذكور بتقديمه للنظر فى أمور القضاء وغيره ونصه:

(*)هذا الظهير كريم إليه أنهيت الظهائر شرفا عليا وبه تقررت المآثر برهانا جليا وراقت المفاخر قلائد وحليا وتميزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقلام والمحابر اختصاصا مولويًّا[1]. فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت وتوالت المنشورات وتجددت أكبر مرسوم تمم فى الاعتقاد نظرا خطيرا وأحكم فى التفويض أمرا كبيرا وأبرم فى الاستخلاص عزما أبيا اعتمد بسطوره العزيز واختص بمنشوره الذى تلقاه اليمن بالتعزيز من لم يزل بالتعظيم حقيقا وبالأكابر خليقا وبالإجلال حريا فهو شهير لم يزل فى الشهرة سابقا هاد لم يزل بالهدى ناطقا بليغ لم يزل بالبلاغة دريا عظيم لم يزل فى النفوس معظما علَم لم يزل

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فيما يلى ص ١٥٢ أورده المؤلف بنصه فى نفح الطيب ج٦ ص ١٥٥ - ١٦٢.

(١) فى سائر الأصول: «قوليا» والمثبت فى نفح الطيب ج٦ ص ١٥٥.

فى الأعلام مقدما. كريم لم يزل فى الكرام سنيا اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين وحلت به المشهورة فى الكنف المحوط والحرم الأمين فكان فى مشكاة الأمور هاديا وفى ميدان المآثر جريا فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص وإلى مرتبته تنتهى مراتب الاختصاص فيمن حاز فضلا وزين فعلا وشرف نديا واستكمل همما واستعمل قلما مشرفيا. فلله! ما أعلى قدر هذا الشرف الجامع بين المتلد والمطرف السابق فى الفضل أمدا قصيا الحال من الاصطفاء مظهرا، الفارع من العلا منبرا، الصاعد من العز كرسيا؛ حاز الفضل إرثًا وتعصيبا، واستوفى الكمال حظا ونصيبا؛ ثناء أرجه كالروض لو لم يكن الروض ذابلا، وهديًا نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلا، ومجدًا علوه كالسها لو لم يكن السها خفيا؛ فما أشرف الملك الذى اصطفاه، وكمل له حق التقريب ووفاه، وأحله قرارة التمكين، ومن باختصاصه بالمكان المكين، فسبق فى ميدان التفويض وسما، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى، صادعًا بالحق إمامًا علما، وموضحًا من الدين نهجًا أمما، هاديًا من الواجب صرطًا سويا؛ بانيًا للمجد صرحًا مشيدا، مشهرًا للعدل قولًا مؤيدا، مبرمًا للخير سببًا قويا؛ فالله تعالى يصل لمقام هذا الملك الذى أطلع فى سمائه بدرًا دونه البدر وصدرًا تلوذ به الصدور سعدًا لا تماطله الأيام فى تقاضيه، ومصرًا يمضى به نصل الجهاد فلا يزال ماضيه، على الفتح مبنيًا؛ ويولى له عزًا يذود عن حرم الدين، ويمنحه تأييدًا يصبح فى أعناق الكفر حديث سيفه قطعيًا؛ أمر به مرسومًا عزيزًا لا تبلغ المرسومات إلى مداه، ولا تبدى بآثار الاختصاص مثل ما أبداه، عبد الله أمير المسلمين محمد الغالب بالله، ابن الأمير المقدس فلان أيد الله تعالى مقامه ونصر أعلامه، ويسر مرامه؛ لإمام الأئمة وعلم الأعلام وعماد دوى العقول والأحلام، وبركة حملة السيوف

والآقلام، وقدوة رجـال الدين وعلماء الإسلام؛ الشيخ الفقـيه أبى يحيى ابن كبير العلماء شـهير العظماء؛ حجة الأكابر والأعيان مصـباح البلاغة والبيان؛ قاضى القضاة وإمـامهم أوحد الجلة وطود شمامهم الشيـخ الفقيه أبى بكر بن عاصم، أبقاه الله تعالى ومناطق الشكر له فصـيحة اللسان، ومواهب الملك به معهودة الإحسان، وقلائد الأيادى منه مقلدة بجيد كل إنسان قد تقرر والمفاخر لا تنسب إلاّ لبنتها، والفضائل لا تعتبر إلاّ بمن يشيد أركانها ويبنيها؛ والكمال لا يصفـى شربه، إلاّ لمن يؤمن سـربه؛ وإن هذا العلم الكبيـر، الذى لا يفى بوصفـه التعبيـر؛ علَم بآثاره يقتدى، وبأنظاره يهتـدى؛ وبإشارته يستـشهد، وبإرادته يستـرشد؛ إذ لا أمد علو إلاّ وقد تخطاه، ولا مـركب فضل إلاّ وقد تمطاه؛ ولا شارقـة هدى إلاّ وقد جلاها، ولا لبـه فخر إلا وقـد حلاها؛ ولا نعـمة إلاّ وقـد أسداها، ولا سـومة إلاّ وقـد أبداها؛ لما له فى دار الملك من الخصوصـية العظمى، والمكانة التى تسوغ النعمى؛ والرتب التى تسمـو العيون إلى مرتقاها، وتستقبلها النفوس، بالتعظيم وتتلقاها؛ حيث سر الملك مكتوم، وقرطاسه مختوم، وأمـره محتوم؛ والأقلام قد روضت الطروس وهى ذاويه، وقـسـمت الأرزاق وهى طاويه؛ شـقت ألسنتـهـا فنطقت، وقطعت أرجلهـا فسـبقـت؛ ويبست فـأثمرت إنعـامهـا، ونكست فأظهـرت قوامـا؛ وخطت فأعطت، وكتبت فوهبت، ومشـقت فدفقت، وأبرمت فأنعمت؛ فكم يسرت الجبر، وعقـرت الهزبر؛ وشنقت المسامع وكفيت المطامع؛ وأقلت فـيما ارتفع من الواضع، وأحلت لما امتنع من المواضع؛ فهى تنجـز النعم، وتحجز النقم؛ وتبـث المذاهب وتحـث المواهب؛ وتروض المـراد وتنهـض المُواد؛ وتحـــرس الأكناف، وتغرس الأشراف؛ ومضيغة لنداء هذا العماد الأعلى، طامحة لمكانه الذى سمـا واستعلى؛ فيـما يملى عليهـا من البيان، الذى يقر له بالتـفضل،

الملك الضليل؛ ويشهـد له بالإحسان لسـان حسان؛ ويحكم له ببـرى القوس حبيـب بن أوس ويهيم بما من الأساليب عنده شاعـر كنده؛ ويستمطر سـحبه الثره، فيصيح المعره؛ إلى منشـور تزيل الفقر فقره، وتدر الرزق درره؛ لو أنهى إلى قس إياد لشكر فى الصنيعة أياديه، واستـمطر سحبه وغواديه، أو بلغ إلى سحبان لسحره، وما فارقه عـشيته ولا سحره؛ ولو رآه الصابى لأبدى إليه من صبره ما أبدى؛ أو سمعه ابن عـباد، لكان له عبداً؛ أو بلغ بديع الزمان لهجر بدائعه، واستنزر بضاعته؛ أو أتحف به البـستى لاتخذه بستانًا، أو عرض على عبد الحـميد لأحمد من صـوبه هتانا؛ فأعظم به من عالٍ لا تـرقى ثنيته، ولا تحار مزيته؛ ولا يرجـم أفقه، ولا يكتم حقه؛ ولا ينام له عن اكتـساب الحمد ناظر، ولا ينقـاس به فى الفضل مـناظر؛ وهل تقاس الأجـادل بالبغـاث، أو الحقائق بالأضغاث؛ ألا وإنَّ بيته هو البيت الذى طلع فى أفقه كل كوكب وقاد ممن رسخ به للعلوم اتقاء واتقاد، وتراءى به للمدارك ذكاء وانتقاد؛ فأعظم بهم أعلامـا وصدورا، وأهلة وبدورا؛ خلدت ذكرهـم الدواوين المسطره، وسرت فى محامـدهم الأنفس المعطره، إلى أن نشأ فى سمـائهم هذا الأوحد، الذى شـهرة فـضله لا تجحـد؛ فكان قمـرهم الأزهر، ونيـرهم الأظهر؛ ووسـيطة عقدهـم الأنفس، ونتيجة مـجدهم الأقعس؛ فأبعـد فى المناقب آماده، ورفع الفخـر وأقام عمـاده؛ وبنى على تلك الآساس المشيـدة، وجرى لإدراك تلك الغايات البـعيدة؛ فـسبق وجلى وشنف بذكره المسـامع وحلى؛ ورفع المشكل ببيانه، وحرر الملتبس ببرهانه؛ إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفقه الأصعد، وبوأه عزيز ذلك المقعد؛ فشرف الخطه، وأخذ على الأيدى المشتطه، لا يراقب إلا ربه، ولا يضمـر إلا بالعدل وحـبه، والمجلس السلطانى أعـلاه الله تعالى يختـصه بنفسه، ويفـرغ عليه من حلل الأصطفاء ولـبسه؛ ويستـمطر فوائده،

ويجرى بأنظاره حقوق الملك وعوائده؛ فكان بين يديه حكما مقسطا، ومقسما لحظوظ الإنعام مقسطا، إلى أن خصه بالكتابة المولوية، ورأى له فى ذلك حق الأولوية؛ إذ كـان والده المقـدس نعم الله ثراه، ومنحـه السـعادة فى أخـراه؛ مشرف ذلك الديوان، ومعلى ذلك الإيوان؛ يحـبر رقاع الملك فتروق، وتلوح كالشمس عند الشروق؛ فحل ابنه هذا الكبير شرفـا، الشهير سلفا؛مرتبته التى سـمت وافتـرت به عن السـعد وابتـسمت؛ فـسـحبت به للشـرف مطارف، وأحرزت به من الفخر التالد والطارف؛ فهو اليوم فى وجهها غره، وفى عينها قره؛ ولله هو فى مـلاحظة الحقائق ورعـيها، وسمع الحـجج ووعيهـا؛ فلقد فضل بذلك أهل الاختصاص وسبقهم فى تبيين ما يشكل منه وما يعتاص؛ إذ المشكلة معه جلية الأغراض، والآراء لديه آمنة من مآخذ الاعتراض؛ فكم رتبة عمرها بذويهـا، فأكسبهـا تشريفًا وتنويها؛ وعلى ذلك فأعـلام قضاة الوطن، ومن عـبر منهم وقطن؛ مـع أقدارهم السـاميـة، ومعـاليـهم التى هى للزهر مسامية؛ إنما رقتهم وساطته التى أحسنت، وزينت بهم المجالس وحسنت؛ فبه أمضـوا أحكامهم، وأعملوا فى الأباطيل احـتكامهم؛ وكتـبوا الرسوم وكبـتوا الخصوم؛ وحلو دست القضاء، وسلوا سـيف المضاء؛ وفى زمانه تحرجوا وفى بستانه تأرجوا؛ ومن خلقه اكتسبـوا، وإلى طرقه انتسبوا؛ وعلى موارده حاموا وحول فـرائده قاموا؛ وبتعـريفه عرفـوا، وبتشريفه شـرفوا؛ وبصفـاته كلفوا وبعرفـانه وقفوا؛ فأمنوا مع انسـكاب سحب إفادته من الجدب وقـاموا بذلك الغـرض بسبب ذلك النـدب؛ وهل العلماء وإن عـمت فـوائدهم، وانتظمت بجيـاد الأذهان فرائدهم؛ إلاّ من أنواره مسـتمدون وإلى الاستـفادة من أنظاره ممتدون، وببركـاته معتدون، وبأسبـابه مشتدون؛ فبـه اجتنيت من أفنان المنابر ثمراتهم، وتأرجحت فى روضات المعـارف زهراتهم؛ وبه عمروا الحلَق وائتلق

من أنوارهم ما ائتلق؛ إذ كل من اصطناعه محسوب، وإلى بركته منسوب؛ فهو بدرهم الأهدى وغيثهم الأجدى؛ وعقدهم المقتنى، وروضهم المجتنى؛ وبدر منازلهم، وصدر محافلهم؛ وعلى ما أعلى المقام المولوى من مكانه، وقضى به من استمكانه؛ واعتمد من إبرامه وأبرم من اعتماده ومهد من إكرامه وأكرم من مهاده؛ واختص من علاه، وأعلى من اختصاصه، واستخلص من حلاه، وحلى من استخلاصه؛ ووفى من تكرمه، وكرم من وفائه، وأصفى من مجده، ومجد من اصطفائه؛ وقدم من براعته، وحكم من يراعته؛ وشقق من كتابته، وأنطق من خطابته، وسجل من أنظاره وعدل من اختياره؛ فذكا ذكره، وسطا سطره؛ وأمعن معناه، وأغنى مغناه. أشار أيده الله تعالى باستئناف خصوصيته وتجديدها، وإثبات مقامته وتحديدها؛ لتعرف تلك الحدود فلا تتخطى وتكبر تلك المراتب فلا تستعطى؛ فأصدر له - شكر الله تعالى إصداره، وعمر بالنصر داره - هذا المنشور الذى تأرج بمحامده نشره وتضمن من مناقبه البديع فراق طيه ونشره؛ وغدا وفرائد المآثر لديه مكوّنه، وأصبح للمفاخر مالكا لما أتى به مدوّنه؛ وخصه فيه بالنظر المطلق الشروط، الملازم للتفريض ملازمة الشرط للمشروط؛ المستكمل الفروع والأصول، المستوفى الأجناس والفصول؛ فى الأمور التى تختص بأعلام القضاة الأكابر، وكتاب القضاة ذوى الأقلام والمحابرو شيوخ العلم وخطباء المنابر، وسائر أرباب الأقلام القاطن منهم والغابر؛ بالحضرة العلية وجميع البلاد النصرية؛ تولى الله جميع ذلك بمعهود ستره، ووصل له ما تعود من شفع اللطف ووتره؛ يحوط مراتبهم التى قطفت من روضاتها ثمرات الحكم وجنيت، ويراعى أمرهم التى أقيمت على القواعد وبنيت وحقوقهم التى حفظت لهم فى المجالس السلطانية ورعيت؛ ويحل كل واحد مهم فى منزلته التى تليق، ومرتبته التى هو بها

خليق؛ على مقتضى مـا يعلم من أدواتهم، ويخبر من تباين ذواتهم؛ ويرشح كل واحد إلى ما استحقه، ويؤتى كل ذى حق حـقه، اعتمـاداً على أغراضه التى عدلت، وصدحت على أفنانهـا من الأفواه طيور شكر وهدلت؛ واستناداً فى ذلك إلى آرائه، وتفويضًـا له فى هذا الشأن بين خلصـاء الملك وظهرائه؛ وذلك لمقتضى مـا كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا، وانتهضوا بهـممهم واستبقـوا؛ كالـشيخ الرئيس الصـالح أبى الحسن بن الجياب، والشـيخ ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب، رحمهما الله تعالى.

فليقم - أبقاه الله تعالى - بهذه الأعمال التى سمت واعتزت ومالت بها أعطاف العدل واهتزت؛ وسار بها الخبـر حيث سرى، وصار بها الحق مشدود العرى؛ وعلى جميع القضاة الأصفياء، والعلماء الأرضياء، والخطباء الأولياء، والمقرئين الأذكياء، وحملة القلام الأحظياء؛ أن يعتمدوا على هذا الولى العماد فى كل مـا يـرجع إلى عـوائدهم، ويخـتص فى دار الملك من مـرتـبـاتهم وفوائدهم؛ وما يتـعلق بولاياتهم [وأمنياتهم][1]، ويليق بمقاصـدهم ونياتهم؛ فهو الذى يسوغهم المشارب ويبلغهم المآرب؛ ويستقبل العلى بالعلى، والعاطل بالحلى والمشكل بالجلى والمفرق بالتـاج، والمقدمة بالإنتاج؛ وعلـى ذلك فهذا المنشور الكريم قد اقرهم على ولايتهـم وأبقاهم، ولقاهم من حفظ المراتب ما رقاهم؛ فليجروا على ما هم بسبيله، وليهتدوا برشد هذا الاعتناء ودليله.

وكتب فى صفر عام سبعة وخمسين وثمان مائة». انتهى(*).

وإنّما كـتبتـه برمتـه لتعلم به مصـداق ما قد مناه مـن تمكن ابن عاصم المذكور من مراتب الاصطفاء والاحتفاء.

ولنختم ترجمته، رحمه الله بتخميس عجيب من نظمه:

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج٦ ص ١٦١.

سبحان من أظهـر الأنوار واحتجبا وكل حـمـد وتمجـيـد له وجـبـا

إذا ابتـغى العقل فى إدراكـه سبـبا جاء الحـجاب فـألقى دونه الحجـبا

حـتى إذا ما تلاشى عندها ظهـرا

سبحـان مَن كان والأكوان لم تكن فى غـيـــر أينٍ ولا وقت ولا زمن

حـتى أتى الجـود بالإحـيـاء والمنن وكـان مـــا قــد رسـمـناه بما ومن

وأظهر الشمس ذات الـنور والقمر

سبحان من حجب الأبصـار فاحتجبت وكم أراد مـــريد نـيلهـــا فــأبت

من حـدثتـه أمـانيه فـقـد كـذبت حـقيـقـة ذاتها عـن ذاتها وجـبت

لا يدرك العقل من أخبـارها خبرا

سبـحان من شأنه فى شـأن عجب يخفى فـيظهر أو يبـدو فيحـتجب

يأيهــا العــاكـفـون الســادة النجب هل فيكم من سعى سعـيا كما يجب

فـفاز بالغـرض المطلوب أو ظفـر

سبـحان من لم يزل بالعلـم منفردا ومن تعــالى عن الأشـبـاه فاتحـدا

سـبحـانه وتعـالى واحـدا صمـدا تبـــــارك الله لم يـولد ولم يـلدا

تنزه الله عـــمـــا يلـحق البـشـــرا

سبحان من أخرج الموجود من عدم رسمــا برى كونه فــى غير مـرتسم

فــلا مــحل ســوى كنـه من الكلم ولـم يزل هو فى ديـمـومـة القــدم

مـــؤثرا يخلـق التـــأثيـــر والأثرا

سبحـان من خلق الأشياء أجمـعها فـمن رآها رأى أفـعـاله مـعـهـا

وكـان أتقـهـا صنـعـا وأبدعـهـا نفس إلى العـالم العلوى رفـعـهـا

وخـصـها مـن معـاليـه بما بهـرا

سبـحان من عم بالإنعام مـا خلقا وشـفع العدل بالإحـسان فـاتفقـا

وزاد بالذكـر فى قلب التـقى تقى فاسـتكمل الدين والإيمان والخـلقا

وكـان مدركـه الصـديق أو عمـرا

سبـحان من سـبحـته كل سـابحة وكل عـائـمـة فى الماء سـائحـة

وكل غـــادية تغـــدو ورائـحـــة وسـبـحـته خـفـايا كل جـانحـة

لم تعرف السر حـتى جاورت صورا

سبـحان من حـمدته ألسن البـشر فى السـر والجهر والآصـال والبكر

وفى دجى تشدو نصف الليل والسـحر بالشكر والـذكـر والآيات والسـور

توليـه حـمدا وتتلو بـعده سـورا

سـبحـان من نزهتـه ألسن عـزفت عن كل ما يوهم التشبيه إذ وصفت

صفا لها مورد التحقيق حين صفت فلم تفـارقـها حـتى أثبـتت ونفت

ولم يدع شـبهة تـؤذى ولا ضررا

سبحان من شكره فـى الدين مفترض وليـس جـــسم ولا عـــرض

ينهى ويأمـر مـا فى ذا وذا غـرض فاذكـر لنعمـاه ذكرا ليس ينـقرض

فـمن تحدث بالنعـمى فقـد شكرا

سبحان من خضع السبع الطباق له        وأعظمـــتـه قلوب حـشـــوها وله
تريـد إنَّ تعلم الأبـقى وتعـــقـله        طـوبى لمـن أمـل الأبـقى وأم لـه
واسـتكثـر الزاد لمـا آنس السـفـر

سبحــان من زين الأفلاك بالشهب        وبـين الـدين بـالآيات والـكتـب
ولم يدعـنا لدى لهـــو وفـى لعب        لكــن نهـــانا وآتانـا على الـرتب
حـتـى انتـهـــينا وأذعنا لمـا أمـرا

سبحان من جـعل الأشياء تختلف        فـــــتــــارة تـتنـاءى ثم تأتـلف
هذا الظلام بنور الصـبح ينصـرف        كـما الضــلال لنور العلم لا يقف
فـسله نورا ينيـر السمـع والبصـرا

سبحـــان من خلق الأخلاق والخِلقا        والشمس والبدر والظلمـاء والغسقا
يروقك الكل مـجمـوعا ومـفتـرقا        وانظر لنفسك واسلك نحـوه طرقا
فأسـعد الناس من فى نفـسه نظرا

سـبحـــان منزل الماء المزن فى المطر        يروى النبـات ويسقـى يانع الثمـر
كـــأنما الـزهر تهـــديه إلـى الزهر        إذا رأيت تلاقـــيـهـــا على قـــدر
رأيت صنع قـــدير أحكم الـقـدرا

سبحان مــن قدر الأوقات والأجلا        وتابع الوحى واسـتتلى به الرســلا
فمن تعدى حدود الـفوق قيل غلا        ومن تجـاوز منحطا فـقـد سـفــلا
ومن تخطى خطوط المنتـهى كفـرا

سبحان من فجـر الأنهار فانفجرت وقـدر الخيـر فى إجرائهـا فجـرت

فـزينة الأرض بالأزهار قد ظهـرت وللبـصـيـرة عـيـن كلمـا نظرت

رأت جمـالا وإجمـالا ومعـتبـرا

سبحـان من خلق الإنسان من علق وأعـقب اللـيلة الليـلاء بالـغـسق

يا بهجة الشمس دونى عذت من فلق ويا سنا البدر عارض حمرة الشفق

حـين تعـود لنا من ليلتنا سـحـرا

سـبحـان من علم الإنسـان بالقلم وسلط الهم والبـلوى على الهـمم

فـقاومـتـها جنود الـصبـر والكرم ثم ابتلى قلب غـير العـارف الفهم

فـمـا أطلق ولا أوفى ولا صـبـرا

سبحان من خلق الإنسان من عجل فليس يمشى إلـى شىء على مهل

ولا يقــول ســوى هــذا وذلك لى مقـسم الحال بين الحـرص والحيل

فليس تلـقـاه إلاّ ضـارعـا حـذرا

سـبـحان مـن زانه بالعلم والأدب وبالفـضـائل والإيمـان والطلب

فـلا يـزال حليف الفكر والتـعب رام الكمـال فلم يبلـغ ولم يخب

ولم يرد بعـد فى رِىٍّ ولا صـدرا

سبـحان من شـأنه بالكبـر والأشر يمـسى ويصـبح فى غى وفى بطر

مـردد الـعـزم بين الجـبن والخـور لا يستفـيق من الشكوى إلى البشر

ولا يزحــزح عن ظلم إذا قــدرا

سبحان محرقه فى وقدة الحسد فلا يزال أخا غيظ وفى نكد
كالبحر يرمى إلى العينين بالزبد إذا رأى أثر النعمى على أحد
يود لو كان أعمى لا يرى ضجرا

سبحان من أمر الأرواح فأتمرت ثم استديمت فلم تنهض بما أمرت
وكل نفس إذا سامحتها فجرت فلا تصلها إذا خانتها أو غدرت
واقطع علائق من قد خان أو غدرا

سبحان من بسط التعليم ثم طوى فأعقب القلب وجدا دائما وهوى
وذاب فى ملتظى أشواقه وذوى وكان أزمع واستوفى المنى ونوى
حجا فلما انى ميقاته حصرا

سبحان من فى بساط العدل أجلسنا وباغتفار عظيم الذنب آنسنا
وزان بالعلم والإيمان أنفسنا فكان أعظمنا قدرا وأنفسنا
من انتهى أو نهى أو خاف فازدجرا

سبحان من خص بالإيمان أنفسنا وخافه من عذاب النار أنفسنا
لولاه لم نعرف المعروف والحسنا ولا استفدنا لسانا ناطقا لسنا
ولا درينا: أباح الشرع أو حظرا

سبحان من جعل الإيمان بالقدر والحشر والنشر منجاة من الضرر
فلا خلود مع الإيمان فى سقر ولا وصول إلى أمن بلا حذر
حتى تكون لأمر الله مؤتمرا

سبـحان من إن يشأ أعـطاك أو منعا ومن إذا شـاء أمـرا حـادثا وقـعـا

وتارة يخـفض الأمـر الذى رفـعـا يومـا يفرق لـلإنسان مـا جـمعـا

ولا يبـالى بمن أثرى ومن خـسـرا

سبحان من هو يوم الفصل يجمعنا وللنـعــيم بفــضل منه يـرفــعنا

من بـعــــد رؤيـة أهوال تروعـنا يرى لهـــا والهـا هيـمـــان أورعنا

حيـران عريان يبدى كل ما سـترا

سبحان من شـاء فى الدنيا سعادتنا بطـاعـــة أحــــسنت منا إرادتـنا

ويبـتـلينا ويسـتــحلى عـبــادتنا حتى إذا شـاء فى الأخرى إعـادتنا

أعـادنا مـثل مـا كنا كـمـا ذكـرا

سبحـان من يحشر الإنسان مكتـئبا خـوف الجـزاء ويجزيـه بما كسـبـا

ويحكم الحكم يمضـيه كما وجـبا فـالقـاسطون إلى نيـرانه عـصـبـا

والمقــسـطون إلى جنـاته زمـرا

سبحـان من فضل الإسلام فى الأمم بالطيب الطاهر المبعـوث فى الحرم

محـمّد خير من يمـشى على قدم إذا عـددت بيــوت المجـد والكرم

فـمنه حتى إلى عـدنان أو مضـرا

سبحـان من ختم الأديان فى الأزل بالملة السـمحـة البـيضـاء فى الملل

أتى بهـا خـيـر مـأمـور وممتـثل مـحـمّد خـاتم السـادات والرسل

وخيـر من حج بيت الله واعتـمرا

إذا وصـفنا فبـالتـقصـيـر نعتـرف فـكـل لفـظ بـلـيـغ دونه يـقـف
هو النبى الـذى فى ذكـره شـرف فـإن طـلبت رضـاه بـالذى تصف

فكن على وصفه فى الذكر مقتصرا

صلى الإله عـليـه مـا بدا قـمـر ومـا سـرى فى الدياجى أنجم زهر
ومـا تـبـاينت الأشكال والـصـور ومـا تدورست الآيـات والسـور

وما قضى مـؤمن من حاجة وطرا

وبالجـملة فابن عـاصم أبو يحيى كـان يسمـيه أهل زمـانه ابن الخطيب الثانى، حسبما قاله الوادى آشى وغيره.

ولا بد إنَّ نلم بنبذة من أخبار ابن الخطيب [السلمانى الوزير](1): إذ هو لسان الدين، وفخر الإسلام بالأندلس فى عصره، فنقول: هو محمّد بن عبد الله بن سعيد [بن عبد الله بن سعيد](1) بن على بن أحمد السلمانى، قرطبى الأصل، ثم لَوْشِيَّـه، يكنى أبا عبد الله، ويـلقب من الألقاب المشرفـة بلسان الدين، الوزير الشـهير، الطـائر الصيت، المثل المضـروب فى الكتابة والشـعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها، رحمه الله.

**أوليته(2):**

قال ابن الأحمر فى نـثير فرائد الجمان فى حقـه ما نصه: «ذو الوزارتين الفقيـه الكاتب، أبو عبد الله محـمّد، ابن الرئيس الفقيـه الكاتب المفتى ببلدة لوشة، عبد الله، ابن الفقيه الكاتب سعيد ابن الفقيه الصالح ولى الله الخطيب سعيد السلمانى اللوشى المعروف بابن الخطيب». انتهى.

(1) ما بين حاصرتين عن نفح الطيب ج٥ ص ٧.

(2) نص ابن الأحمر لدى المؤلف فى نفح الطيب ج٥، ص ٧.

وقال غيره[1]: إنَّ بيتهم يعرف فى القديم ببنى الوزير، ثم فى الحديث ببنى الخطيب. وسعيد جده الأعلى أوّل من تلقب بالخطيب، وكان من أهل العلم والدين والخير، وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة، من خط، وتلاوة، وفقه، وحساب، وأدب، خيرا، صدرًا، وتوفى عام ثلاثة وثمانين وست مائة، وأبوه عبد الله كان من أهل العلم بالأدب والطب، وقرأ على أبى الحسن البلوطى، وأبى جعفر الوزير، وغيرهما، وأجازه طائفة من أهل المشرق، وتوفى بطريف عام واحد وأربعين وسبع مائة شهيدا يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام مفقودا ثابت الجأش، شكر الله فعله.

قال ابنه لسان الدين صاحب الترجمة: أنشدت والدى أبياتًا من شعرى فسر وتهلل، وارتجل رحمه الله تعالى:

الطب والشعر والكتابه — سماتنا فى بنى النجابه

هُنّ ثلاث مبلغات — مرتبات بعضها الحجابه[2]

انتهى.

## نشأته[3]:

ونشأ لسان الدين على حالة حسنة سالكًا سنن أسلافه، فقرأ القرآن على المكتِّب، الاستاذ الصالح أبى عبد الله عبد الولى العواد، تكتبا، ثم حفظا، ثم تجويدا؛ ثم قرأ القرآن أيضًا على أستاذ الجماعة أبى الحسن القيجاطى، وقرأ

(١) أورد المؤلف بنصه فى نفح الطيب ج٥، ص ٨.

(٢) نفح الطيب ج٥، ص ١٦.

(٣) انظر فى ذلك: نفح الطيب ج٥، ص ٧٥.

عليه العربية، وهو أوّل من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبى القاسم بن جزى؛ ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ أبى عبد الله بن الفخار البيرى، شيخ النحوين لعهده؛ وقرأ على قاضى الجماعة أبى عبد الله بن بكر؛ وتأدب بالرئيس أبى الحسن بن الجياب؛ وروى عن كثير من الأعيان، كالمحدث شمس الدين بن جابر، وأخيه أبى جعفر، والقاضى أبى البركات بن الحاج؛ والشيخ أبى محمّد بن سلمون، وأخيه أبى القاسم بن سلمون، وأبى عمرو بن الاستاذ أبى جعفر بن الزبير، وله روايه عالية، والاستاذ اللغوى أبى عبد الله بن بيبش؛ والمحدث الكاتب أبى الحسن التلمسانى المسن، والقائد الكاتب أبى بكر بن ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم، والقاضى المحدث أبى بكر ابن شبرين، والشيخ أبى عبد الله ابن الفقيه القاضى أبى عبد الله بن عبد الملك، والخطيب أبى جعفر الطنجالى، والقاضى أبى بكر بن منظور، والرواية أبى عبد الله بن حزب الله، وعن أشهر أسلافنا المتأخرين القاضى أبى عبد الله بن محمّد المقرى القرشى، التلمسانى المولد والمنشأ والمقبر، قاضى الجماعة بفاس، وعن الشريف أبى على الحسن بن يوسف، وعن الخطيب الرئيس الراوية أبى عبد الله بن مرزوق، وعن المحدث الفاضل الحسيب أبى العباس بن يربوع السبتى، والرئيس الكاتب أبى محمّد بن عبد المهيمن الحضرمى السبتى، والشيخ المقرئ أبى محمّد بن أيوب المالقى، آخر الرواة عن أبى الاحوص، وعن أبى عثمان ابن ليون من أهل المرية، وعن القاضى أبى الحجاج المنتشاقرى، من أهل رندة، إلى غيرهم ممن يطول ذكره من أهل الأندلس، والعدوة الغربية، والمشرق وأفريقية بالإجازة؛ وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبى زكريا يحيى بن هذيل، ولازمه.

## تآليفه[1]:

قال ابن الأحمر رحمه الله: «[لابن الخطيب][2] الأوضاع المصنفات، التى آذان إحسانها هى المقرطات المشنفات، منها فى التصوف الذى أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوف: روضة التعريف بالحب الشريف». انتهى.

ثم سرد غيرها من كتبه، ومنها: الإحاطة، فى تاريخ غرناطة، فى خمسة عشر سفراً؛ واللمحة البدرية فى الدولة النصرية؛ والحلل المرقومة؛ ومثلى الطريقة، فى ذم الوثيقة؛ والسحر والشعر؛ وريحانة الكتّاب، ونجعة المنتاب، فى أسفار؛ والصيب والجهام، والماضى والكهام، فى مجموع شعره؛ ومعيار الاختيار؛ ومفاضلة مالقة وسلا؛ ورسالة الطاعون؛ ورسالة الطاعون؛ والمسائل الطبية، فى سفر؛ والرجز فى عمل الترياق؛ واليوسفى فى الطب، فى سفرين؛ والتاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى؛ والكتيبة الكامنة، فى شعراء[3] المئة الثامنة، ونفاضة الجراب، فى أربعة أسفار، وهى من أحسن تآليفه، ولم أزل أكثر البحث فى هذا التاريخ عنها، فلم أقف منها على عين ولا أثر، إلاّ عدة أوراق متفرقة، وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها. والبيزرة، فى سفر، والبيطرة، فى سفر جامع لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغيره ورسالة تكون الجنين؛ والوصول لحفظ الصحة فى الفصول؛ ورجز الطب، ورجز الأغذية، ورجز السياسة؛ وكتاب الوزارة؛ ومقامة السياسة؛ والغيرة على أهل الحيرة؛ وحمل الجمهور على السنن المشهور؛ والزبدة الممخوضة؛ والرد على أهل الإباحة؛ وسد الذريعة؛ فى تفضيل الشريعة؛ وخطرة الطيف؛ ورحلة الشتاء والصيف؛ وطرفة العصر فى دولة بنى نصر،

---

(١) انظر فى ذلك: نفح الطيب ج٧، ص ٩٧.

(٢) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «أدباء» والمثبت من نفح الطيب ٧/ ١٠٠ وسائر الأصول.

فى ثلاثة أسفار؛ وتقرير الشبه؛ وتحرير الشبه؛ واستنزال اللطف الموجود فى سر الوجود؛ وبستان الدول، وهو غريب فى معناه فى فنون السياسة فى ثلاثين جزءا ولم يكمل وأبيات الأبيات فيما اختاره رحمه الله من مطالع ما له من الشعر ورقم الحلل فى نظم الدول فى غاية من الحلاوة والعذوبة والجزالة وفتات الخوان ولقط الصوان فى سفر يتضمن المقطوعات وعائد الصلة فى سفرين وصل به صلة الاستاذ أبى جعفر بن الزبير وتخليص[1] الذهب فى اختيار عيون الكتب الأدبيات وجيش التوشيح ورجز فى أصول الفقه شرحه ولى الدين بن خلدون صاحب التاريخ المشهور والإكليل الزاهر وكناسة الدكان بعد انتقال السكان؛ وعمل من طب لمن حب والدرر الفاخرة، واللجج الزاخرة جمع فيه نظم ابن صفوان والمباخر الطيبيه فى المفاخر الخطيبيه وخلع الرسن فى أمر القاضى ابن الحسن وأعمال الأعلام فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام. وألف أيضًا فى الموسيقى ومصنفاته زادت على الخمسين وقد ذكرنا نحو الخمسين.

**حاله:**

قال ابن الأحمر:

«هو شاعر الدنيا وعلم المفرد والثنيا وكاتب الأرض إلى يوم العرض لا يدافع مدحه فى الكتب ولا يجنح فيه إلى العتب آخر من تقدم فى الماضى وسيف مقولة ليس بالكهام إذ هو الماضى وإلاّ فانظر كلام الكتاب الأول من العصبه كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبه للبراعه باليراعه وبه أسكت صائلهم وما حمدت بكرهم وأصائلهم المشوبة بالحلاوة الممكنة من مفاصل الطلاوة وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين بالاطلاع على العلوم العقلية

(١) فى سائر الأصول: «وتلخيص» والمثبت من نفح الطيب ج٧ ص ٩٨.

والإمتاع بالفهوم النقلية لكن صل لسانه فى الهجاء لسع ونجاد نطاقه فى ذلك اتسع حتى صدمنى وعلى القول فيه أقدمنى بسبب هجوه فى ابن عمى ملك الصعق الأندلسى سلطان ذلك الوطن فى النفر الجنسى المعظم فى الملوك بالقول الجنى والإنسى ثم صفحت عنه صفحة القادر الوارد من مياه الظفر غير الصادر لأنَّ مثلى لا يليق به إظهار العورات ولا يجمل به تتبع العثرات اتباعا للشرع فى تحريم الغيبة وضربا عن الكريهة وإثباتا لحظوظ النقيبة الرغيبه فما ضره لو اشتغل بذنوبه وتأسف على ما شرب من ماء الهجو بذنوبه. وقد قال بعض الناس: من تعرض للأعراض أرسى عرضه هدفا لسهام الأغراض». انتهى كلام ابن الأحمر.

وقال غيره:

تقلد الكتابة أيام السلطان أبى الحجاج فى أخريات دولته بعد شيخه ابن الجياب.

قال ابن الصباغ العقيلى: «كان أبو الحسن بن الجياب رئيس كتاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب اختصاصا تاما وأورثه رتبته من بعده وعهد بها إليه مشيرا بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره. وتدرب بذكائه حتى استحق أزمته فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ونال التى لا فوقها من الحظوة وبعد الصيت وسعادة البخت.

اتفق له يوما بعد ما عزم النصرانى على ورود البلاد وضاقت به الصدور فأنشد ابن الجياب بديها بمحضر الكتاب:

هذا العدو قد طغى وقد تعدى وبغى

وقال لابن الخطيب: أجز أبا عبد الله فأنشده بديها:

وأظهر السلم وقد أسر حسوا فى ارتغا
فبلغ الرحمن سيف النصر فيه ما ابتغى
ورده رد ثمود والفصيل قد رغا
حتى يرى وليمة لكل مرهوب الثغا

فقال ابن الجياب: هكذا وإلاّ فلا وعجب الحاضرون من هذه البديهة».
انتهى كلام ابن الصباغ.

ولمّا توفى أبو الحجاج ازدادت منزلة ابن الخطيب عند ابنه أبى عبد الله إلى أن كانت عليه الدائرة فقبض على ابن الخطيب وعلى أملاكه ثم تخلص منها نكبة مصحفية بشفاعة السلطان المستعين بالله أبى سالم إبراهيم ابن السلطان الشهير الكبير أبى الحسن المرينى صاحب المغرب، وكان تحريك عزائم السلطان أبى سالم للشفاعة فيه بسعاية الغالب على دولته الحاجب الرئيس الخطيب الرحّال أبى عبد الله بن مرزوق. ولمّا تخلص لبن الخطيب من هذه الأنشوطة لحق بسلطانه أبى عبد الله كما نذكره قريبا وورد صحبته المغرب واستقر أبو عبد الله بن الخطيب بسلا تحت الجراية التامة متكلفا خدمة ضريح الملوك من بنى مرين، ليمُتّ بذلك إلى صاحب الملك من بينهم كما يقضى له ما بقى من مآربه بالأندلس بشفاعة غير مردودة وفى أثناء هذه المدة كان يتطوف ببلاد المغرب مثل مراكش وأنظارها. ثم لما رجع مخدومه لغرناطة عاد هو فى صحبة أولاده فألقى مقاليد رياسته وأزمة سياسته ورقاه إلى الذروة التى لا فوقها ثم سئم الخدمة وتسخط النعمة وأضمر الفرار عندما سمع بأن الملك

استوثق للسلطان أبى فارس بن أبى الحسن المرينى وأنّه ملك تلمستان فأظهر الذهاب إلى تفقد أحوال بعض الثغور فكان آخر عهد الأندلس به وخرج بتلمسان واهتزت دولة السلطان أبى فارس لقدومه ثم كان من أمه ما سنذكره.

ولنورد بعض تفضيل لما سبق الإلمام به وما لم يسبق فنقول:

قال فى كتابه المسمى باللمحة البدرية فى الدولة النصرية عند ذكره خلع السلطان أبى عبد الله وقيام الأمير إسماعيل عليه وذلك فى شهر رمضان المعظم من عام ستين وسبع مائة ما نصه:

(*)«وكان السلطان أبو عبد الله عند تصيُّر الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قصرا من قصور أبيه بجوار داره مرفها عليه متممة وظائفه له وأسكن معه أمه وأخواته منها وقد استأثر يوم وفاة والده بمال جم من خزائنه الكائنة فى بيتها فوجدت السبيل إلى السعى لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التى عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبى الوليد ابن الرئيس أبى عبد الله المبايع له بأندرش ابن الرئيس أبى السعيد جدهم الذى تجمعهم جرثومته وشمر الصّهر المذكور عن ساعد عزمه وجده وهو على ما هو من الإقدام ومداخلة ذؤبان الرجال واستعان بمن آسفته الدولة وهفت به الأطماع فتألف منها زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنمين شفا صعب المرتقى واتخذوا آلة تدرك ذروته لصعود بنية كانت به عن التمام وكبسوا حرسيا بأعلاه بما اقتضى صماته فاستووا به ونزلوا إلى القلعة سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبع مائة فاستظهروا بالمشاعل والصراخ وعالجوا دار

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فى ص ١٧٣ أورده المؤلف بنصه فى نفح الطيب ج٥، ص ٨٤ - ٩٠.

الحاجب رضوان فـفضوا أغلاقهـا ودخلوا فقتلوه بين أهله وولده وانتهـبوا ما اشتـملت عليه داره وأسرعت طائفـة مع الرئيس فاستـخرجت الأمير المعـتقل إسمـاعيل وأركـبته وقـرعت الطبول ونودى بدعـوته وقد كان أخـوه السلطان متحولا بولده إلى سكنى الجنة المنسوبة للعريف لصق داره وهى المثل المضروب فى الظل الممدودة والماء المسكوب والنسيم البليل يفصل بينها وبين معقل الملك السور المنيع والخندق المصنوع فـما راعه إلاّ النداء والعجـيج وأصوات الطبول وهب إلى الدخول إلى القلعـة. فألفها قد أخـذت دونه شعابها كلهـا ونقابها وقذفته الحراب ورشقته السهام فرجع أدراجه وسدده الله فى محل الحيرة ودس له عرق الفحول من قومه فامتطى صهوة فرس كان مرتبطا عنده وصار لوجهه فأعيا المتبع وصبح مدينة وادى آش ولم يشعـر حافظ قصبتها إلاّ به وقد تولج عليهـا فالتف بها أهلها وأعطوه صـفتهم بالذب عنه فكان أملك بهـا وتجهزت الحشود إلى منازلتـه وقد جدد أخوه المتغلب على ملكه عقـد السلم مع طاغية قشتالة باحـتياجه إلى سلم المسلمين لجراء فتنة بينه وبين البـرجلونيين من أمته واغتبط به أهل المدينة فـذبوا عنه ورضوا بهلاك نعمتهم دونه واسـتمرت الحال إلى يوم عيـد النحر من عام التاريـخ ووصله رسول صاحب المغرب مـستنزلا منها ومستدعيا إلى حضـرته لما عز عن إمساكها. وراسل ملك الروم فلم يجد عند من معـول فانصرف ثانى يوم عيد الـنحر المذكور وتبعه الجـمع الوافر من أهل المدينة خـيلا ورجالا إلـى مربلة من سـاحل إجازته. وكان وصـوله إلى مدينة فاس مـصحبا من البـر والكرامة بما لا مزيد عله فى السـادس من شهر محرم فاتح عام واحد وستـين وسبع مئة وركب السلطان للقائه ونزل إليه عند ما سلم عليه وبالغ فى الحفاية به.

وكنت قد لحقت به مفلتا من شرك النكبة التى استأصلت المال وأوهمت سوء الحال بشفاعة السلطان أبى سالم قدس الله روحه فقمت بين يديه فى المحفل المشهود يومئذ وأنشدته:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى ... عفت آيها إلاّ التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحى وكره ... فها أنذا مالى جناح ولا وكر
نبت بى لاعن جفوة وملالة ... ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر
ولكنها الدنيا قليل متاعها ... ولذاتها دأبا تزور وتزور
فمن لى بقرب العهد منها ودونها ... مدى طال حتى يومه عندنا شهر
ولله علينا من رآنا وللأسى ... ضرام له فى كل جارحة جمر
وقد بددت در الدموع يد النوى ... وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على نهر الشروب عشية ... فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر
أقول لأظعانى وقد غالها السرى ... وآنسها الحادى وأوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسر أن ابشرى ... بإنجار وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا سر غيب وربما ... أتى النفع من حال أريد بها الضر
وإنَّ تخن الأيام لم تخن النهى ... وإنَّ يخذل الأقوام لم يخذل الصبر
وإنَّ عركت منى الخطوب مجربا ... نقابا تساوى عنده الحلو والمر

فقد عجمت عوداً صليبا على الردى وعـزمـا كمـا تمضى المهندة البتـر
إذا أنت بالبـيـضـاء قـررت منزلى فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر
زجـرنا بإبـراهيم برء هـمـومنا فلمـا رأينا وجـهـه صـدق الزجـر
بمنتـخب من آل يـعـقـوب كلمـا دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
تناقلت الـركـبـان طيب حـديثـه فلمـا رأته صـدّق الخـبـرَ الخُبـرُ
ندى لو حـواه البـحـر لذ مـذاقـه ولم يتـعـقب مـده أبداً جـزر
ويأس غدا يرتاع من خـوفه الردى وترفل فـى أثوابه الفـتكة البكر
أطاعته حـتى العصم فى قنن الربا وهشت إلى تـأميلـه الأنجم الزهر
قصدناك يا خـير الملوك على النوى لتنصـفنا مما جنى عـبـدك الدهر
كـفـفنا بك الأيام عن غلـوائهـا وقـد رابنا منهـا التعـسف والكبـر
وعذنا بـذاك المجد فانصـرم الردى ولذنا بذاك العـز فـانهـزم الذعـر
ولمّا أتينا الـبـحـر يرهب مـوجـه ذكرنا نداك الغـمر فاحـتقر البـحر
خلافـتك العظمى ومن لم يدن بها فـإيمـانـه لغـو وعـرفـانه نكر
ووصفك يهدى المدح قصد صوابه إذا ضل فى أوصاف من دونك الشعر
دعـتك قلوب المؤمنـين وأخلصت وقـد طاب منها السـر لله والهجـر
ومـدت إلى الله الأكف ضـراعـة فـقـال لهن الله قـد قـضى الأمـر
وألبـسهـا النعـمى ببيعـتك التى لهـا الطائر الميـمون والمحـتد الحـر
فأصـبح ثغر الشـغر يبسـم ضاحكا وقـد كـان مما نابه لـيس يفتـر

وأمنت بـالسلم البـلاد وأهلها  فـلا ظبـة تعرى ولا روعـة تعـرو
وقـد كان مـولانا أبوك مـصرحـا  بأنـك فى أبـنائـه الولد الـبـر
وكنت خليـقًـا بالإمـارة بعـده  على الفـور لكن كل شىء له قـدر
وأوحـشت من دار الخـلافـة هالة  أقـامت زمـانا لا يلوح بهـا البـدر
فـرد عليك الله حـقك إذ قـضى  بأن تشمل النـعمى وينسدل الستر
وقـاد إليك الملك رفـقـا بخلقـه  وقد عدمـوا ركن الإمامة واضطروا
وزادك بالتـمـحـيص عزا ورفـعـةً  وأجرا ولولا السبك مـا عرف التبر
وأنت الذى تدعـى إذا دهم الردى  وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
وأنت إذا جـار الزمـان مـحكم  لك النقض والإبرام والنهى والأمـر
وهذا ابن نصـر قـد أتى وجناحـه  مهـيض ومن علياك يلتمس الجـبر
غـريب يرجى منك مـا أنت أهله  فإن كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر
فـفـز يا أمـير المسلـمين ببيعـة  مـوثقـة قـد حل عـروتهـا الغـدر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا  بيـا لمرين جـاءه الـعـز والنصـر
وخـذ يا إمـام الحق بـالحق ثأره  ففى ضمن مـا تأتى به العز والأجر
وأنت لهـا يا ناصـر الحق فلتـقم  بحق فـمـا زيد يرجى ولا عـمـرو
فـإن قيـل مال مـالك الدهر وافـر  وإن قيل جيش عندك العسكر المجر
يكف باب العادى ويحـيا بك الهدى  ويبنى بك الإسـلام ما هدم الكفـر
أعـده إلـى أوطانه عنك راضـيًـا  وطوقـه نعمـاك التى مالهـا حصـر

وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها ... فقد ضدهم عنه التغلب والقهر

وهم يرقبون الفعل منك وصفقة ... تحاولها يمناك ما بعدها خسر

مرامك سهل لا تؤودك كلفة ... سوى ما إنْ له فى العلا خطر

وما العمر إلاّ زينة مستعارة ... ترد ولكن الثناء هو العمر

ومن باع ما يفنى باق مخلد ... فقد انجح المسعى وقد ربح التجر

ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى ... جياد المذاكى والمحجلة الغر

وراد وشقر واضحات شياتها ... فأجسامها تبر وأرجلها در

وشهب إذا ما ضمرت يوم غارةٍ ... مطهمة غارت بها الأنجم الزهر

وأسد رجال من مرين مخيفة ... عمائمها بيض وآسالها سمر

عليها من الماذى كل مفاضة ... تدافع فى أعطافها اللجج الخضر

هم القوم إنَّ هبوا لكشف ملمة ... فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعر

إذا سئلوا أعطوا وإنْ نوزعوا سطوا ... وإنْ واعدوا وفوا وإنْ عاهدوا بروا

وإنْ مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم ... نشاوى تمشت فى معاطفهم خمر

وإنْ سمعوا العوراء فروا بأنفس ... حرام على هماتها فى الوغى الفر

وتبسم ما بين الوشيج ثغورهم ... وما بين قضب الدوح يبتسم الزهر

أمولاى غاضت فكرتى وتبلدت ... طباعى فلا طبع يعين ولا فكر

ولولا حنان منك داركتنى به ... وأحييتنى لم تبق عين ولا أثر

فأوجدت منى فائتًا أى فائت ... وأنشرت ميتا ضم أشلاءه قبر

بدأت بفـــضل لم أكن لعظيـــمه بأهل فجل اللطف وانفـرج الصدر
وطوقـتنى النعمى المضـاعفـة التى يقل عليـهـا منى الحـمـد والشكر
وأنت بتـتـــميم الصنائـع كـافل إلى أنْ يعـود الجاه والـعز والوفـر
جزاك الذى أسنى مـقامك عصـمة يفك بهـــا عـانٍ وينعش مـــضطر
إذا نحـن أثنينـا عليـك بمدحـــة فهيهـات يحصى الرمل أو يحصر القطر
ولكنـنا نأتى بمـا نســتطيـــعــه ومن بذل المجـهـود حق له العـذر

فلا تسأل عن امتعاض وانتـقاض، وسداد أنحاء فى التأثر لنا وأغراض، والله غالب على أمره.

وفى صبيحـة يوم السبت السابع عشر من شهر شـوال عام اثنين وستين وسبع مـائة كان انصرافه إلى الأندلس، وقـد ألح صاحب قشتـالة فى طلبه، وترجح الرأى على قصده، فقعد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة، وبرز الناس وقد أسـمعهم البُريح، واسـتحضـرت البنود، والطبول والآلة، وألبس خلعة الملك، وقـيدت له مراكـبه فاسـتقل، وقد التف عليـه كل من جلا عن الأندلس من لدن الكائنة فى جـملة كثيفـة، ورئى من رقة الناس وإجهـاشهم وعلو أصواتهم بالدعـاء ما قدم به العـهد، إذ كان مظنـة ذلك سكونًا وعطافًا وقربا، قـد ظلله الله بوارق الرحمة، وعطف عليـه وشائج المحبـة، إلى كونه مظلوم العقد، منزع الحق، فـتبعته الخواطر وحمـيت عليه الأنفس، وانصرف لوجهته؛ وهو الآن برندة مـستقل بها وبجهاتها، ومـقتنع برسم سلطانها وقد قـام له برسم الوزارة الشيـخ القائد أبو الحـسن على بن يوسف بن كـماشـة الحضـرمى، وبكتابه الفقيـه أبو عبد الله بن زمـرك، وقد استفـاض عنه الحزم

والتدرب والتيقظ للأمور والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر، كان الله له ولنا بفضله.

انتهى كلام ابن الخطيب فى اللمحة البدرية(*).

وقد عرفت أنّه فى ذلك التاريخ لم يكن دخل السلطان غرناطة، ولم يلحق به ابن الخطيب حتى دخلها.

وقد ذكر وليّ الدين بن خلدون هذه الواقعة فى تاريخه الكبير[1]، وأحسن سردها، فقال فى ترجمة أيام السلطان أبى سالم ما نصه:

## الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان

لّما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبع مائة ونصب ابنه محمّد للأمر واستبد عليه رضوان مولى أبيه وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم وكان له صهر من ابن عمه إسماعيل بن الرئيس أبى سعيد فكان يدعوه سرا إلى القيام بأمره حتى أمكنته فرصة فى الدولة بخروج السلطان إلى بعض متنزهاته برياضه فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين فى بعض أوشاب جمعهم من الطغام وعمد إلى دار الحاجب رضوان فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمه وبناته وقربوا إلى إسماعيل فرسه فركب فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته وقرعوا طبولهم بسور الحمراء وفر السلطان من مكانه بمتنزهه فلحق بوادى آش وغدا الخاصة والعامة

(١) انظر فى ذلك: تاريخ ابن خلدون ج٧، ص ٣٠٦.

على إسماعيل فبايعوه واستبدّ عليه هذا الرئيس ابن عمه فخلعه لأشهر من بيعته واستقل بسلطان الأندلس. ولمّا لحق السلطان أبو عبد الله محمّد بوادى آش بعد مقتل حاجبه رضوان واتصل الخبر بالسلطان المولى أبى سالم امتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعيا لما سلف له فى جوارهم وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه فوصل إلى الأندلس وعقد مع أهل الدولة على إجارة المخلوع من وادى آش إلى المغرب وأطلق من اعتقلهم الوزير الكاتب أبا عبد الله ابن الخطيب كانوا اعتقلوه لأول أمرهم لما كان رديفا للحاجب رضوان، وركْنا لدولة المخلوع فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه ولحق مع الرسول أبى القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادى آش للإجارة إلى المغرب وأجاز لذى القعدة من سنته وقدم على السلطان بفاس وأجل قدومه وركب للقائه ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل ترتيبه وغص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ويستحثه لمظاهرته على أمره واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة.

ثم سرد ولى الدين بن خلدون القصيدة التى قدمنا ذكرها إلى آخرها[1]، قال[2]: ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله وقد فرشت له القصور وقربت الجياد بالمراكب الذهبية وبعث إليه بالكسى الفاخرة ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجى[3]، وبطانته من الصنائع وحفظ عليه رسم سلطانه فى الراكب والراجل ولم يفقد من ألقاب ملكه إلاّ الآلة أدبا مع

(١) أوردها ابن خلدون فى تاريخه ج٧، ص ٣٠٧ - ٣٠٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٧، ص ٣٠٩.

(٣) يريد العلوجيين، أى الموالى من النصارى.

السلطان واستقر فى جملتـه إلى أن كان من لحاقه بالأندلس وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره.

انتهى كلام ابن خلدون وفيه بعض مخالفة يسيرة لكلام ابن الخطيب فى اللمحة البدرية.

ولا بد أن نسـرد كـلام ابن خلدون فى شـأن ابن الخطيب إذ ذكـره فى ترجمة السلطان أبى الفارس ابن السلطان أبى الحسن المرينى بما نصه:

## الخبر عن قدوم الوزير ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعا إليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس

(*)أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غـرناطة فى الشمال من البسيط الذى فيه ساحاتها المسمى بالمرج على وادى شِخْبيل، ويقال شِنِيل[1]، المخترق فى ذلك البسيط من الجنوب إلى الشـمال كان بها له سلف معدود فى وزرائها وانتقل أبوه عبد الله إلى غرناطة واستخدم لملوك بنى الأحمر واستعمل على مخـازن الطعام ونشأ ابنه مـحمّد بغـرناطة وقرأ وتأدب على مشـيختـها واختص بصـحبة الحكيم المشهـور يحيى بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسـفية وبرز فى الطب وانتحل الأدب وأخذ عن أشياخـها وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثـره مع انتقاء الجـيد منه ونبغ فى الشعـر والترسيل بحـيث لا يجارى فيهمـا وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر لعـصره وملأ الدنيا بمدائحه وانتشرت فى الآفاق فرقاه السلطان إلى خدمته وأثبته فى ديوان الكتّاب

(*) من هذه العلامة إلى مثلها ص ١٨٢ منقول بنصه عن ابن خلدون ٧/ ٣٢٢.

(١) تحرف فى سائر الأصول وابن خلدون إلى: «شنبـيل» وصوابه لدى المقرى فى نفح الطيب ج٥، ص ٨. وشنيل: اسم نهر غرناطة الشهير.

ببابه مرءوسا بأبى الحسن بن الجياب شيخ العدوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمّد المخلوع من سلفه عندما قتل وزيره محمّد بن الحكيم المستبد عليه كما مر فى أخبارهم. فاستبد ابن الجياب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك فى الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبع مئة، فولى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمّد بن الخطيب رياسة الكتاب ببابه مثناة بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك وصدرت عنه غرائب من الترسيل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة ثم داخله السلطان فى تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالا وبلغ به فى المخالصة[1] إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله وسفر عنه إلى السلطان أبى عنان ملك بنى مرين بالعُدوة معزيا بأبيه السلطان أبى الحسن فجلى فى أغراض سفارته. ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين عدا عليه بعض الزعانف [يوم الفطر بالمسجد][2] فى سجوده للصلاة وطعنه فأشواه وفاظ لوقته وتعاورت سيوف الموالى المعلوجى هذا القاتل فمزقوه أشلاء وبويع ابنه [محمّد][2] بالأمر لوقته وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم فى قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم واستبد بالدولة وأفرد ابن الخطيب بوزارته. كما كان لأبيه [واتخذ لكتابته غيره][2] وجعل ابن الخطيب رديفا لرضوان فى أمره ومشاركا فى استبداده معه فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبى عنان مستمدين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه فى إنشاد شعر قدمه بين يدى نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم:

(١) فى سائر الأصول: «المخالطة» والمثبت من نفح الطيب ٥/٩٨.

(٢) ما بين حاصرتين من تاريخ ابن خلدون ج٧، ص ٣٣٢.

خليفة الله ساعد القدر عُلاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طُرًّا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنّه وطن في غير علياك ما له وطر
ومن به مذ وصلت حبلهم ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهمتهم بأنفسهم فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلاّ بجميع طلباتهم ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه. وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف، وكان معه في ذلك الوفد: لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلاّ هذا.

ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين ثم ثار بهم محمّد الرئيس ابن عم السلطان شركه في جده الرئيس أبي سعيد وتحين خروج السلطان إلى متنزهه خارج الحمراء وتسوروا دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضوان في بيته فقتله ونصب للملك إسماعيل أبي الحجاج بما كان صهره على شقيقته وكان معتقلا بالحمراء فأخرجه وبايع له وقام بأمره مستبدا عليه وأحس السلطان محمّد بقرع الطبول وهو بالبستان فركب ناجيا إلى وادي آش وضبطها وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محسبه وكانت بينه وبين

الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مُقامه بالأندلس وكان غالبا على هوى السلطان أبى سالم فزين له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادى آش يعده زبونا على أهل الأندلس ويكف به عادية القرابة المرشحين هناك متى طمحوا إلى ملك المغرب فقبل ذلك منه وخاطب أهل الأندلس فى تسهيل طريقه من وادى آش إليه وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمسانى وحمله مع ذلك الشفاعة فى ابن الخطيب وحل معتقله فأطلق وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادى آش وسار فى ركاب سلطانه وقدموا على السلطان أبى سالم فاهتز لقدوم أبى الأحمر وركب فى الموكب لتلقيه وأجلسه إزاء كرسيه وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مر يستصرخ السلطان لنصره فوعده وكان يوما مشهودا وقد مر ذكره ثم أكرم مثواه وأرغد نزله ووفر أرزاق القادمين فى ركابه وأرغد عيش ابن الخطيب فى الجراية والإقطاع. ثم استأنس واستأذن السلطان فى التجوال بجبهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه فتباروا فى ذلك وحصل منه على حظ وعندما مر بسلا إثر قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبى الحسن وأنشد قصيدته على روى الراء [الموصولة][1] يرثيه ويستجير به فى استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها:

إن بان منزله وشطت داره ... قامت مقام عيانه أخباره

قسم زمانك عِبرة أو عَبرة ... هذا ثراه وهذه آثاره

فكتب السلطان أبو سالم فى ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة فشفعوه واستقر هو بسلا منتبذا عن سلطانه طول مقامه بالعدوة. ثم عاد السلطان

(١) التكملة عن ابن خلدون.

محمّد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاثة وستين وبعث عن مخلفه بفاس من الأهل والوالد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن على فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره فسر السلطان لقدومه ورده إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية فى ركب أبيه عندما أحس بالشر من الرئيس صاحب غرناطة وأجاز يحيى من هنالك إلى العداوة وأقام عثمان بدار الحرب فصحب السلطان فى مثوى اغترابه هنالك، وتقلب فى [مذاهب][1] خدمته وانحرفوا عن الطاغية بعد ما يئسوا من الفتح على يده فتخولوا عنه إلى ثغور بلادهم، وخاطبوا [الوزير][1] عمر بن عبد الله فى أن يمكنهم من بعض الثغور الغربية التى لطاعتهم[2] بالأندلس يرتقبون منها الفتح وخاطبنى السلطان المخلوع فى ذلك وكانت بينى وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية وخاصة متأكدة فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله وحملته على أن يرد عليه مدينة رندة إذ هى من تراث سلفه فقبل إشارتى فى ذلك وتسوغها السلطان المخلوع ونزل بها وعثمان بن يحيى فى جملته وهو المقدم فى بطانته ثم غزوا منها مالقة فكانت ركابا للفتح وملكها السلطان واستولى بعدها على دار ملكه بغرناطة وعثمان ابن يحيى متقدم القوم فى الدولة عريق فى المخالصة وله على السلطان دالة واستبداد على هواه. فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده وأعاده إلى مكانه فى الدولة من علو يده وقبول اشارته أدركته الغيرة من عثمان ونكر على السلطان الاستكفاء به، و[أراه][1] التخوف من هؤلاء الأعياص فحذره السلطان وأخذ فى التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته فى رمضان سنة أربع

(١) التكملة عن نفح الطيب ج٥ ص ١٠١.

(٢) فى سائر الأصول: «لطاغيتهم» والمثبت من نفح الطيب.

وستين، وأودعهم المطبق، ثم غربهم بعد ذلك وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشى بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وطشيته فتفننوا فى السعايات فيه وقد صُمّ[1] السلطان عن قبولهم ونمى الخبر بذلك إلى ابن الخطيب فشمر عن ساعده فى التفويض واستُخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن ملك الغدوة يومئذ فى القبض على ابن عمه عبد الرحمن ابن أبى يَفْلُوس ابن السلطان أبى على كانوا قد نصبوه شيخا على الأندلس لما أجاز من العدوة بعد ما جاس خلالها لطلب الملك وأضرم بها نار الفتنة فى كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بنى مرين فاضطر إلى الإجارة إلى الأندلس فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماساى ونزلوا على السلطان المخلوع عام سبعة وستين فأكرم نزلهم وتوفى على بن بدر الدين شيخ الغزاة فقدم عبد الرحمن مكانه. وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله فغص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك وتوقع انتقاض أمره منهم ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسر بها فى بنى مرين فجزع لذلك وداخله ابن الخطيب فى اعتقاله ابن أبى يفلُوسَن وابن ماساى، وإراحة نفسه من شغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطه على يد سفيره إلى الأندلس وكاتبه أبى يحيى بن أبى مدين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن يفلوسن وابن ماساى فقبض[2] عليهم واعتقلهم وفى خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه من البطانة من القدح فيه والسعاية وربما تخيل السلطان مال إلى قبوله وأنهم قد أحفظوه عليه فأجمع التحول عن

(١) فى نفح الطيب ٥/١٠١: «وقد هَمّ».

(٢) فى نفح الطيب ٥/١٠٢: «فتقبّض».

الأندلس إلى المغرب واستأذن السلطان فى تفقد الثغور [الغربية][1] وسار إليها فى لُمّة من فرسانه ومعه ابنه على الذى كان خاصة للسلطان وذهب لطيته فلما حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدوة مال إليه وسرح إذنه بين يديه فخرج قائد الجبل لتلقيه. [وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك وجهز له الأسطول من حينه فأجاز إلى سبتة وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسم ثم سار لقصد السلطان فقدم عله سنة ثلاث وسبعين بمقامه تلمستان فهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه][1]، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ومن دولته بمكان التنويه والعز وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيرا إلى صاحب الأندلس فى أهله وولده فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ثم أكثر المنافسون له فى شأنه وأغروا سلطانه بتتبع عثراته وإبداء ما كان كامنا فى نفسه من سقطاته وإحصاء معايبه وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها [إليه][1] ورفعت إلى قاضى الحضرة أبى الحسن بن الحسن فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه وبعث القاضى ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز فى الانتقام منه بتلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه فصم عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم: هلا انتقمتم منه عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان فى جوارى ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه، ولمن جاء من أهل الأندلس فى جملته. فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين، ورجع بنو مرين إلى المغرب، وتركوا تلمسان، سار هو فى ركاب الوزير أبى بكر بن غازى، القائم بالدولة، فنزل بفاس، واستكثر من شراء الضياع،

(١) التكملة عن ابن خلدون.

وتأنق فى بناء المساكن، واغتراس الجنات، وحفظ عليه القائم بالدوله الرسوم التى رسمها له السلطان المتوفى، واتصلت حاله على ذلك، إلى أنْ كان ما نذكره(*).

انتهى كلام ابن خلدون وأكثره بلفظه.

قلت: وقد وقفت على كتاب القاضى أبى الحسن بن الحسن المذكور يخاطب به ابن الخطيب يعظه، ويشير إلى ما اشتغل به من البنيان، وفيه ما يبين كلام ابن خلدون السابق وزيادة، وما يدل على ما ذكره ابن خلدون من أنّه سجل عليه بأمور منكرة، وعند الله تجتمع الخصوم، وقد أسقطت بعضه اختصاراً، ونص ما تعلق به الغرض قوله يخاطب الوزير ابن الخطيب:

(*)فشرعتم فى الشبراء، وتشييد البناء؛ وتركتم الاستعداد لهادم اللذات، هيهات هيهات؛ تبنون ما لا تسكنون وتدخرون مالا تأكلون، وتؤملون مالا تدركون؛ أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة، فأين المهرب مما هو كائن! ونحن إنّما نتقلب فى قدرة الطالب، شرقتم أو غربتم، [والأيام تتقاضى الدين، وتنادى بالنفس الفرّارة إلى أين إلى أين! ونترك الكلام مع الناقد](1) فيما ارتكبه من تزكية نفسه، وعد ما جلبه من مناقبه، ما عدا ما هدد به من حديد لسانه، خشية اندراجه فى نمط من قال فيه رسول الله ﷺ: «إنَّ من شر الناس من تركه الناس اتقاء فُحشه». ولا غيبة فيمن ألقى جلباب الحياء عن وجهه؛ ونرحمه على ما أبداه وأهداه من العيوب التى نسبها لأخيه،

---

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فيما يلى فى ص ١٨٦ أورده المقرى بنصه فى نفح الطيب ج٥ ص ١٢٢ - ١٢٤.

(١) التكملة من نفح الطيب.

واستراح على قوله بها فيه، ونذكّره على طريقة نصيحة الدين، بالحديث الثابت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ، وهو قوله: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع! فقال: إنَّ المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح فى النار». ويعلم الله أنَّ معنى هذا الحديث الثابت عن النذير الصادق، هو الذى حملنى على نصحكم ومراجعتكم فى كثير من الأمور، منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به فى التاريخ وأمثاله، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتًا، لغير شىء حصل بيدكم، وضررتم نفسكم بما رتبتم من المطالبات بنص الكاتب والسنة قِبَلكم، والرضا بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل. وقد قلت لكم غير ما مرة عن أطراسكم المسودة، بما دعوتم إليه من البدعة، والتلاعب بالشريعة: إنَّ حقها التخريق والتحريق، وإنَّ من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم، والله الشهيد بأنى نصحتكم وما غششتكم، وليس هذا القول وإنَّ كان ثقيلا عليكم، بمخالف لما ذنبتم[1] به من تقدم المواجهة بالملاطفة، والمعاملة بالمكارمة، فليست المداراة بقادحة فى الدين، بل هى محمودة فى بعض الأحوال، مستحسنة على ما بينه من العلماء؛ إذ هى مقاربة فى الكلام، أو مجاملة بأسباب الدنيا، لصلاحها أو صلاح الدين، وإنّما المذموم المداهنة،

(١) كذا فى سائر الأصول ومثلها لدى المؤلف فى نفح الطيب ج٥، ص ١٢٣. ومن معانيها فى المعجم الوسيط: «ذَنَّبَ الكتاب: ألحق به تِتِمَّة» وفى متن المطبوع أيضًا: «ذنبتم» وبهامشه: «كذا فى الأصلين ونفح الطيب» ولعلها محرفة عن: «زنتم به»، أى ظننتم.

وهى بذل الدين لمجرد الدنيا، والمصانعة به لتحصيلها؛ ومن خالط للضرورة مثلكم وزايله بأخلاقه، ونصحه مخاطبة ومكاتبة، واستدل له بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على صحة مقالته، فقد سلم والحمد لله من مداهنته، وقام لله بما يجب عليه فى حقكم من التحذير والإنكار، مع الإشفاق والوجل. وأكثرتم فى كتابكم من المن بما ذكرتم أنكم صنعتم، وعلى تقدير الموافقة لكم، ليتكم فعلتم فسلمنا من المعرة وسلمتم، وجل القائل سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة]. وقلما شاركتم أنتم فى شىء إلاّ بأعراض حاصلة فى يدكم، أو لأغراض دنيوية خاصة بكم، فالملام إذاً فى الحقيقة إنّما هو متوجه إليكم. وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم، من التندم على فراق محلكم، والتعلل بأخبار قطركم وأهلكم، فتناقص منكم، وإن كنتم فيه بغدركم:

أتبكى على لبنى[1] وأنت تركتها ... فكنت كآتٍ حتفه وهو طائع

وما كل ما مَنَّتْك نفسك خاليا ... تلاقى ولا كل الهوى أنت تابع

فلا تبكين فى إثر شىء ندامة ... إذا نزعته من يديك النوازع

وعلى أنَّ تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم، والخروج لا لضرورة غالبة عن أوطانكم، من الواجب بكل اعتبار عليكم، سيما وقد مددتم إلى التمتع لغيرها عينيكم. ولو لم يكن لهذه الجزيرة الفريدة من

(١) لدى المقرى فى نفح الطيب: «ليلى» وآثرت المثبت هنا لما ورد فى الأغانى (ج٩ ص٢١٧ طبعة دار الكتب).

فلا تبكين فى إثر لبنى ندامة ... وقد نزعتها من يديك النوازع

وهذه الأبيات من شعر لقيس بن ذريح فى زوجته لبنى بنت الحباب الكعبية.

الفضيلة إلاّ ما خصت به من بركة الرباط، ورحمة الجهاد، لكفاها فخراً على ما يجاورها مــن سائر البلاد، قال رسول الله ﷺ: «رباط يـوم فى سبيل الله خير من ألف يوم سواه». وقال عليه السلام: «الروحة يروحها العبد فى سبيل الله والغدوة خيــر من الدنيا وما فيها». وعلــى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخى فراركم من الأندلس إلى الله وحــده بالتوبة المكملة والاستغـفار، مع الانقطاع فى أحــد المواطن المكرمــة المعظمــة بالإجمــاع، وهى طيـبــة أو مكة أو بيت المقدس، فقد خــسرتم صفقة رحلتكم، وتبين أنَّ لغـير وجه الله العظيم كانت نية هــجرتكم؛ اللهم إلاّ إنَّ كنتم قــد لاحظتم مســألة الرجل الذى قتــل مائة نفس، وسأل أعلم أهل الأرض، فأشار عليه بعــد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التى ارتكب فيــها الذنوب، واكتــسب بها العيــوب؛ فأمر آخــر، مع أنَّ كلام العلمــاء فى هذا الحــديث مــعروف؛ ويقــال لكم من الجــواب الخــاص بكم: فعليكم إذاً بترك القيل والقال، وكسر حربة الجدال والقتال، وقصر ما بقى من مدة العــمر على الاشتــغال بصالح الأعــمال. ووقعت فى مكتــوبكم كلمات أوردها النقد فى قالب الاســتهزاء والازدراء، والجهالة بمقادير الأشــياء، منها: ريح صرصــر، وهو لغة القرآن، وقاع قــرقر: وهو لفظ سيد العــرب والعجم محــمّد ﷺ، ثبت فى الصحيح فى باب الــتغليظ فيمن لا يؤدى زكــاة ماله، «قيل: يا رسول الله، والبقــر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقــها، إلاّ إذا كان يوم القيامة بطح لهــا بقاع قرقر لا يفقد منهــا شيئًا، تنطحه بقونها، وتطؤه بأظلافها». الحــديث الشهير. قال صاحب المعلم: بطح لهــا البقــاع قــرقر، أى ألقى عــلى وجهــه؛ والقــاع: المستــوى من الأرض، والقرقر: كذلك؛ هذا مــا حضر من الجواب. وبقى فى مكتوبكم حشــو كثير من كلام الإقذاع، وفــحش بعيد من الحشمة والحــياء. رأيت أنَّ من الصواب

الإضراب عن ذكره، وصون اليد عن الاستعمال فيه، والظاهر أنّه إنّما صدر عنكم وانتم بحال مرض، فلا حرج فيه عليكم إن شاء الله، أجلّكم، ومكّن أمنكم، وسكن وجلكم، ومنه جل اسمه نسأل لى ولكم حسن الخاتمة، والفوز بالسعادة الدائمة، والسلام الأتم يعتمدكم، والرحمات والبركات من كاتبه على بن عبد الله بن الحسن، وفقه الله.

وذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبع مئة(*).

(*)وقيد رحمه الله فى مدرج طى هذا الكتاب ما نصه:

يا أخى، أصلحنى الله وإياكم، وبقى من الحديث شىء، الصواب الخروج عنه لكم، إذ هذا أوانه، وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه، وليكن البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله، وحاصله:

أنكم عددتم ما شاركتم فيه بحسب الأوقات، وقطعتم بنسبة الأمور كلها لنفسكم، وأنها إنّما صدرت عن أمركم وبإذنكم، من غير مشاركة فى شىء منها لكم، ثم مننتم بها المن القبيح، المبطل لعمل برّكم، على تقدير التسليم فى فعله لكم، ورميتم غيركم بالتقصير فى حاله كله، طريقة من يبصر القذى فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه، وأقصى ما تسنى للمحب أيام كونكم بالأندلس، تقلد كلفة قضاء الجماعة، وما كان إلاّ أنّ وليتها بقضاء الله وقدره، فقد تبين لكل ذى عقل سليم أنّه لا موجد إلاّ الله، وإذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلاً بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه،

---

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فيما يلى فى ص ١٩٣ أورده المقرى بنصه فى نفح الطيب ج٥ ص ١٢٥ - ١٣١.

من غير عاضد له على تحصيل مراده ولا معين، ولكنه، جلت قدرته، وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه، وأوعد فاعل الشر بالعقاب عدلا منه، وكأنى بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة، وما أحوجكم إلى تأملها بعين اليقين، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من الكناية، باستحقاركم للقضايا الشرعية، وتهاونكم بالأمور الدينية، ما يعظم الله به الأجر، وذلك فى جملة مسائل، منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضى موجباته، على كره منكم؛ ومنها مسألة ابن أبى العيش المثقف فى السجن على آرائه المضلة، التى كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث، وزعمه أنَّ رسول الله ﷺ أمره بالمشافهة بالاستمتاع بها، فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجه من الثقاف، ومن غير مبالاة بأحد؛ ومنها أنَّ أحد الفتيان المتعلقين بكم توجهت عليه مطالبة بدم القتيل، وسيق المدعى عليه للذبح بغير سكين، فما وسعنى بمقتضى الدين إلاّ حبسه على ما أحكمته السنة، فأنتقم لذلك، وسجنتم الطالب ولى الدم، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور، إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه، ولا يجمل بى ولا بكم ذكره. والمسألة الأخرى أنتم توليتم كبرها، حتى جرى فيها القدر بما جرى من الانفصال، والحمد لله على كل حال. وأما الرمى بكذا وكذا مما لا علم لنا به بسببه، ولا عذر لكم من الحق فى التكلم به، فشىء قلما يقع من البهتان، ممن كان يرجو لقاء ربه، وكلامهم فى المدح والهجو هو عندى من قبيل اللغو الذى نمر به كراما، والحمد لله فكثّروا أو أقلوا من أى نوع شئتم، وأنتم وما ترضونه لنفسكم، وما فهت لكم بما فهت من الكلام، إلاّ على جهة الإعلام، لا على جهة الانفعال، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال، فمذهبى غير مذهبكم، وعندى ما ليس عندكم.

وكذلـك رأيتكم تكثرون فى مـخاطبـتكم من لفظ الرقـية فى مـعرض الإنكار لوجود نفعها، والرمى بالمنقصة والحمق لمستعملها، ولو كنتم قد نظرتم فى شىء من كتب السنة، وسير الأمة المسلمة، نظر مصدق، لما وسعكم إنكار ما أنكرتم، وكَتْبه بخط يدكم، فهو قادح كـبير فى عقيـدة دينكم، فقد ثبت بالإجـماع فى سـورة الفلق أنّه خطاب للنـبى ﷺ، وأنّ المراد بها هو وآحـاد أمتـه؛ وفى أمهـات الإسلام الخمس أنّ رسـول الله ﷺ كان إذا اشـتكى رقاه جبريل، فـقال: بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شـر حاسد إذا حسـد، ومن شر كل ذى عـين. وفى الصحيح أيضًـا إنّ أناسًا من أصـحاب رسول الله ﷺ كانوا فى سفـر، فمروا بحىّ من أحياء العرب، فاسـتضافوهم فلم يضيفوهم، فقالوا: هل فيكم راق؟ فـإنّ سيد الحى لديغ أو مصاب: فقال رجل من القوم: نعم، فأتاه بفاتحة الكتـاب، فبرئ الرجل، فأعطى قطيعا من غنم، الحديث شهير. قال أهل العلـم: فيه دليل على جوار اخذ الأجرة على الرقيـة والطب وتعليم القرآن، وهو قـول مالك والشـافعى وأحـمد وأبى ثور وجماعة من السلف، وفيه جـواز المقارضة، وإنّ كان ضد ذلك أحسن، وفى هذا القـدر كـفـاية. ومـا رقـيت قط أحـداً على الوجـه الذى ذكـرتم، ولا استرقيت، والحـمد لله، وما حملنى على تبين مـا بينته الآن لكم فى المسألة، إلاّ إرادة الخيـر التام لجهـتكم، والطمع فى إصلاح باطنكـم وظاهركم، فإنى أخاف عليكـم من الإفصاح بالطعن فى الـشريعة، ورمى علمـائها بالمنقـصة، على عادتكم وعادة المستخفف ابن هذيل شيخكم، منكر علم الجزيئات، القائل بعـدم قدرة الرب علـى جمع الممكنـات؛ وانتم قد انتـقلتم إلى جـوار أناس أعلام، قلما تجوز علـيهم، حفظهم الله، المغالطات، فتأسـركم شهادة العدول

التى لا مدفع لكم فيها، وتقع الفضيحة، والدين النصيحة، أعاذنا الله من درك الشقاء، وشماتة الأعداء، وجهد البلاء.

وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغى فى الجانب الرفيع، جناب سيد المرسلين، وقائد الغر المحجلين، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة، يكبر فى نفوس التكلم بها، أنتم تعلمونها، وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم، وإيثار بعدم، مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم، لكانت الأمة المسلمة، امتعاضًا لدينها ودنياها، قد برزت بهذه الجهات، لطلب الحق منكم، فليس يعلم أنّه صدر عن مثلكم من خدام الدول ما صدر عنكم، من البعث فى الأبشار والأموال، وهتك الأعراض، وإفشاء الأسرار، وكشف الأستار، واستعمال المكر والحيل والغدر فى غالب الأحوال، للشريف والمشروف، والخديم والمخدوم، ولو لم يكن فى الوجود من الدلائل على صحة ما رضيتم به لنفسكم، من الاتسام بسوء العهد والتجاوز المحض وكفران النعم والركون إلى ما تحصل من الحطام الزائل إلاّ عملكم مع سلطانكم ومولاكم وابن مولاكم أيده الله بنصره وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه وفى الكثير من أهل قطره لكفاكم وصمة لا يغسل دنسها البحر ولا ينسى عارها الدهر فإنكم تركتموه أوّلاً بالمغرب عند تلون الزمان وذهبتم للكدية والأخذ بمقتضى المقامة الساسانية إلى أن استدعاه الملك وتخلصت له بعد الجهد الأندلس فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء وضربتم وجوه رجاله بعضا ببعض حتى خلا لكم الجو وتمكن الأمر والنهى فهمزتم ولزمتم وجمعتم من المال ما جمعتم ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء مكرا منكم فلما بلغتم أرض الجبل انحرفتم عن الجادة وهربتم

بأثقالكم الهروب الذى أنكره عليكم كل من بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر فى العدوتين من مؤمن وكافر وبر وفاجر فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم أو يثق بكم فى قول أو فعل صالح أو طالح. ولو كان قد بقى لكم من العقل ما تتفكرون به فى الكيفية التى ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة فى المغرم وغير ذلك مما لكم وزره ووزر من عمل بعدكم إلى يوم القيامة حسبما ثبت فىَ الصحيح لحملكم على مواصلة الحزن وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأمارة من التورط والتنشب فى أشطان الآمال ودسائس الشيطان ونعوذ بالله من شرور الأنفس وسيئات الأعمال.

وأما قولكم عن فلان: إنّه كان حشرة فى قشور اللوز وإن فلان كان برغوثا فى تراب الخمول فكلام سفساف يقال لكم من الجواب عليه: وأنتم يا هذا أين كنتم من خمسين سنة مثلا؟ خلق الله الخلق لا استظهارا بهم ولا استكثارا وأنشأهم كما قدر أحوالا وأطوارا واستخلفهم فى الأرض بعد أمة أمما وبعد عصر أعصار وكلفهم شرائعه وأحكامه ولم يتركهم هملا وأمرهم ونهاهم ليبلوهم أيهم أحسن عملا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم وبكل اعتبار فلا نعلم فى نمط الطلبة تدريجا كان أسمح فى تدريجكم ونبدأ من كذا فإنه كان كذا وكذا وأكثر أهل زمانه تخملا وتقللا فى نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ أبو الحسن بن الجياب ولكنه حين علم رحمه الله من نشأتكم وحالتكم ما علم نبذ مصاهرتكم وصرف عليكم صداقكم وكذلك فعلت بنت جزى زوج الرهيصى معكم حسبما هو مشهور فى بلدكم وذكرتم أنكم مازلتم من أهل الغنى حيث نفرتم بذكر العرض وهو بفتح العين والراء: حطام الدنيا

على ما حكى أبو عبيد قال أبو زيد: هو بسكون الراء: المال الذى لا ذهب فيه ولا فضة وأى مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثقاف على ما كان قد تبقى عنده مثال مجبى قرية متـرايل ثم من العدد الذى برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على ما شهد به الجمهور من أصحابكم وأما الفلاحة التى أشرتم إليها فلا حق لكم فيها إذ هى فى الحقيقة لبيت مال المسلمين مع ما بيدكم على ما تقرر فى الفقهيات والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض مالديهم من سقطاتكم فى القال والقيل ولم يصر إلى دفع معرتها عنكم وجه التأويل لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبى الخير بل أبى الشر الحادثم أيام خلافة الحكم المسطورة فى نوازل أبى الأصبغ بن سهل فاعلموا ذلك ولا تهملوا إشارتى عليك قديما وحديثا بلزوم الصلوات وحضور الجماعات وفعل الخيرات والعمل على التخلص من التبعات إنَّ وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور.

وقلتم فى كتابكم: أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد؟ وقد أذهب الله عنا ببركة الملة المحمدية عيبة الجاهلية فى التفاخر بالآباء ولكننى أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم: إنْ كانت الإشارة إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أماثل قطره. قال القاضى أبو عبد الله بن عسكر: وقد ذكر فى كتابه من سلفى فلان بن فلان ما نصه: وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابرا عن كابر استقضى جده المنصور ابن أبى عامر. وقال غيره وغيره وبيدى من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتتبة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس إلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد والمنة

لله وحده. وإن كانت الإشارة إلى الغير من الأصحاب فى الوقت حفظهم الله فكل واحد منهم إذا نظر إليه بعين الحق وجد أقرب منكم نسبا للخطط المعتبرة وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب أو مساويا على فرض المسامحة لكم قال رسول الله ﷺ: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره حرام دمه وماله وعرضه.

ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول: من كان يا فلان من قومكم فى عمود نسبكم فقيها مشهورا أو كاتبا قبلكم معروفا أو شاعرا مطبوعا أو رجلاً نبيها مذكورا ولو كان يا لوشى وكان لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف والتواصل والتواضع وترك التحاسد والتباغض والتقاطع إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

وكذلك العجب كل العجب من تسمياتكم الخربات التى شرعتم فى بنائها بدار السلامة وهيهات هيهات المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء وعناء وفناء ولو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار فى الوقت إلاّ موت سعيدكم عند دخولها لأغناكم عن العلم اليقينى بمآلها وأَظْهَرْتُم سرورا كثيرا بما قلتم إنكم نلتم حيث أنتم من الشهوات التى ذكرتم أن منها الإكثار من الأكل والخرق والقعود بإزاء جارية الماء على نطع الجلد والإمساك أولى بالجواب على هذا الفضل فلا خفاء بما فيه من الخسة والخباثة والخبث وبالجملة فسرور العاقل إنما ينبغى أن يكون بما يجمل تقديمه من زاد التقوى للدار الباقية فما العيش كما قال رسول الله ﷺ إلاّ عيش الآخرة فقدموا إن قبلتم وصاة الحبيب أو البغيض بعضا عسى أن يكون لكم ولا تخلفوا كيلا يكون عليكم هذا الذى قلته لكم وإن كان لدى من يقف عليه من نمط الكثير فهو فى اعتبار المكان وما

مر من الزمان فى حيز اليسير وهو فى نفسه قول حق وصدق ومستند أكثره كتاب الله وسنة محمّد رسول الله ﷺ وعلى سائر أنبيائه فاحمدوا الله العلى العظيم على تذكيركم به إذ هو مجرى النصيحة الصريحة يسرنى الله وإيام لليسرى وجعلنا ممن دكر فانتفع بالذكرى والسلام.

انتهى كلام القاضى أبى الحسن النباهى رحمه الله(*).

قلت: ولعل هذا الكلام وأشباهه هو الحامل لابن الخطيب على هجو القاضى ابن الحسن المذكور فى الكتيبة الكامنة[1] حيث ذكره ولقبه بجعسوس ووصفه بما لا يليق ذكره ثم ألف فى ذلك تأليفا مستقلا سماه بخلع الرسن فى وصف القاضى ابن الحسن حسبما ألفيت ذلك بخط شيخنا القاضى سيدى عند الواحد الوانشريسى رحمه الله ولا يخلو كلام كل واحد منهما من تحامل على صاحبه والله يسمح لنا ولهما بجاه النبى ﷺ.

وقال ولى الدين بن خلدون فى تاريخه[2]، فى موضع أخر ما نصه:

كان محمّد بن الأحمر المخلوع قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة فى جمادى من سنة ثلاث وستين وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنتزى على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع واستوى على كرسيه واستقل بملكه ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمّد بن الخطيب فاستخلصه وعقد له على وزارته وفوض إليه القيام بملكه فاستولى عليه وملك هواه وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى إن نزلت به آفة فى رياسته فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه وكان لأبناء السلطان أبى الحسن كلهم غيرة من

(١) الكتيبة الكامنة ص ١٤٦، وانظر أيضًا نفح الطيب، ج٥ ص ١٢١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٧ ص ٣٣٧: والمقرى، فى نفح الطيب ج٥ ص ١٠٤ نقلاً عن ابن خلدون.

ولد عمهم السلطان أبـى على ويخشونه على أمرهم ولمّا لحق الأميـر عبد الله الرحمن بن أبى يفلوسن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واسـتخلصه لنجواه، ورفع فى الدولة رتبته، وأعلى منزلته، وحـمل السلطان على أن عقد له على الغـزاة المجاهدين من زناتة مكان بـنى عمـه من الأعيـاص فكانت له آثار فى الاضطلاع بها ولمّا اسـتبد السلطان عبـد العزيز بأمره واستـقل بملكه وكان ابن الخطيب ساعيا فى مرضاته عند سلطانه فدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبى يفلوس ووزيره [المطارد به][1] مسعود بن ماساى؛ وأدار ابن الخطيب فى ذلك مكره وحمل السلطان عليهـما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر واعتـقلهما سائر أيام السلطان عـبد العـزيز وتغيـر الجـو بين ابن الأحـمـر ووزيره ابن الخطيب وأظلم وتنكر له فنزع عنه إلى عبـد العزيز سلطان المغرب سنة ثنتين وسـبعين لِمَا قدم من الوسائل ومهد من السوابق فقبله السلطان وأحله فى مجلسه محل الاصطفاء والقرب وخاطب ابن الأحمر فى أهله وولده فبعثهم إليه واستقر فى جملة السلطان. ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان [عبد العزيز][2] فى ملك الأندلس وحمله عليه وتواعـدوا فى ذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ونمى ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها انتـقى فيها من متاع الأندلس وماعونهـا وبغالها الفارهة ومعلوجة السبى وجواريه وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه فأبى السلطان من ذلك ونكره. ولمّا هلك واستبد الوزير ابن غازى بالأمر تحيز إليه ابن الخطيب ودخله وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان [عبد العزيز][2]، فلج واستـنكف عن ذلك وأقبح الرد وانصـرف رسوله إليـه وقد

(١) التكملة لدى ابن خلدون.

(٢) التكملة لدى المقرى.

رهب سطوته فانطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبى يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية[1]، ومع الوزير مسعود بن ماساى ونهض - [يعنى ابن الأحمر][1] - إلى جبل الفتح فنازله بعساكره ونزل عبد الرحمن ببطوية.

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيرا تركته لطوله وملخصه[2]: أن الوزير أبا بكر ابن غارى الذى كان معه ابن الخطيب ولى ابن عمه محمّد بن عثمان مدينة سبتة خوفا عليها من ابن الأحمر ونهض هو أعنى الوزير إلى منازلة عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ببطوية إذ كانوا قد بايعوه فامتنع عليه وقاتله أياما ثم رجع إلى تازا[3]، ثم إلى فاس واستولى عبد الرحمن على تازا وبينما الوزير أو بكر بفاس يدبر الرأى إذ وصله الخبر بأن ابن عمه محمّد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبى سالم وهو المعروف بذى الدولتين وهذه هى دولته الأولى وذلك أنّ ابن عم الوزير وهو محمّد بن عثمان لما تولى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخنّقة وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب فاستعتب له وقبّح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر بن غارى من الاستغلاظ له فى شأن ابن الخطيب وغيره فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه وداخله فى البيعة لابن السلطان أبى سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرُّقبة، وأنْ يقيمه للمسلمين سلطانا ولا يتركهم فوضى وهملا تحت ولاية الصبى الذى لم يبلغ ولا تصح ولايته

---

(١) بطونة: من حصون ورباطات سفاقس، وهى على البحر وبها منار مفرط فى الارتفاع (المغرب للبكرى).

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٧ ص ٣٣٨.

(٣) تازا: موضع من أعمال بنى العافية، فى جبل منه الذهب (المغرب للبكرى).

شرعا وهو السعيد بن أبى فارس الذى بايعه الوزير أبو بكر بن غازى بتلمستان حين مات أبوه واستبد عليه واختص ابن الأحمر أحمد بن أبى سالم من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه وبين أبيه أبى سالم من المولاة. و كان ابن الأحمر اشترط على محمّد بن عثمان وحزبه شروطا منها أن ينزلوا له من جبل الفتح الذى هو محاصر له وأن يبعثوا له جميع أبناء الملوك من بنى مرين ليكونوا تحت حوطته وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه فانعقد أمرهم على ذلك وتقبل محمّد بن عثمان شروطه وركب من سبتة إلى طنجة واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه وحمل الناس على طاعته واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها فقدموا وبايعوا وخاطب أهل جبل الفتح فبايعوا وأفرج ابن الأحمر عنهم. وبعث إليه محمّد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليه ودخله ومحا دعوة بنى مرين مما وراء البحر وأهدى للسلطان أبى العباس وأمده بعسكره من غزاة الأندلس وحمل إليه مالا للإعانة على أمره. ولما وصل الخبر بهذا إلى الوزير أبى بكر بن غازى قامت عليه القيامة وكَانَ ابن عمه محمّد بن عثمان كتب إليه يموه بأن هذا عن أمره فتبرأ من ذلك ولاطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر فاعتل له بانعقاد البيعة لأبى العباس. وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى ما رامه منه بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر فوجم وأعرض عن ابن عمه ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبى يفلوسن فاهتبل فى غيبة ابن عمه محمّد بن عثمان مُلْكَ المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو ستمائة وعسكر آخر من الغزاة. وبعث ابن الاحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن

عمه السلطان أحمد ومظاهرته واجتماعهما على مُلْك فاس وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه، فتراضيا. وزحف محمّد بن عثمان وسلطانه إلى فاس وبلغ الخبر إلى الوزير أبى بكر بمكانه من تازا، فانفض معسكره، ورجع إلى فاس، ونزل بكدية العرائس؛ وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون[1]، فصمد إليه الوزير بعسكره فاختل مصافه ورجع على عقبه مفلولا وانتهب عسكره ودخل البلدة الجديدة البيضاء وجأجأ بالعرب أولاد الحسين فعسكروا بالزيتون ظاهر فاس فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف وشردهم إلى الصحراء وشارف السلطان أبو العباس أحمد بمجموعة من العرب وزنانة وبعثوا إلى ولى دولتهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصره الذى اختطه بملوية فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق فاجتمعوا بوادى النجا وتحالفوا ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس فى ذى القعدة من سنة خمس وسبعين وبرز إليهم الوزير بعساكره فانهزمت جموعه وأحيط به وخلص إلى البلد الجديد بعد غص الريق. واضطرب معسكر السلطان أبى العباس بكدية العرائس ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه وضربوا على البلد الجديد سياجا بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر فأحكموا الحصار وتحكموا فى ضياع ابن الخطيب بفاس فهدموها وعاثوا فيها. ولمّا كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمّد بن عثمان عمه الوزير أبا بكر فى النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان لكون الحصار قد

(١) كذا فى سائر الأصول ومثله لدى المقرى فى نفح الطيب ج٥ ص ١٠٧، ولدى البكرى فى المغرب: «زرهونة».

اشتد به ويئس وأعجزه المال فأجاب وأشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافى له عن أعمال مراكش بدل سجلماسة فعقدوا له على كره وطووا على المكر وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبى العباس وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها؛ [انتهى].

### محنة ابن الخطيب ووفاته:

ثم ذكر ابن خلدون الخبر عن مقتل ابن الخطيب فقال[1]:

ولمّا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه [فاتح][2] سنة ست وسبعين، استقل بسلطانه، والوزير محمّد بن عثمان مستبد عليه وسليمان بن داود بن أعراب كبير بنى عسكر رديف له وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نمى إليه عنه أنه كان يغرى السلطان عبد العزيز المرينى بملك الأندلس فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقيه أبو بكر بن غازى بساحة البلد الجديد فهزمه السلطان ولازمه بالحصار أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفا على نفسه. فلما استولى السلطان على البلد أقام أياما ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة

(١) تاريخ ابن خلدون ج٧ ص ٣٤١، ونفح الطيب ج٥ ص ١١٠.

(٢) التكملة عن نفح الطيب.

بالأندلس، متى أعاد الله إلى ملكه، فلما استقر له سلطانه، أجاز له سليمان سفيراً عن [الوزير][1] عمر بن عبد الله، ومقتضيا عهده من السلطان، فصده ابن الخطيب عن ذلك، [محتجًا][1] بأن تلك الرياسة إنّما هى لأعياص الملك من بنى عبد الحق، لأنهم يعسوب زناتة، فرجع سلمان، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب، ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات، يشير كل واحد منهما لصاحبه، بما يُحْفِظه، مما كمن فى صدورهما. وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله بن زَمْرك، فقدم على السلطان أبى العباس، وأحضر ابن الخطيب بالمَشْوَر[2] فى مجلس الخاصة، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له فى كتابه فى المحبة، فعظم النكير فيها، فوبخ ونكل، وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ، ثم نقل إلى محبسه، واشتوروا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بمقتله، فطرقوا السجن ليلا، ومعهم زعانفة جاءوا فى لفيف الخدم، مع سراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقا فى محبسه، وأخرج شلوه من الغد، فدفن فى مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على حافة قبره طريحا، وقد جمعت له أعواد، وأضرمت عليه نار، فاحرق شعره، واسود بشره، فأعيد إلى حفرته، وكان فى ذلك انتهاء محنته. وعجب الناس من هذه الشنعاء التى جاء بها سليمان، واعتدوها من هناته، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل

(١) التكملة عن نفح الطيب.

(٢) المشور: القصر لأنه موضع الشورى.

دولته، والله الفعال لما يريد. وكان، عفا الله عنه، أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فتجهش هواتفه بالشعر، يبكى نفسه، ومما قال فى ذلك:

بعـــدنا وإنَّ جـاورتـنا البـيــوت وجــئنا بوعظ ونحــن صــمــوت

وأنفـــاســنا سكـنت دفـــعـــة كـــهـجـــر الصـلاة تـلاه القنوت

وكنا عـظامًـا فـصــرنا عظامًــا وكنا نقــوت فــهــا نحن قــوت

وكنا شــمــوس ســمــاء العـــلا غـربن فـناحت علينا الســمــوت

فكم خـــذلت ذا الحــسـام الـظبـا وذو البـخت كم جدلتـه البخـوت

وكم ســيق للقـبــر فى خــرقـة فـتىً ملئت من كـســاه التـخـوت

فـــقل للعـــدا ذهب ابن الخـطيب وفـــات ومن ذا الـذى لا يفـــوت

ومن كـــــان يفـــــرح منهـم له فـقل: يفرح الـيوم من لا يمـوت

انتهى كلام ابن خلدون فى ديوان العبر.

ورأيت[1] تخميسا لبعض بنى الصباغ على هذه القطعة، لكنه زاد فيها بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون، وهأنا أثبته تتميما للفائدة، وهو:

أيا جـــاهـلا غـــره مـــا يفـــوت وألهـــاه حـــال قليل الثــبـــوت

تأمـل لمن بعـــــد أنسٍ يصـــــوت بعـــدنا وإنَّ جـاورتـنا البـيــوت

وجــئـنا بوعظ ونحن صـــمــوت

لقـــد نـلت من دهرنـا رفــعـــة تقـضت كـبـــرق مـضى سـرعـة

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١١٢.

فهيهات ترجوا لها رجعة وأصواتنا سكنت دفعة

كهجر الصلاة تلاه القنوت

بدا لى من العز وجه شباب يؤمل سيبى وبأسى يهاب

فسرعان مزق ذاك الإهاب ومدت وقد أنكرتنا الثياب

علينا نسائجها العنكبوت

فآها لعز تقضّى مناما منحنا به الجاه دوما كراما

وكنا نسوس أموراً عظاما وكنا عظامًا فصرنا عظامًا

وكنا تقوت فها نحن قوت

وكنا لذا الملك حلى الطلا فآها عليه زمانًا خلا

نعوض من جدة بالبلى وكنا شموس سماء العلا

غربن فناحت علينا السُّمُوت

تعودت بالرغم صرف الليالى وحملت نفسى فوق احتمالى

وأيقنت أنْ سوف يأتى ارتحالى ومن كان منتظراً للزوال

فكيف يؤمَّل منه الثبوت

هو الموت يا ما له من نبا يجوز الحجاب إلى من أبى

ويألف أخذ سنى الخبا فكم أسلمت ذا الحسام الظبا

وذا البخت كم جدَّلته البخوت

هو الموت أفضح من عجمةٍ وأيقظ بالوعظ من نومةٍ
وسلى عن الحزن ذا حرقةٍ فكم سيق للقبر فى خرقةٍ

فتى ملئت من كساه التخوت

تقضى زمانى بعيش خصيب وعندى لذنبى انكسار المنيب
وها الموت قد صبت منى نصيبى فقل للعدا ذهب ابن الخطيب

وفات ومن ذا الذى لا يفوت

مضى ابن الخطيب كمن قبله ومن بعده يقتفى سبله
[وهذا الردى ناثر شمله](1) فمن كان يفرح منهم له

فقل يفرح اليوم من لا يموت

هو الموت عم فما للعدا يسرون بى حين ذقت الردى
ومن فاته اليوم يأتى غداً سَيَبْلى الجديدُ إذا ما المدى

تتابع آحاده والسبوت

أخى توخ طريق النجاة وقدم لنفسك قبل الممات
وشمر بجد لما هو آتى ولا تغترر بسراب الحياة

فإنك عما قريب تموت

---

(1) موضع ما بين الحاصرتين بياض فى سائر الأصول، والتكملة لدى المقرى فى نفح الطيب ج٥ ص ١١٤.

انتهى. وقد تذكرت بقوله:

سـيـبلى الجـديد إذا مـا المدا ... تتـابع آحـاده والسـبـوت

قول الآخر:

نطوى سـبـوتا وآحـادا وننشـرها ... ونحن فى الطى بين السبت والأحد

فعد ما شـئت من سبت ومن أحدٍ ... لا بد أنَّ يدخل المطوى فى العـدد

**شعره:**

قال بعض الأعلام: شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع، ولا معرج على شاعر بعده الآذان والمسامع؛ فمن ذلك قوله سامحه الله[1]:

عسى خطرة بالركب يا حادى العيس ... على الهضبة الشـماء من قصر باديس

لنـظفـر من ذاك الـزلال بعـلة ... وننعم فى تلـك الظلال بتـعـريس

حـبست بهـا ركـبى فـواقًا وإنّمـا ... عقدت على قلبى لها عـقد تحبيس

لقد رسخت آى الجوا فى جوانحى ... كما رسخ الإنجـيل فى قلب قسيس

بميـدان جـفنى للسـهـاد كـتيبـة ... تغير على سرح الكرى فى كراديس

ومـا بى إلاّ نفـحـة حـاجـرية ... سرت والدجى مـا بين وهن وتغليس

ألا نَفَسٌ ياريح من جـانب الحـمى ... تنفس من نار الجوى بـعض تنفيس

ويا قلـب لا تلق السـلاح فـربما ... تعـذر فى الدهر أطراد المقـاييس

وقـد تعـتب الأيام بعـد عـتابهـا ... وقد يعـقب الله النعيم مـن البوس

(١) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٦، والإحاطة ج٤ ص ٤٨٦.

ولا تخش[1] لج الدمع يا خطرة الكرى إلى الجفن بل قيسى على صرح بلقيس
تقول سليمى: ما لجسمك شاحبًا مقالة تأنيب يشاب بتأنيس
وقد كنت تعطو كلما هبت الصبا بريان فى ماء الشبيبة مغموس
ومن رابح الأيام يا بنت عامر يجوب الفلا راحت يداه بتفليس
فلا تحسبى والصدق خير سجية ظهور النوى إلاّ بطون النواويس[2]
وقفراء أما ركابها فمضلل ومربعها من آنس غير مأنوس
سنحنا بها من هضبة لقرارة ضلالا وملنا من كناس إلى خيس
إذا ما نهضنا عن مقيل غزالة نزلنا فعرسنا بساحة عريس
أدرنا بها كأسا دهاقًا من السرى أملنا بها عند الصباح من الروس
وحانه خمار هدانا لقصدها شميم الحميا واصطكاك النواقيس
تطلع ربانيها من جداره يُهَيْنم فى جنح الظلام بتقديس
بكرنا وقلنا إذ نزلنا بساحة عن الصافنات الجرد والضمر العيس
أيا عابد الناسوت أنا عصابة أتينا لتثليث بلى ولتسديس
وما قصدنا إلاّ المقام بحانة وكم ألبس الحق المبين بتلبيس
فأنزلنا قوراء فى جنباتها محاريب شتى الاختلاف النواميس
بدرنا بها طين الختام بسجدة أردنا بها تجديد حسرة إبليس
ودار العذارى بالمدام كأنها قطًا تتهادى فى رياش الطواويس

(١) فى المطبوع: «ولا تخشى» وهو غير صحيح عروضيا والبيت من الطويل.

(٢) فى سائر الأصول: «النواميس» ولعل الصواب ما أثبتناه. والنواويس: القبور.

وصـــارفنا فـــيـهـــا نضـــار بمثله كأنا مـلأنا الكأس ليلا من الكيس

وقمنا نشـاوى عندما مـتع الضحى كما نهضت غلب الأسود من الخيس

فـقال: لبـئس المسلمـون ضيـوفنا أمـا وأبيك الحبـر ما نحن بالبـيس

وهل فى بنى مــثـواك إلاّ مـبـرز بحلبـة شـورى أو بحلقـة تدريس

إذا هز عـــسـال اليـراعـة فــاتكًا أسال نجـيع الحبـر فوق القـراطيس

يقلب تحت النـقع مـقلة ضـاحك إذا التفت الأبطال عن مـقل شوس

سبـينا عقـار الروم فى عقـر خاننا بحـيلة تمويه وخـــدعــة تدليس

لئن أنكرت شكلى فـفضلى واضح وهل جائز فى العقل إنكار مـحسوس!

رسبت بأقصى الغـرب ذخر مضنة وكم درة عليـاء فى قـاع قـامـوس

وأغـربت سوسى بالعـذيب وبارق على وطن دانى الجوار من السوس

ومن ذلك قوله رحمه الله فى الميلاد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام يمدح مخدومه أبا عبد الله المخلوع(١):

مـا على القلب بعـدكم من جناح أن يرى طـائرًا بغــيـــر جـناح

وعلى الـشـــوق أنَّ يشـب إذا هـ ـب بأنفـاسكم نسيم الصـبـاح

جـيـرة الحى والحـديث شـجـون والليـالى تلـين بعـد الجـمــاح

أترون الـسلو خـــامــر قلـبى بعـدكم؟ لا، وفـالق الإصبـاح

ولو انى أعطى اقتراحى على الأيام مـا كـان بعـدكم باقـتـراحى

---

(١) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٥٠٩.

ضـايقتـنى فيكم صـروف الليـالى واسـتـدارت على دور الوشـاح
وسـقـتنى كـأس الفـراق دهاقًـا فى اغـتبـاق مـواصل واصطبـاح
واسـتبـاحت من جِـدتى وفـتـائى حـرمـا لم أخـله بالمسـتـبـاح

ومنها:

يا ترى والنفـوس أسـرى أمـانى مـالهـا من وثاقـهـا سـراح
هل يـبـاح الورود بعـد ذياد أو يبـاح اللقـاء بعـد انتـزاح
وإذا أعـوذ الجـسـوم التـلاقى نـاب عنـه تعـارف الأرواح

وهى طويلة، ولم يحضرنى منها فى هذا التاريخ سوى ما كتبته.

قلت: وأظن أنَّ الفقيه الكاتب أبا زكريا يحيى بن خلدون كاتب الإنشاء بتلمسان المحروسة أيام السلطان أبى حمو موسى بن يوسف الزيانى رحمه الله نسج على منوال هذه القصيدة فى قصيدته بديعة له، ورفعها إلى السلطان أبى حمـو فى مولد سنة ثمان وسـبعين وسـبع مئـة. وهذا ابن خلدون أخو ولى الدين صاحب التاريخ المشهور، ونص القصيدة[1]:

ما على الصَّب فـى الهوى من جناح أنَّ يرى حلف عـبـرة وافـتـضـاح
وإذا مـا المحب عِـيلَ اصطبـارا كـيف يصغى إلى نصـيحـة لاحى
يا رعـى الله بالمحـصب ربعـا آذنت عـهـده النوى بانـتـزاح
كم أدرنا كـأس الهوى فـيه مـزجا رُبَّ جـدٍ من الجـوى فى المزاح
هل إلى رسـمـه المحـيل سـبـيل يا حُـداة المطـى تلك الـطلاح

(١) القصيدة بطولها لدى المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٥١٠.

نســأل الـدار بالخليط ونـســقى ذلك الربع بـالدمـوع الـسـفــاح

أى شـجــو عــاينت بعــد نواها من أسى لازم وصـــبـــر مـــزاح

أهل ودى إن رابكم برح وجـدوى من صـــبـــا بارح وبرق لـيـــاح

فاسـألوا البرق عن خفـوق فؤادى والصبـا عن سقـام جسـمى المتاح

يا أُهيـل الحـــمى نداء مـــشـــوق مـــا له عن هوى الدمـى من براح

طالما اســتــــعـــذب المدامع وردًا فى هواكم عن كـل عـذب قـراح

عـــاده بالطلول للشـــوق عـيـــد من حـــمـــام بـدوحـهن صـــداح

من لقلب مــن الجـوى فى ضـرام ولجـــفن من البـكا فى جـــراح

ولصب يهـيــجـه الذكـر شـوقًـا فـهـو سكرًا يرتاح من غـيـر راح

وليـال قـــضـيت للهـو فـــيـهـا وطرا والشــبــاب ضــافى الجناح

راكـبـا فى الهـــوى ذلول تصـاب ســاحـبًـا فـى الغـرام ذيل مـراح

ونجـــــوم المنى تـنيـــــر إلى أن روع الشـيب سـربـهـا بالصبـاح

أى مَـسْرى حـمـدت لم أخلُ منه بسـوى حـسرةٍ وطـول افتـضـاح

واخـســارى يوم القـــيـامـة إن لم يغـــفـــر الله زلتى واجــتـــراحى

لم اقـــدم وســيلةً فـــيــــه إلاّ حب خـير الورى الشـفـيع الماحى

ســيـــد العـامـين دنيـــا وأخـرى أشرف الخلـق فى العلا والسـماح

ســيـد الكـون من سـمـاء وأرض ســره بين غـــاية وافــتـــتــاح

زهرة الغيب مظهـر الوحى معنى النـ ـور كـنه المشكـاة والمصـــبـــاح

آية المكرمات قطب المعالى　　مصطفى، الله من قريش البطاح

أوّل الأنبياء تخصيص زلفى　　آخر المرسلين بعث نجاح

صفوة الخلق أرفع الرسل قدراً　　وسراج الهدى وشمس الفلاح

من لميلاده بمكة ضاءت　　بين قرى قيصر جميع الضواحى

وخبت نار فارس وتداعت　　من مشيد الإيوان كل النواحى

من رقى فى السماء سبعًا طباقًا　　ورأى آى ربه فى اتضاح

ودنا منه قاب قوسين قربًا　　ظافراً فى العلى بكل اقتراح

من هدى الخلق بين حمر وسودٍ　　وجلا ليل غيهم بالصباح

من يجير غدا يوم يجزى　　كل عاص وطائع باجتراح

من إلى حوضه وظل لواه　　يلجأ الناس بين ظامٍ وضاحى

أحمد المجتبى حبيبًا وإنى　　فوق عز الحبيب مرمى طماح

فى أناجيله المسيح تلاه　　باسمه والكليم فى الألواح

ولكم حجةٍ وبرهان صدقٍ　　فى سماعٍ أتى بها والتماح

إنّ فى النجم والنبات لآيًا　　بهرت والجماد والأرواح

معجزات فتن المدارك وصفًا　　وحسابًا كالزهر أو كالصباح

يا رواة القريض والشعر عجزاً　　ما عسى تدركون بالأمداح

إنما حسبنا الصلاة عليه　　وهى للفوز آية استفتاح

يا الهى بحق أحمد عفواً　　عن ذنوبٍ جنيتهن قباح

وأدم دولة الخليفة موسى ... ذى المعالى المبينة الأوضاح

مفخر الملك مستقر المزايا ... مظهر اللطف ذو التقى والصلاح

ناصر الحق خاذل الجور عدلا ... ملجأ الخائفين بحر السماح

يتلقى الندى بوجه حَيِىٍّ ... ويلاقى العدا ببأس صفاح

وله المكرمات إرثًا وكسبا ... حاز حمدا بها معلى القداح

من عُلاً باذخٍ وفخرٍ صميم ... وكمال بحتٍ ومجدٍ صراح

وأحاديث فى المعالى حسانٍ ... رويت عنه فى العلى الصحاح

عاقد صفقة العلا كل حين ... فائز فيه سعيه بالرباح

للندى والهدى يروح ويغدو ... أى مغدى إلى العلا ومراح

ملك تشرق الأسرة منه ... فى سماء السرير نور صباح

وإذا ما علا بعالى العوالى ... صهوة الجُرْد فهو ليث الكفاح

لبس الدهر منه حلة حسن ... وثنى للسرور عطف مراح

وعلا عاتق الخلافة منه ... طرار فخر سَبَى النهى بالتماح

ورث الملك شامخًا عن سراةٍ ... شيدوا ركنه بأيدى الصفاح

من بنى القاسم الذى تحلوا ... بالمعالى واستأثروا بالفلاح

فرعوا هضبة الخلافة مجدًا ... رفعوا سقفه على الأرماح

نشروا راية المفاخر حمدًا ... خافق النور بالربا والبطاح

يا إماما بذلك الملك جلالاً ... وجمالاً فديت بالأرواح

أنت شمس الكمال دمت عليًّا في اغتباق من المنى واصطباح
وبنوك الأعلون أنجم سعدٍ زاهرات بنورك الوضاح
وأبو تاشَفين بدر منير زانه الله بالخلال الصباح
أكمل العالمين خلقًا وخُلقًا أشرف الناس في الندى والكفاح
وبكم زينت سماء المعالي واهتدى الناس في الدجى والصباح

قلت: قوله:

أكمل العامين خلقًا وخلقًا أشرف الناس في الندى والكفاح

لا يخلو من قلة تحفظ، ومثل هذا في الحقيقة إنما يطلق على رسول الله، وإن كان المتكلم أراد أهل عصره.

وكان السلطان أبو حمو[1] موسى بن يوسف الممدوح في هذه القصيدة يحتفل لليلة مولد رسول الله ﷺ غاية الاحتفال، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله يعتنون بذلك، ولا يقع منهم فيه إغفال؛ وقد تقدم أنَّ العَزَفِيّ صاحب سبتة هو الذي سن ذلك في بلاد المغرب، وأتى بزلفى تُدنيه إلى الله وتقرب؛ واقتفى الناس سننه، وتقلدوا مننه؛ تعظيمًا للجناب الذي وجب له السمو والعلو، على أنَّ بعضهم قد خرج في ذلك إلى حدّ الإسراف والغلو؛ وكل يعمل على شاكلته.

ومن جملة احتفال السلطان أبي حمو المذكور[2] ما قاله صاحب راح الأرواح: «إنّه كان يقيم ليلة الميلاد النبوي، على صاحبه الصلاة والسلام، بمشورة من تلمسان المحروسة، مدعاةً حفيلة، يحشر فيها الناس خاصة

---

(١) انظر في ذلك: المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٥١٣.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٥١٣.

وعامة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابى مبثوثة؛ وبسط موشاة، ووسائد بالذهب مغشاة؛ وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهالات؛ ومباخر صفر منصوبة كالقباب، يخالها المبصر من تبر [مذاب][1]؛ ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة؛ تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر، ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر؛ رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال؛ وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكفرات ترغب فى الإقلاع عن الآثام؛ يخرجون فيها من فن إلى فن، ومن إلى فن، ومن أسلوب إلى أسلوب؛ ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب؛ وبالقرب من السلطان، رضوان الله عليه، خزانة [المنجانة وقد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب مرتجة على عدد ساعات][2] الليل الزمانية؛ فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب من أبوابها؛ وبرزت منه جارية صورت فى أحسن صورة، فى يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة؛ فتضعها بين يدى السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة؛ هكذا حالهم الى انبلاج عمود الصباح، ونداء المنادى حى على الفلاح».

انتهى كلام صاحب راح الأرواح.

وقال[3] فى نظم الدرر والعقيان فى هذا المعنى ما نصه[4]:

---

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن نفح الطيب.

(٢) ما بين الحاصرتين تكملة عن نفح الطيب.

(٣) أى التنسى المذكور صاحب راح الأرواح.

(٤) انظر فى ذلك: المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٥١٤.

«وكان يعنى السلطان أبا حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى ﷺ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم، يقيم مدعاة، يحشر لها الأشراف والسوقة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابى مبثوثة، وشمع كالأسطوانات، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون، وبأيديهم مباخر ومرشات، ينال كل منهم بحظه، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الأيكة صعدا، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الله الزمانية، يصاقب طرفيها بابان كبيران وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره من الفلك، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج، فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفى كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبواه فهنا يفتح باب الساعة الذهبية وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء، بيمينها إضبارة فيها اسم ساعتها منظومة ويسراها موضوعة على فيها، كالمبايعة بالخلافة، والمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد ﷺ ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا والرياض نورا؛ قد اشتملت من أنواع محاسن الطعام على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين، وتلذ بسماعها الأذن، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغرثان؛ والسلطان لم يفاق مجلسه الذى ابتدأ جلوسه فيه وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح.

على هذا الأسلوب تمضى ليلة مولد المصطفى ﷺ فى جميع أيام دولته أعلى الله مقامه فى عليين وشكر له فى ذلك صنعه الجميل آمين.

وما من ليلة مولد مرت فى أيامه إلاّ ونظم فيها [قصيدا][1] فى مدح المصطفى ﷺ أوّل ما يبتدئ المسمع فى ذلك المحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلى فى تلك الليلة نظما».

انتهى كلام صاحب نظم الدرر والعقيان، وهو أتم مساقا من كلامه فى راح الأرواح.

أقول: ولا بد أن نذكر جملة من الطع التى أنشأها الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون كاتب السلطان أبو حمو المذكور على لسان جارية المنجانة مخاطبة بما مر من الليل وكانت تأتى بها فى يدها اليمنى كما ذكرناه فمن ذلك قوله رحمه الله فى مضى ساعتين من الليل[2]:

| | |
|---|---|
| أخليفة الرحمن والملك الذى | تعنو لعز علاه أملاك البشر |
| لله مجلسك الذى يحكى علا | بك مالكى أفق السماء لمن نظر |
| أو ما ترى فيه النجوم زواهرا | وجه الخليفة بينهن هو القمر |
| والليل منه ساعتان قد انقضت | تثنى عليك ثنا الرياض على المطر |
| لازال هذا الملك منصورا بكم | وبلغت مما ترتجى أسنى الوطر |

وقوله رحمه الله فى انقضاء ثلاثة ساعات من الليل[3]:

(١) التكملة عن نفح الطيب.

(٢) أورده المقرى فى نفح الطيب ج٦ ص ٥١٥.

(٣) نفح الطيب ج٦ ص ٥١٦.

أمـــــولاى يا بـن الملـوك الألى لهـم فى المعـــالـى سنى الـرتب

تـولـت ثـلاث مـن الـلـيـل أبــ ـقت لك الفخر فى عجـمها والعرب

فـدم حـجـــة الله فى أرضـــه تنال الـذى شـئـتـــه من أرب

وقوله رحمه الله فى مضى ست ساعات:

يا مـــاجــد وهو فـــرد تخـــالـه فى عـــســاكـــر

ست مـن الـلـيـل ولـت مـــا إن لهـــا من نظـائر

دامت لـيـــاليك حـــتى إلى المـعـــاد نواضـــر

وقوله رحمه الله فى مضى ثمان ساعات:

يـا أكــــرم الخلق ذاتـا وأشـــرف الناس أســـره

مـــرت ثـمـــان وأبـقت فى القـلـب منى حـســـره

فـــيـهن كـــان شـبـــابى أخـــا نعـــيـم ونضـــره

ولى بـهـــا الـدهر عـنى ترى لـهـــا بـعـــد كـــره

فـــالله يبـــقـــيـك مـــولى يطيل فى الـسـعـد عـمـره

وقوله رحمه الله فى مضى عشر ساعات[1]:

يا مالك الخير والخيل التى حكمت له بعـــز على الأيـام مـقـتـبـل

هذا الصـبـاح وقـد لاحت بشـائره واللـيل ودعـنا توديـع مـــرتحل

لله عـشـــرٌ من الساعـــات باهرة مـضـين لا عن قلـى منا ولا ملل

كـــذا تمر ليـالى الـعـمـــر راحلة عنا ونحن مـع الآمـال فى شـغل

(١) الأقوال الثلاثة فى نفح الطيب ج٦ ص ٥١٦.

نُمسى ونصبح فى لهو نسر به جهلا وذلك يدنينا من الأجل

والعمر يمضى ولا ندرى فوا أسفا عليه إذ مر فى الآثام والزلل

يا ليت شعرى غدا كيف الخلاص به ولم نقدم له شيئا من العمل

يا رب عفوك عما قد جنت يدى فليس لى بجزاء الذنب من قبل

يا رب وانصر أمير المسلمين أبا حمو الرضا وأنله غاية الأمل

وأبق فى العز والتمكين مدته وأعلِ دولته الغَرّا عَلَى الدول

ومن الموشحات التى خوطب بها السلطان أبو حمو رحمه الله فى مولد سنة سبع وستين وسبع مئة، قول طبيب دولته أبى عبد الله محمّد بن أبى جمعة الشهير بالتلالسى[1] رحمه الله تعالى:

لى مدمع هتان ينهل مثل الدرر

قد صير الأجفان ما إن لها من أثر

حق له يجرى دما على طول الدوام

مذ جد فى السير ناس إلى خير الأنام

وعاقنى وزرى يا صاح عن ذلك المقام

وسارت الأظعان يحدى بها فى السحر

فاستبشر الركبان بقرب نيل الوطر

يا سعده من زار قبر النبى المصطفى

محمّد المختار قطب المعالى والوفا

(١) فى سائر الأصول: «التلاليسى» والمثبت رواية المقرى فى نفح الطيب ج٧ ص ١٢٩.

في مدحه قد حار الخلق طرا وكفى
في محكم القرآن وشرحه والسير
فضله الرحمن على جميع البشر
يا حادي الركب بالله إن جئت البقيع
تحية الصب بلغ إلى الهادي الشفيع
غربت بالمغرب عن ذلك المغنى الرفيع
وليس لي إمكان ينهضني للسفر
إلا من السلطان الملك المظفر
من لم يزل يسمو إلى المعالي كل حين
ذاك أبو حمو المولى أمير المسلمين
طاعته غنم نلنا بها دنيا ودين
أظهر في البلدان من عدله المشتهر
وعم بالإحسان للبدو ثم الحضر
قابله إسعاد تكل عنه الألسنهْ
قبيل عبد الواد به غدت في سلطنهْ
أيامه أعياد يا ليتها ألف سنهْ
ملك بني زيان بالمشرفي الذكر
أحياه إذا قد كان ليس له من خبر

تاهـت تلـمـــســـــان ... بمـلكـه علـى البـــــلاد
صـــــار لهـــــا شـــــان ... وســعـــدها حلـف ازدياد
قـــــد ضل إنـســـــان ... قـال بهـــا يشكو السـهـاد
ليل الـهـــوى يقـظان ... والحِب ترب الســهـر
والصـبـــر لى خـوان ... والنوم من عـينى بَرِى

وكان هذا السلطان أبـو حمو رحمـه الله يقرض الشـعر، ويحب أهله، وله رحمـه الله تأليف حسن فى السـياسـة لخص فيه سلوان المطـاع لابن ظفر وزاد عليه فوائد وأورد فـيه جملة من نظمه وأمورا جرت له مع مـعاصريه من ملوك بنى مرين وغـيرهم وصنفه برسم ولى عـهده أبى تاشفين وسـماه «نظم السلوك فى سياسة الملوك».

وكان الفقيـه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب المذكور آنفا كـثيرا ما يوجه إليه بالأمـداح ومن أحسن ما وجه له قصـيدة سينية فـائقة وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه فجعلها مقدمة بين يدى نجواه لتمهد له مثواه وتحصل له المستقـر إذا ألجأه إلى الأمر إلى المفر فلـم تساعده الأيام كما هو شـأنها فى أكثر الأعلام وهى هذه[1]:

أطلعن فى سدف الفروع شـموسها ... ضحـك الظلام لها وكـان عبـوسا
وعطف قـضـبا لـلقدود نواعـمـا ... بوئن أدواح الـنعـيم غـروســا
وعدلن عن جهر السـلام مخافة الـ ... ـواشى فـجـئن بلفظه مـهـموسـا
وسـفـرن من دهش الوداع وقـومـ ... ـهن إلى الترحل قد أناخـوا العيسا

(١) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ١٩٥.

وخلسن من خلل الحجال إشارة فتركن كل حجالها مخلوسا
لم أنسها من وحشة والحى قد زجر الحمول وآثر التغليسا
لا الملتقى من بعدها كثب ولا عوج الركاب تسأم التخييسا[1]
فوقفت وقفة هائم برحاؤه وقفت عليه وحبست تحبيسا
ودعوت عينى عاتبا وعيونها بعصا النوى قد بجست تبجيسا
نافست يا عينى در دموعهم فعرضت درا للدموع نفيسا
ما للحمى بعد الأحبة موحشا ولكم تراءى آهلا مأنوسا
ولسر به حول الخميلة نافرا عمن يحس به وكان أنيسا
ولظله المورود غمر قليبه لا يقتضى وردا ولا تعريسا
حييته فأجابنى رجع الصدى لا فرق بينهما إذا ما قيسا
ما إن يزيد على الإعادة صوته حرفا فيشفى بالمزيد نسيسا
نضب المعين وقلص الظل الذى ظلنا وقوفا عنده وجلوسا
نتواعد الرجعى ونغتنم اللقا وندير من شكوى الغرام كئوسا
فإذا سألت فلا تسأل مخبرا وإذا سمعت فلا تحس حسيسا
عهدى به والدهر يتحف بالمنى وقد اقتضت نعماه أن لا بوسا
والعيش غض الربع والدنيا قد اجـ ـتليت بمغناه على عروسا
أترى يعيد الدهر عهدا للصبا درست مغانى الأنس فيه دروسا

(١) التخييس: أن تذلل الدابة وتراض بالركوب.

[أوطان أوطار تعــوض أفــاقــهــا    من رونق البشــر البهى عبـوسا][1]

هيـهــات لا غنــى لعل ولا عــسى    فى مــثلـهــا إلاّ لآية عــيــسى

والدهر فى دست القـضاء مـدرس    فـإذا قـضى يستـأنف التـدريسا

تفتن فـى جـمـل الورى أبحـاثه    لا سيـمـا فى باب نـعم وبيـسـا

وسـجـيـة الإنسـان لـيس بناصل    من صـبغها حتـى يرى مرمـوسا

يغـتـر مـهـمـا ساعـدت آمـاله    فـإذا عـرا الخطب كـان يئـوسا

فلو انَّ نفـسـا مكنت من رشـدها    يومـا وقـدسـها الهـدى تقـديسا

لم تستـفـز رسوخـها النعـمى ولا    هلعت إذا كـشرت إليـهـا البوسـا

قل للزمـــان إليك عــن مـتــذمم    بضـمار عـز لمَ يكن ليخـيسـا[2]

فإذا اسـتحر جـلاده فأنا الذى اسـ    ـتغـشيت من سرد الـيقين لبـوسا

وإذا طغـا فـرعـونه فـأنا الذى    من ضـــره أذاه عــذت بموسى

أنا ذا أبو مـثواه من يحمـى الحمى    ليـثــا ويعلم بالزئـيـر الخيـسـا

بحمـى أبى حمو حططـت ركابى    لما اخـتـبـرت اللـيث والعِـرِّيسا

أسد الـهيجـاء إذا خطا قدمـا سطا    فـيـخلّف الأسـد الهـزبر فـريسا

بدر الهـدى يأبـى الظلال ضيـاؤه    أبدا فـيـجلو الظلمـة الحنديسا

جبل الوقـار رسا وأشـرف واعتلى    وسـمــا فطأطأ الجبـــال رءوسـا

---

(١) ما بين الحاصرتين عن نفح الطيب ج٦ ص ١٩٦.

(٢) خاس: خفر العهد.

غيث النوال إذا الغمام حلوبة ... مَثَلَتْ بأيدى الحالبين بسوسا
تلقاه يوم الأنس روضا ناعما ... وتراه بأسا فى الهيجاء بئيسا
كم غمرة جلى وكم خطب كفى ... إن أوطأ الجرد العتاق وطيسا
كم حكمة أبدى وكم قصد هدى ... للسالكين أبان منه دريسا
أعلى بنى زيان والفذ الذى ... لبس الكمال فزين الملبوسا
جمع الندى والباس والشيم العلا ... والسودد المتواتر القدموسا
والحلم ليس يباين الخلق الرضا ... والعم ليس يعارض الناموسا
والسعد يغنى حكمه عن نصبة ... تستخبر التربيع والتسديسا
كم راض صعبا لا يراض معاصيا ... كم خاض حربا لا يخاض ضروسا
بلغ التى لا فوقها متمهلا ... وعلا السها واستسفل البرجيسا
يا خير من خفقت على سحابة ... للنصر تمطر أجش بجيسا
وأجل من حملته صهوة سابح ... إن كر ضعضع كَرُّه الكردوسا
قسما بمن رفع السماء بغير ما ... عمد ورفع فوقها إدريسا
ودحا البسيطة فوق لج مزبد ... ما إن يزال على القرار حبيسا
حتى يهيب بأهله الوعد الذى ... حشر الرئيس إليه والمرءوسا
ما أنت إلاّ ذخر دهرك دمت فى الصـ ... ـون الحريز ممتعا محروسا
لو ساومته الأرض فيك بما حوت ... لرآك مستاما باب الرجل مبخوسا
حلف البرور بها ألية صادق ... ويمين من عقد اليمين غموسا

من قـــاس ذاتك بـالذوات فـــإنه ... جـهل الوزان وأخطأ التـقـيـيـسـا

لا تسـتـوى الأعيـان فـضل مـزية ... وطبــيـعــة فطر الإله وســـوسـا

لعناية التـخـصـيص سـر غـامض ... من قـبل ذرء الخلق خص نفـوسـا

من أنكر الـفـضل الذى أوتيـتـه ... جـحد العيـان وأنكر المحـسوسـا

من دان بالإخـلاص فيك فـعقـده ... لا يقـبل الـتـمـويه والتلبـيـسـا

والمنتـمى العلوى عيـصك لم تكن ... لتـرى دخـيـلا فى بنيـه دسيـسـا

بيت البـتول ومنتمى الـشرف الذى ... تحـمى الملائك دوحـه المغـروسـا

أمـا سـياسـتك التى أحـكمتـهـا ... فـرمـيت بالتـقصـيـر أسطاليـسـا

فَلَوَ ان كسرى الفرس أبصر بعضها ... ما كـان يطمع أن يعـد سئـوسا[1]

لو سار عدلك فى السنين لما اشتكت ... بخـسا ولم يك بعـضـهن كبـيـسـا

ولو الجـوارى الخنس انتسبت إلى ... أقـوام عـزك مـا خنسن خنوسـا

قدت الصعـاب فكل صعب سامح ... لك بالقـيـاد وكان قـبل شـموسـا

تلقى الليـوث وللـقتـام غـمـامـة ... قدح الصـفيح ومـيضهـا المقبـوسا

وكــــأنهـــا تحت الـدروع أراقم ... ينظرن من خلـل المغافـر شـوسـا

مـا لابن مامـة فى القديم وحـاتم ... ضـرب الزمـان بجودهم نـاقوسـا

من جـاء منهم مـثل جودك كلمـا ... حـسبـوا المكارم كـسوة أو كـيسـا

أنت الذى أفـتك الـسـفـين وأهله ... إذ أوسعت سبل الخـلاص طموسا

---

(١) يعد سئوسا، أى ذا سياسة.

أنت الذى أمددت ثغر الله بالصدقات تبلس كرة إبليسا

وأعنت أندلس بكل سبيكة موسومة لا تعرف التدليسا

وشحنته بالبر فى سبل الرضا والبر قارب قاعها القاموسا

إن لم تجر بها الخميس فطالما جهزت فيها النوال خميسا

وملأت أيديهم وقد كادت على حكم القضاء تشابه التفليسا

صدقت للآمال صنعة جابر وكفيتها التشميع والتشميسا

والحل والتقطير والتصعيد والتـ ـخمير والتصويل والتكليسا[1]

فسبكت من آمالها مالا ومن أوراقها ورقا وكن طروسا

بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا وزنا ولا لونا ولا ملموسا

تدبير من قلب السطور سبائكا منها ومن طبع الحروف فلوسا

ونحوت نحو الفضل تعضد منه بالـمَسْموع ما ألفيت منه مقيسا

وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا تغنى العديم وتطلق المحبوسا

ونشرت راية عزهم من بعدما دال الزمان فسامها تنكيسا

أحكمت حيلة برئهم بلطافة قد أعجزت فى الطب جالينوسا

وفللت من حدّ الزمان وإنه أوحى وأمضى من غرار الموسى

وشحذت حدا كان قبل مثلما ونعشت جَدًّا كان قبل تعيسا

---

(١) الحل: التحليل الكيميائى، والتقطير والتصعيد متشابهان. والتصويل: جعل الرواسب طافية وهو تال للتكليس.

لم تــرج إلاّ الله جل جـــــلالـه يقــال شــدة تكــفى وجـرح يوسى

قدمــت صبحــا فاسـتضــأت بنوره ووجــدت عند الشــدة التنفـيـســا

مـــا أنت إلاّ فـــالح مـــتـــيـــقن بالنجح تــعــمــر ممرعــا ويبـيــســا

ومـتــاجر جـعل الأريكة صـهــوة عــربيـــة والمتكا القـــربوســـا

مـا إن تبـــايع أو تشــارى واثــقـا بالــربح إلاّ المالــك القـــدوســـا

والعـــزم يفــتـــرع النجــوم بناؤه مـهمـا أقام على الـتقى تأسيسا

ومــقــام صبـرك واتكالك مــذكـر بحـــديث الـشـبـلى أو طاوســـا

ومن ارتضـــاه الله وفق ســعـــيـه فرأى العظيم من الحظوظ خسـيسا

مـا اردت بالتـحمـيص إلاّ جـدة ونضـوت من خلع الزمان لبـيســا

ولطـالما طرق الخـــســـوف أهِـلَّةً ولطالما اعتـرض الكسوف شمـوسا

ثم انجلت نســمــاتها عــن مشـرق للسـعـــد ليس بحـاذر تعنيـســا

خــذها إليك علـى النوى سـينيـة ترضى الطبـاق وتشكر التـجنيســا

إن طوولت بالدر من حـول الطلى يومـا تـشكت حظهـا الموكـــوســا

لولاك مــا أصغت لخـطبة خـاطب ولعنسـت فى بيتـــهــا تعنيـــســا

قصـــدت سليمـــان الزمان وقــاربت فى الخطو تحسب نفسـها بلقـيسـا

لى فـيك ود لـم أكـن من بعـدمـا أعطيت صـفقـة عـهده لأخـيسـا

كم لى بصــحــة عقــده من شـاهد لا يحـذر التـجـريح والتـدليسـا

يقـفـــو الشــهــادة باليـــمـين وإنّه لمؤمن من أن يعــد فـسـيـسا[1]

(١) الفسيس: الضعيف.

لا يســـتـقـــر قـــرار أفكارى إلى أن أسـتـقـر لدى عـلاك جليـسـا

وأرى تجاهلك مـستـقيم السـير للـــــقـصـد الذى أعملـته مـعكوسـا

هى دين أيامى فـــان سـمـحت به لم يـبق من شىء عـليـــه يـوسى

لا زال صنـع الله مـــجنوبـا إلى مـثواك يهـدى البـشـر والتأنـيسـا

مـتـتــابع كـتـتــابع الأيام لا يذر التـعاقب جـمعـة وخمـيسـا

فَلَوَ انصــفــتك إيالة الملـك التى رُضْت الزمـــان وكـان شـريـسـا

قـرنت بذكـرك والدعـاء لك الذى تخـتـاره التـسـبـيح والتـقـديسـا

القلب أنت لـهـا رئيس حـيـاتهـا لم تعـتبـر مهـمـا صلحت رئيسـا

قـال الحافظ أبو عـبـد الله التنسى، رحمـه الله ورضى عنه: حـذا ابن الخطيب فى هذه السينية حذو أبى تمام فى قصيدته التى أولها[1]:

أقـــشـيب ربعـــهم أراك دريســـا تقـرى ضيـوفك لوعـة ورسـيـسـا

واختلس كثيرا من ألفاظها ومعانيها. انتهى.

ووصل ابن الخطيب هذه السينية بنثر بارع يخاطب به السلطان أبا حمو المذكور، ونصه[2]:

«هذه القـصيـدة أبقى الله أيام المثـابة المولوية الموسـوية ممتـعة بالشـمل المجموع والثناء المسـموع والملك المنصور الجموع نفـثه من باح بسر هواه ولبى دعوة الـشوق العـابث بلبه وقـد ظفر بمن يهـدى خبـر جواه إلى مـحل هواه

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٢٠١.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٢٠١.

ويختلس بعـثت حيته إلى مثـير أريحيتـه وهى بالنسبة إلى ما يعـتقد من ذلك الكمال الشـاذ عن الآمال عنوان من كـتاب وذواق من أوقار ذات أقـتاب وإلاّ فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه أو يكافئ إحسانهـا إحسانه أو يستقل بوصفها يراعه أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه ولا مـكابرة بعد الاعتراف والبحر لا ينفد بالاغتراف لا سـيما وذاتكم اليوم والله يبقـيها ومن المكاره يقيهـا وفى معارج القرب من حضرة القدس يرقيها ياقوتة اخـتارها واعتبرها ثم بلاها بالتحميص فى سبيل التخصـيص واختبارها وسبيكة خلصها وسجرها، فـخلصها بسجره من الشوب، وأبرزها من لُباب الذَّوْب[1]؛ وقصرت عن هـذا الأثمان، وسر بصدق دعواه البـهرمان؛ ليفاضل بين الجـهام والصيب، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال] فـأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعـدة وعرفكم بنفسه فى حال الشدة ثم فسح لكـم بعد ذلك فى المدة لتعرفوه إذا دال الرَّخاء وهبت بعـد تلك الزعازع الريـح الرُّخاء ومـلأكم من التجـارب وأوردكم من ألطافه أعذب المشارب ونقلكم بين الزمان وإحلائه ولم يسلبكم إلاّ حقيرا عند أوليائه وأعـادكم المعاد المطهر، وألـبسكم من أثواب اختـصاصه العلم المشـهّر فأنتم اليوم بعينه العناية بالإفـصاح والكناية وقد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتـراف بالجناية فإن كـان الملك اليوم علمـا يدرس وقوانين فى قـوة الحفظ تغـرس وبضاعة بـرصد التجـارب تحرس فـأنتم مالك دار هـجرته المحسـوبة وأصمعى شعـوبه المنسوبة إلى ما حزتم من أشتات الكمـال المربية على الآمال فالبيت علوى المنتسب والملك بين المورث والمكتـسب والجود يعترف به الوجود والدين يشهـد به الركوع والسجود، والبـأس تعرفه التهـائم والنجود، والخلق يحسده الروض المجود، والشعر يغـترف من عذب نمير، ويصدق من قال بدى بأمـير وختم بأميـر وإن مملوككم حوم من بابكم على العـذب البرود، فعـاقه

(١) فى سائر الأصول: «وسـبيكة خلصها وشـحرها فخلصتـها الشحيرة من الـثوب وأبرزتها من. . .إلخ» والعبارة قلقة، والمثبت رواية نفح الطيب ج٦ ص ٢٠٢ وهو أولى.

الدهر عن الورود، واستقبل افقه ليحقق الرصد، ولكنه أخطأ القصد، ومن أخطأ الغرض أعاد، ورجا من الزمان الإسعاد، فربما خبئ نصيب، أو كان مع الخواطى سهم مصيب، وكان يؤمل صحبة ركّاب الحجار، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز، وقطعت القواطع التى لم ينلها الحساب، ومنعت الموانع التى خلص منها إلى الفتنة الانتساب ومن طلب الأيام أن تجرى على اقتراحه، وجب العمل على اطراحه، فإنما هى البحر الزاخر، الذى لا يدرك منه الآخر، والرياح متغايرة والسفينة الحائرة، فتارة يتعذر من المرسى الصرف، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف، هذا إن سالمها عطبها، وأعفى من الوقود حطبها. ولقد علم الله جل جلاله أنَّ لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب، ممن يجبر كسر القلوب، فإنه مما انعقد على كماله الإجماع، وصح فى عوالى معاليه السماع، وارتفعت فى وجود مثاله الأطماع أخلاقا هذبها الكرم الوضاح، وسجية كلف بها الكمال الفضاح، وحرصا على الذكر الجميل، وما يتنافس فيه إلاّ من سمت هممه، وكرمت ذممه، وألفت الخلد رممه، إذ الوجود سراب، وما فوق التراب تراب، ولا يبقى إلاّ عمل راق، أو ذكر بالجميل يسطر فى أوراق، حسبما قلت من قصيدة كتبتها على ظهر [مكتوب](١) موضوع أشار به من كانت له طاعة فوفت بمقترحه استطاعة:

| | |
|---|---|
| يمضى الزمان فكل فانٍ ذاهب | إلاّ جميل الذكر فهو الباقى(٢) |
| لم يبق من إيوان كسرى بعد ذا | كَ الحفل إلاّ الذكر فى الأوراق |
| هل كان للسفاح والمنصور والـ | ـمهدى من ذكر على الإطلاق |
| أو للرشيد وللأمين وصنوه | لولاه شباة يراعة الوراق |

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٢٠٣.

رجع التراب إلى التراب بما اقتضت     فى كل خلق حكمة الخلاق
إلاّ الثناء الخالد العطر الشذا     يهدى حديث مكارم الأخلاق

والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب، أن يمكنها من حسن المثاب؛ فتحظى بحلول ساحته، ثم بلثم راحته، ثم بالإصغاء، ولا مزيد للابتغاء، إلى أن ترتفع الوساطة، وتغنى عن التركيب البساطة، وينسى الأثر بالعين، ويحسن الدهر قضاء الدين، ونسأل الذى أغرى بها القريحة، ولم يجعل الباعث إلاّ المحبة الصريحة، أن يبقى تلك المثابة زينا للزمان، وذخرا مكنوفا باليمين، والأمان مظللا برحمة الرحمن بفضله وكرمه». انتهى.

ومن مقطوعاته، أى ابن الخطيب، البديعة فى مخاطبة هذا السلطان أبى حمو صاحب تلمسان، قوله يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس[1]:

لقد زار الجزيرة منك بحر     يمد فليس تعرف منه جزرا
أعدت لها بعهدك عهد موسى     سميك فهى تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كنزا     ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وقوله[2]:

وقالوا الجزيرة قد صوحت     فقلت غمام الندى تنتظر
إذا وكفت كف موسى بها     غمام يعود الجناب الخضر

ومخاطبات الوزير ابن الخطيب للسلطان أبى حمو كثيرة جدا، ولنقتصر منها على ما ذكرناه.

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٥٠٧.
(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٥٠٨.

ومن نظم ابن الخطيب رحمه الله[1]:

يا إمـــام الهــــدى وأى إمـــام أوضح الحق بعـد إخـفاء رسـمـهْ
أنت عـبـد الحليـم حلمك نرجـو فـالمسـمى له نصـيب من اسـمـهْ

وله يخاطب عـبد الواحـد بن زكريا بن أحمـد اللحيـانى أبا مالك ابن سلطان إفريقية مودعا[2]:

أبا مـــــالـك أنت نجـل الملـوك غـيـوث الـندى وليـوث النزال
ومــثلك يـرتاح للـمكرمـــات ومـا لـك بين الورى من مــثـال
عــــزيـز بأنفـــسنا أن نرى ركـــابـك مـــؤذنة بـارتحـــال
وقـد خـبرت منك خـلقا كـريمـا أناف عـلى درجـــات الكمـــال
وفـــازت لديك بســاعــات أنس كـمـا زار فى الليل طيف الخـيـال
ولـــولا تـــعـــلـــلـــنـــا أنــــنـــا نزورك فـــوق بســـاط الجـــلال
ونبلـغ فــيك الـذى نبـتـــغى وذاك علـى الله ســــــهل المنال
لما فـــــتــــرت أنفس مـن أسى ولا برحت أدمـع فى انهـــمــال
تلقـتك حـيث احـتللت السعـود وكـــان لك الله فى كل حـــال

وتوفى أبو مالك المخاطب بهذا ببلد الجريد سنة خمس وسبع مئة.

وأبدع ما وقع لابن الخطيب لاميته التى أولها:

* الحق يعلو والأباطل تسفل *

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٠.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨١.

قال ابن حجة فى شرح بديعته الذى سماه بتقديم أبى بكر ما نصه:

«ومما يشعر بالتهنئة والنصر على الأعداء براعة الاستهلال للعلامة إمام المغرب ذى الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب وهى:

الحق يعلو والأباطل تسفل  والله على أحكامه لا يسأل[1]

فإنه قال: نظمت للسلطان أسعده الله تعالى وأنا بمدينة سلا لما انفصل طالبا حقه بالأندلس، قصيدة كان صنع الله براعة استهلالها، ووجهت بها إليه إلى رندة قبل الفتح، ثم لما قدمت أنشدتها بين يديه بعد الفتح وفاء بنذرى وسميتها: «المنح الغريب فى فتح القريب» منها قوله رحمه الله[2]:

وإذا استحالت حالة وتبدلت  فالله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به  والصبر القريب موكل
والمستعد لما يؤمل ظافر  وكفاك شاهدا قيدوا وتوكلوا
أمحمد والحمد منك سجية  بحليها دون الورى تتجمل
أما سعودك فهو دون منازع  عقد بأحكام القضاء مسجل
ولك السجايا الغر والشيم التى  بغريبها يتمثل المتمقل
ولك الوقار إذا تزلزلت الربا  وهفت من الروع الهضاب المثل
عوذ كمالك ما استطعت فانه  قد تنقص الأشياء مما تكمل
تاب الزمان إليك مما قد جنى  والله يأمر بالمتاب ويقبل

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٨.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٨.

إنَّ كان ماض من زمانك قد مضى	بإساءة قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الثانى الذى	أرضاك فيما قد جناه الأول
والله قد ولاك أمر عباده	لما ارتضاك ولاية لا تعزل
وإذا تغمدك الإله بنصره	وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل
وظعنت عن أوطان ملكك راكبا	متن العباب فأى صبر يجمل؟
والبحر قد حنيت عليك ضوعه	والريح تقطع للزفير وترسل
ولك الجوارى المنشآت قَدِ اغتدت	تختال فى برد الشباب وترفل
جوفاء يحملها ومن حملت به	من يعلم الأنثى وماذا تحمل
صبحتهم غرر الجياد كأنما	سد الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغر محجل	يرمى الجياد به أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغارة	وإذا تغنى للصهيل فبلبل
جيد كما التفت الظلم فوقه	أذن مشقة وطرف أكحل

ومنها:

وخليج هنْد راق حسن صفائه	حتى يكاد يعوم فيه الصيقل
غرقت بصفحته المنال وأوشكت	تبغى النجاة فأوثقتها الأرجل
فالصرح منه ممرد والصفح منهُ مورد والشط منه مصندل
وبكل أزرق إن شكت ألحاظه	مَرَهَ العيون فبالعجاجة يكحل
متأود أعطافه فى نشوة	مما يعل من الدماء وينهل

عجبا له أن النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتل

لله موقفك الذى وثباته وثباته مثل به يتمثل

والنصل خط ومجال صحيفة والسمر تنقط والصوارم تشكل

والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الأسل المثقف تعمل

وهى طويلة وجميعها فرائد ولم أكثر منها لعلمى أن كلام لسان الدين ابن الخطيب غريب فى هذه البلاد». انتهى كلام ابن حجة رحمه الله.

ومن هذه بعد قوله «وطرف أكحل»:

فكأنما هو صورة فى هيكل من لطفه وكأنما هو هيكل

ومنها بعد قوله: «والبيض قد كسرت» البيت قوله:

لله قومك عند مشتجر القنا إذ ثوب الداعى المهيب وأقبلوا

قوم إذا لفح الهجير وجوههم حجبوا برايات الجهاد وظللوا

ومن مقطوعات ابن الخطيب قوله لما أشرف على مراكش[1]:

ماذا أحدث عن بحر سبحت به من البحار فلا إثم ولا حرج

دحاه مبتدع الأشياء مستويا ما إن به درك كلا ولا درج

حتى ما المنار الفرد لاح لنا صحت بشرى يا مطايا جاءك الفرج

قربت من عامر دارا ومنزلة والشاهد العدل هذا الطبيب والأرج

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨١.

وقال رحمه الله[1]:

كـأنا بتـامـسـنا نجـوس خـلالهـا ... وممدودها فى سـيرنـا ليس يقصـر

مراكب فى البحـر المحيط تخبطت ... ولا جـهـة تدرى والبـر يبـصـر

قـال ابن الخطيب[2]: ولمّا قـضى الله عـز وجل بالإدالة، ورجـعنا إلى أوطاننا من العدوة، واشتهـر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخـدمة، والتيه على السلطان والـدولة، والتكبـر على أعلى رتب الخـدمـة، وتطارحت على السلطان فى اسـتنجـار وعد الرحلة، ورغـبت فى تبـرئة الذمة، ونفـرت عن الأندلس بالجملة، خاطبنى يعنى أبا جعفر بن خاتمة، بعد صدر بلغ من حسن الإشارة، وبراعة الاستهلال الغاية بقوله:

«وإلى هذا سـيدى ومـحل تعظيمى وإجـلالى، أمتع الله تعـالى بطول بقائكم، وضـاعف فى العز درجات ارتقائكم، فـانه من الأمر الذى لم يغب عن رأى العقول، ولا أخـتلف فيه أرباب المعقول؛ أنكم بهـذه الجزيرة شمس أفقها، وتاج مفرقها؛ ووساطة سلكها، وطراز ملكها؛ وقلادة نحرها، وفريدة درها، وعقد جيـدها المنصوص، وكمال زينها على العـموم والمخصوص؛ ثم أنتم مدار أفلاكها، وسـر سياسة أملاكها؛ وترجمان بيانهـا، ولسان إحسانها، وطيب مـارستـانهـا، والذى عليـه إدارتهـا، وبه قوام إمـارتهـا؛ فلديه يحل المشكل، وإليـه يلتجـأ فى الأمر المعـضل، فلا غَـرْوَ أن تقيـد بكم الأسـماع والأبصار، وتحدق نحوكم الأذهان والأفكار؛ ويـزجر عنكم السانح والبارح؛

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨١.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٢٨.

ويستنبأ ما تطرف عنه العينْ وتخلج الجوارح؛ استقراء لمرامكم، واستطلاعا لطالع اعتزامكم، واستكشافا عن مرامى سهامكم؛ لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق، وظهوركم فى ملتمع بروق، واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق؛ حتى تستقر بكم الديار، ويلقى عصاه التسيار، ولها العذر فى ذلك إذ صدعها بفراقكم لم يندمل، وسرورها بلقائكم لم يكتمل؛ فلم يبر بعد جناحها المهيض، ولا جم ماؤها المغيض، ولا تميزت من داجيها لياليها البيض؛ ولا استوى نهارها، ولا تألقت أنوارها؛ ولا اشتملت نعماؤها؛ ونسيت غماؤها؛ بل هى كالناقة، والحديث العهد بالمكاره، تستشعر نفس العافية، وتتمسح منكم باليد الشافية؛ فبحنانكم عليها، وعظيم حرمتكم على من لديها؛ لا تشوبوا لها عذب المجاج بالأجاج، وتفطموها عما عودت من طيب المزاج؛ فما لدائها وحياة قربكم غير طبكم من علاج؛ وإنى ليخطر بخاطرى محبة فيكم وعناية بما يعنيكم ما نال جانبكم صانه الله بهذا الوطن من الجفاء، ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء؛ وأنَّ الوطن إحدى الحواضن الأظآر، التى يحق لها جميل الاحتفاء، وما يتعلق بكم من حرمة أولياء القرابة وأودّاء الصفاء؛ فيغلب على ظنى أنكم لحسن العهد أنجح، ويحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمح، والتى هى أعظم قيمة من فضائلكم أوهب وأسجح. وهب أنَّ الدُّرّ لا يحتاج فى الإثبات، إلى شهادة النحور واللبات؛ والياقوت غنى المكان، عن مظاهرة القلادة والتيجان، أليس أنّه أعلى للعيان، وابعد عن مكابرة البرهان، تألقها فى تاج الملك أنوشروان؛ فالشمس وإنَّ كانت أم الأنوار، وجلاء الأبصار، مهما أغمى مكنها من الأفق قيل: أليل هو أم نهار؛ وكما فى علمكم ما فارق ذوو الأرحام، وأولو الأحلام؛ موطن استقرارهم، وأماكن قرارهم، إلاّ برغمهم واضطرارهم، واستبدال دار

خيـر من دارهم؛ ومتى توازن الأندلس بالمغرب، أو يعـوض عنها إلاّ بمكة أو يثرب؟ ما تحت أديمـها أشلاء أولياء وعباد، ومـا فوقه مرابط جهاد، ومـعاقد ألوية فى سبيل الله ومـضارب أوتاد؛ ثم يُبَوِّئ ولده مبـوأً أجداده، ويجمع له بين طارفـه وتلاده، أعيـذ أنظاركم المسـددة من رأى فائل، وسـعى طويل لم يحل منه بطائل، فـحسبكم من هذا الإياب السـعيـد، والعود الحمـيد» وهى طويلة.

قال ابن الخطيب: فأجبته بقولى(١):

لُمْ فى الهـوى العـذرى أو لا تلم ... فـالعـذل لا يدخـل أسـمـاعى

شـأنك تعنيـفى وشـأنى الهـوى ... كل الهـوى فى شـأنه سـاعى

أهلا بتحفـة القادم، وريحانة المنادم، وذكرى الهوى المتقـادم؛ لا يصفر الله مـسراك، بما أسـراك؛ لقد جـبت إلى من همومى ليـلا، وجست رجـلاً وخيـلا، ووفيـت من صاع الوفـاء كيـلاً، وظننت بى الأسف على ما فـات فأعـملت الالتفات لكيـلا؛ فأقسم لو أنَّ أمـرى اليوم بيدى، أو كـانت اللمة السـوداء من عُدَدِى؛ مـا أفلت شراكى المنصـوبة لأمثـالك، حول الميـاه وبين المسالك، ولا علمت ما هنالك؛ لكنك طرقت حمى كسـعته الغارة الشعواء، وغيرت ربعه الأنواء؛ فـخمد بعد ارتجاجه، وسكت أذين دجـاجه، وتلاعبت الرياح الهوج فوق فجاجه، وطال عهده بالزمان الأول، وهل عند رسم دارس من معول؛ وحيا الله ندبا الى زيارتى ندبك، وبآدابه الحكيمة أدبك:

فكان وقـد أفـاد بك الأمـانى ... كـمن أهدى الشـفـاء إلـى العليل

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٠.

وهى شيمة بوركت من شيمة، وهبة الله قِبَلَه من لدن المشيمة، ومن مثله فى صلة رعى، وفضل سعى، وقول ووعى؟

قسما بالكواكب الزهـ ـر والزهر عاتمه
إنّما الفضل ملة ختمت بابن خاتمه

كسانى حلّة فضلة وقد ذهب زمان التجمل، وحملنى شكره وكتدى واه عن التحمل، ونظرنى بالعين الكليلة عن العيب فلا أجاد التأمل، واستطلع طلع نَثّى[1]، ووالى فى مبرك المعجزة حثى، إنّما أشكو بثى:

* ولو ترك القطا ليلا لناما *[2]

وما حال[3] شمل وتده مفروق، وقاعدته فروق، وصلوع بنى أبيه مسروق، وقلب قرحه من عضة الدهر دام، وجمرة حسرته ذات احتدام؛ هذا وقد صارت الصغرى، التى كانت الكبرى؛ لمشيب لم يدع أنّ هجم لما نجم، ثم تهلل عارضة وانسجم:

لا تجمعى هجرا علىّ وغربةً فالهجر فى تلف الغريب سريع

نظرت فإذا الجانب ناب، والنفس فريسة ظفر وناب، والمال أكيلة انتهاب، والعمر رهن ذهاب، واليد صفر من كل اكتساب، وسوق المعاد مترامية والله سريع الحساب:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان[4]

(١) النث: ما يذيعه المرء من سر.

(٢) من أمثالهم، وصدره: «ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا» يريد أن وراء إثارة القطافى فى الليل أمرًا رهيبًا».

(٣) نفح الطيب ج٦ ص ٣١.

(٤) نفح الطيب ج٦ ص ٣٢.

وهب العمر جديد، وظل الأمن مديد، ورأى الاغتباط بالوطن سديد، فما الحجة لنفسيى إذا مرت بمطارح جفوتها، وملاعب هفوتها؛ ومثاقف قناتها، ومظاهر عزاها ومناتها ولود وزناد الكون غير صلود!

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرة ‏ ‏ ‏ تركته حين يجر حبل يفرق

ثم إنَّ المرغب(١) قد ذهب، والدهر قد استرجع ما وهب، والعارض قد اشتهب؛ وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة، وأسماؤه على الجوار مخفوضة، والنية مع الله على الزهد فيما بأيدى الناس معقودة، والتوبة بفضل الله عز وجل منقودة، غير معترضة ولا منقودة، والمعاملة سامرية، ودروع الصبر سابرية، والاقتصاد قد قرت العين بصحبته، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته؛ فإذا راجعها مثلى من بعد الفراق، وقد رقى لدغتها ألف راق؛ وجمعتنى بها الحجرة، فما الذى تكون الأجرة؟ جل شانى، وإنَّ رضى الوامق وسخط الشانى؛ وإنى إلى الله مهاجر، وللعرض الأدنى هاجر، ولأظعان السرى زاجر، لنجد إن شاء الله تعالى أو حاجر؛ لكن دعانى للهوى، إلى هذا المولى المنعم هوى؛ خلعت نعلى الوجود وما خلعته، وشوقى أمرنى فأطعته، وغالب صبرى والله فما استطعته، والحال أغلب، وعسى ألا يخيب المطلب؛ فإن يسر رضاه فأمل كمل، وراحل احتمل، وحادٍ أشجى الناقة والجمل؛ وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العوائق، والتسلم بمقامى لائق:

ما بين غمضة عين وانتباهتها ‏ ‏ ‏ يصرف الأمر من حال إلى حال

وأما تفضيله هذا الوطن على غيره، ليمن طيره، وعموم خيره؛ وبركة جهاده، وعمران رباه ووهاده، بأشلاء عباده وزهاده؛ حتى لا يفضله إلاّ أحد الحرمين، فحق برئ من المين؛ لكنى للحرمين جنحت، وفى جو الشوق

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٢.

إليهما سنحت؛ فقد أفضت إلى طريق قصدى محجته، ونصرنى والمنة لله حجته؛ وقصد سيدى أسنى قصد توخاه الحمد والشكر، ومعروف عرف به النكر؛ والآمال من فضل الله بعد تمتار، والله يخلق ما يشاء ويختار؛ ودعاؤه بظهر الغيب مدد، وعدة وعدد، وبره حالى الظعن والإقامة معتمل ومعتمد، ومجال المعرفة بفضله لا يحصره أمد. والسلام. انتهى.

وقال فى الإحاطة فى ترجمة السلطان أبى سالم ابن الحسن المرينى، بعد كلام كثير، ما نصه: «فلقد كان بقية البيت، وآخر القوم دماثة وحياء، وبعدًا عن الشر، وركونا للعافية، وأنشدت على قبره الذى ووريت به جثة بالقلة من ظاهر المدينة، قصيدة أديت فيها بعض حقه، وهى:

بنى الدنيا بنى لمع السراب لدوا للموت وابنوا للخراب

انتهى المقصود منه.

ومن نظم ابن الخطيب فى الرغبة إلى الله تعالى:

إلهى بالبيت المقدس والمسعى وجمع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا

وبالموقف المشهود يا رب فى مِنًى إذا ما أسال الناس من خوفك الدمعا

وبالمصطفى والصحب عجل إقالتى وأنجح دعائى فيك يا خير من يدعى

صدعت وأنت المستغاث جنابه أقل عثرتى يا مأملى واجبر الصدعا

وقال رحمه الله عقب الإياب من الرحلة المراكشية[1]:

أفادت وجهتى بنداك مالا قضى دينى وأصلح بعض حالى

(١) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٥٠٨.

ومُـتِّـعَتِ الخـواطرُ بانشـراح وأُطرِفتِ الـنواظرُ باكـتـحـال

وأبت خـفـيف ظهـر والمطايا بجـاهك تشـتكى ثقل الرحـال

وشـانى للـمـعلم غـيـر شـانى وحـالـى بالمكارم جـد حـال

فـحب عـلاك إيمـانى وعـقـدى وشكـر نداك دينى وانـتـحـالى

كـأنْ قـد صح لله انقطـاعى بتـأمـيلى جنابك وارتحـالى

ومـا يبـقى سـوى فـعل جـمـيل وحـال الدهر لا تـبـقى بحـال

وكل بـداية فـإلى انتـهـاء وكل إقـامـة فـإلـى ارتحـال

ومن سـام الـزمـان دوام أمـرٍ فـقـد وقف الرجـاء على المحـال

وقال رحمه الله فى الضراعة إلى مولاه(١):

مـولاى إنَّ أذنبت، يـنكر أنَّ يرى منك الكـمـال ومنى النقـصـان؟

والعفـو عن سبب الذنوب مـسبب لولا الجـناية لم يـكن غـفـران

وقال سـامحه الله مما كـتب فى حيطان المدرسـة التى بناها السلطان أبو الحجاج(٢):

ألا هكـذا تبـنى المـدارس للـعلـم وتبـقى عـهود المجـد ثابتـة الرسم

ويقـصد وجـه الله بالعمل الرضـا وتجنى ثمار العـز من شجـر العزم

تفـاخر مـنى حضـرة الملك كلمـا تقدم خصم فى الفخار إلى الخصم

فأجـدى إذا ضن الغمام من الحـيا وأهدى إذا جن الظلام مـن النجم

---

(١) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٥٠٨.

(٢) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٢.

فيا ظاعنًا للعلم يطلب رحلة كفيت اعتراض البيد أو لجج اليم
ببابى حط الرحل لا تنو وجهة فقد فزت فى حال الإقامة بالغنم
فكم من شهاب فى سمائى ثاقب ومن هالة دارت على قمر تم
يفيضون من نور مبين إلى هدى ومن حكمة تجلو القلوب إلى حكم
جزى الله عنى يوسفا خير ما جزى ملوك بنى نصر عن الدين والعلم

وقال ابن الخطيب مررت يومًا مع شيخنا أبى البركات ببعض مسالك غرناطة، فأنشد من نظمه:

[غرناطة ما مثلها حضرهْ الماء والبهجة والخضرهْ

واستجارنى رحمه الله، فقلت[1]]:

سكانها قد أُسكنوا جنة فهم يلقون بها نضره

وكتب[2] رحمه الله عن سلطانه أبى عبد الله بن نصر يخاطب الضريح المقصود، والمنهل المورد، والمرعى المنتجع، والخوان الذى يكفى الغرثى، ويمرض المرضى، ويقوت الزمنى، ويتعداهم إلى أهل الجدة زعموا والغنى، قبر ولى الله سيدى أبى العباس السبتى، نفعنا الله به وجبر حالنا ببركاته النعم، ودفع عنّا النقم:

يا ولى الإله أنت جواد وقصدنا إلى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجى من علاك الحسن الصنيع
فمددنا لك الأكف نرجى عودة العز تحت شمل جميع

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٢.

(٢) نفح الطيب ج٣ ص ١٠٠.

قد جعلنا وسيلة تربك الزا | كى وزلفى إلى العليم السميع
كم غريب أسرى إليك فوافى | برضًا عاجل وخير سريع

يا ولى[1] الله الذى جعل جاهه سببا لقضاء الحاجات، ورفع الأزمات، وتصريفه باقيا بعد الملمات، وصدق نقل الحكايات ظهور الآيات؛ نفعنى الله بنيتى فى بركة تربك، وأظهر على أثر توسل بك إلى ربك؛ مزق شملى؛ وفرق بينى وبين أهلى؛ وتعدى على، وصرفت وجوه المكايد إلىَّ، حتى أخرجت من وطنى وبلدى، ومالى وولدى؛ ومحل جهادى، وحقى الذى صار لى طوعا عن آبائى وأجدادى؛ عن بيعة لم يحل عقدها الدين، ولا ثبوت جريمة تشين؛ وأنا قد قرعت باب الله بتأميلك، فالتمس لى قبوله بقبولك؛ وردّنى إلى وطنى على أفضل حال، وأظهر علىّ كرامتك التى تشد إليها ظهور الرحال؛ فقد جعلت وسيلتى إليك رسول الحق؛ إلى جميع الخلق؛ والسلام عليك أيها الولى الكريم، الذى يأمن به الخائف وينتصف الغريم، ورحمة الله. [انتهى].

وقال سامحه الله فى التورية الطبية، بالدواء المسمى بدم الأخوين، فى شأن سلطان الأندلس القائم عليهم وأخيه، وشأن ذلك الدواء النفع من الجراح[2]:

بإسماعيل ثم أخيه قيس | تأذن هَمٌّ لَيْلِى بانبلاج
دم الأخوين داوى جرح قلبى | وعالجنى وحسبك من علاج

وقال مقتبسا فى غير ذلك:

يا من بأكناف فؤادى ربع | قد ضاق بى فى حبك المتسعْ

(١) نفح الطيب ج٣ ص ١٠٠.
(٢) نفح الطيب ج٥ ص ١٤٢.

مـا فيك لـى جدوى ولا أرعـوى شح مـطاع وهـوى مـتّبع

وقال فى التورية بالطّب[1]:

إنى وإنْ كـنت ذا اعـتلال رث القـرى بيّن الـهُزَالِ

فى عـارض الـتيس لى شـفاء فكـيف فى عـارض الـغـزال

وقال يخاطب الحاجب الفقيـه الخطيب، سيدى أبا عبد الله بن مرزوق، وطغا على بيت المشارقة فى العذار[2]:

أمـا والذى تبلى لـديه السـرائر لما كنت أرضى الخسـف لولا الضرائر

غدوت لضـيم ابن الربيب فـريسة أمـا ثار من قـومى لـنصـرى ثائر

إذا التـمـس كـفى لديه جـرايتى كـأنى جـان أوبقـتـه الجـرائر

ومـا كـان ظنى أن أنال جـراية يحكم مـن جـرائها فى جـائر

مـتى جاد بـالدينار أخضـر زائفًا ودارته دارت عـليـهـا الـدوائر

وقد أخـرج التعنيت كـيس مرارتى ورقت لبلـواى النفـوس الأخـاير

تذكرت بيـتًا فى العـذار لبعـضهم له مَثَل بالحسن فى الأرض سائر:

«وما اخـضر ذاك الخـد نبتـا وإنّما لكثـرة مـا شـقت عليـه المرائر»

وجـاه ابن مـرزوق لـدى ذخـيـرة وللشـدة العظمى تعـد الـذخـائر

ولو كـان يدرى مـا دهانى لسـاءه وأنكر مـا صـارت إلـيـه المصـاير

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٢.

(٢) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٣.

وكان ابن الربيب هذا من خدام السلطان أبى سالم، وكانت جِراية ابن الخطيب وغيره ممن قدم من أعيان الأندلس على يده، فكان لا يوفى بحقهم، فاشتكى ابن الخطيب به إلى الحاجب ابن مرزوق بهذا النظم المذكور، وإلى الله ترجع الأمور.

وقال رحمه الله يخاطب أحد الشرفاء الكرام[(١)]:

أعيا اللقاء على إلاّ لمحة ... فى جملة لا تقبل التفصيلا

فجعلت باب عن يمينك نائبًا ... أهديه عند زيارتى تقبيلا

فإذا وجدتك نلت ما أملته ... أو لم أجدك فقد شفيت غليلا

وقال فى مخاطبة السلطان أبى سالم رحمه الله فى سبيل الشكر، عندما خلصه من الورطة بشفاعته التى قدمنا ذكرها:

سمى خليل الله أحييت مهجتى ... وعاجلنى منك الصريخ على بعد

فإنَّ عشت أبلغ فيك نفسى عذرها ... وإنَّ لم أعش فالله يجزيك من بعدى

قال: وقلت فى التغزل، وما أبعد عنى فى الوقت، والحمد لله[(٢)]:

أصبح الخد منك جنة عدن ... مجتلى أعين وشم أنوفِ

ظللتها من الجفون سيوف ... جنة الخلد تحت ظل السيوف

وخاطب صاحب الأشغال أبا عبد الله ابن القاسم بن أبى مدين يهنئه بنقل الخطة من رسالة[(٣)]:

---

(١) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٣.

(٢) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٢.

(٣) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٢٠٥.

تعـود الأمـانى بـعـد انصـراف ويعـتـدل الشىء بعـد انحـراف

فـإن كـان دهرك يومًـا جنى فـقـد جـاء ذا خـجل واعـتـراف

طلع البشير أبقاك الله، بقبول الخلافـة المرينية، والإمامة السنية، خصها الله بنيل الأمنيـة، على تـلك الذات التى طابت أرومـتـهـا وزكت، وتأوهت العلياء لتذكر عهدها وبكت، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث الذى تركت؛ فلولا العـذر الذى تأكـدت ضرورته، والمانع الذى ربما تقـررت لديكوم صورته؛ لكنت أوّل مـشافة بالهناء، ومصارف لهـذا الاعتناء، الوثيق البناء، فنقول والحمد لله والثناء. وهى طويلة.

وقال يخاطب السلطان أبا سالم عند انقطاعـه بضريح والده بشالة سلا، حيث مدفن ملوك بنى مرين[1]:

عن بـاب والدك الرضـا لا أبرح يأسـو الزمـان لأجل ذاك ويجـرح

ضربت خيـامى فى حماه فصـبيتى تجنى الجـميم[2] به وبهمـى تسرح

حـتى يراعى وجـهه فى وجـهـتى بعناية تشـفى الصـدور وتشـرح

أيسـوغ عن مـثواه سـيـرى خائبـا ومنابر الـدنيـا بـذكـرك تصـدح

أنا فى حـمـاه وأنت أبصـر بالذى يرضيـه منك فوزن عـقلك أرجح

فى مـثلها سـيف الحمـية ينتـضى فى مـثلهـا زنـد الحـفيظة يقـدح

وعـسى الذى بدأ الجـميل يـعيـده وعـسى الذى سـد المذاهب يفـتح

(1) المقرى: نفح الطيب ج٦ ص ٢٢.

(2) تحرفت فى سـائر الأصول إلى: «الحـميم» بالحـاء المهملة، وصوابه لدى المـقرى فى نفح الطيب ج٦ ص ٢٢. والجميم - بـالجيم المعجمة - هو النبت الكثير، أى أنهم فى بسطة من العيش.

وبما كـتب به إلى السلطان أبى سـالم من مدينة سـلا، بعد عـودته من مراكش[1].

مولاى المرجـو لإتمام الصنيعـة وصلة النعمة وإحـراز الفخـر أبقاكم الله تضرب بكم الأمثال فى البر والرضا، وعلو الهمة ورعى الوسيلة.

مقبل مـوطئ قدمكم، المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب، من الضريح المقدس بشالة، وقد حَطَّ رَحل الرجاء فى القبة المقدسة، وتيمم بالتربة الزكية، وقـعد بازاء لحد أبيكم ساعة إيابه من الوجهـة المباركة، وزيارة الربط المقصودة، والترب المعظمة، وقـد عزم ألا يبرح طوعًا من هذا الجوار الكريم، والدخيل المرعى، حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى، العزيز على أهل الأرض ثم عليكم، والتـماس شفاعتـه فى أمر سهل عليكم، لا يجر إنفـاذ مال، ولا اقتـحام خطر، إنما هو إعمـال لسان، وخط بنان، وصرف عزم، وإحراز فخر وأجر، وإطالة ذكر، وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكـم إلى المولى المقدس بلسـان المقال، مـا يحضـر مما يفتـح الله فيه، ثم يـنقل عنه لكم بلسان الحـال، ما يتلقى عنـه من الجواب. وقال لى صدر دولتكم وخالصتكم وخـالصة المولى والدكم، سيدى الخطيب، سَنَّى الله أمله، من سعـادة مقامكم وطول عـمركم: يا فلان أنت والحـمد لله ممن لا ينكر عليـه الوفاء بهذين الفـرضين، وصدر عنكـم من البشر والقـبول والإنعام ما صـدر، جزاكم الله جزاء المحسنين. وقد تقـدم تعريف مولاى بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم، حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم، والعبـد الآن يعرض عليكم الجواب، وهو أنى لما فرغت من مخاطبـته بمرأى من الملأ الكبير والجم الـغفير أكبـبت على اللحد الكريم،

---

(۱) انظر فى ذلك: السلاوى: الاستقصا ج٤ ص ٢٤.

داعيًا ومخاطبًا، وأصغيت بأذنى نحو قبره، وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله، فكأنى به يقول لى: قل لمولاك: يا ولدى، وقرة عينى، المخصوص برضاى وبرى، الذى ستر حريمى، ورد ملكى، وصان أهلى، وأكرم صنائعى، ووصل عملى، أسلّم عليك، وأسأل الله أن يرضى عنك، ويُقبل عليك؛ الدنيا دار غرور، والآخرة خير لمن اتقى، وما الناس إلا هالك وابن هالك، ولا تجد إلاّ ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة، ومثلك من ذُكّر فتذكر، وعرف فما أنكر؛ وهذا ابن الخطيب [قد][1] وقف على قبرى، وتهمم بى، وسبق الناس إلى رثائى، وأنشدنى ومجدنى، وبكانى ودعا لى، وهنأنى بمصير أمرى إليك، وعفر وجهه فى تربى، وأمّلنى لما انقطعت منى آمال الناس، فلو كنت يا ولدى حيًّا لما وسعنى أن أعمل معه إلاّ ما يليق بى، وأن أستقل فيه الكثير، وأحتقر العظيم، لكن لما عجزت عن جزائه، وكلته إليك، وأحلته يا حبيب قلبى عليك، وقد أخبرنى أنه سليب المال، كثير العيال، ضعيف الجسم، قد ظهر فى عدم نشاطه اثر السن، وأملّ أن ينقطع بجوارى، ويستتر بدخيلى وخدمتى، ويرد عليه حقه بحرمتى، ووجهى ووجوه من ضاجعنى من سلفى، ويعبد الله تحت حرمتك وحرمتى، وقد كنت تشوفت إلى استخدامه فى الحياة، حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة، وخطيبنا العظيم المزية القديم القربة، أبو عبد الله ابن مرزوق فسله يذكّرك، واستخبره يخبرك، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمى بعد الممات، إلى أن نلحق جميعًا برضوان الله ورحمته التى وسعت كل شىء، وله يا ولدى ولد نجيب يخدم ببابك، وينوب عنه فى ملازمة بيت كتّابك وقد استقر بدارك قراره، وتعين بأمرك

---

(١) التكملة عن السلاوى.

مرتبه ودثاره، فيكون الشيخ خديم الشيخ، والشاب خديم الشاب، هذه رغبتى منك، وحاجتى إليك. واعلم أن هذا الحديث لا بد أن يذكر ويتحدث به فى الدنيا، وبين أيدى الملوك والكبراء، فاعمل ما يبقى لك فخره، ويتخلد ذكره، وقد أقام مجاورًا ضريحى، تاليًا كتاب الله علىّ، منتظرًا ما يصله منك. ويقرؤه علىّ، من السعى فى خلاص ماله، والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة، فالله الله يا إبراهيم، اعمل ما يسمع عنى وعنك فيه، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال». [انتهى][1].

والعبد يا مولاى مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه، منتظر منك قضاء حاجته، ولتعلموا وتتحققوا إنى لو ارتكبت الجرائم، ورزأت الأموال، وسفكت الدماء، وأخذت حسائف الملوك الأعزة ممن وراء النهر من التتر، وخلف البحر من الروم، ووراء الصحراء من الحبشة، وأمكنهم الله منى من غير عهد، بعد أن بلغهم تذممى بهذا الدخيل، ومقامى بين القبور الكريمة، ما وسع أحدًا منهم من حيث الحياء والحشمة من الأموات والأحياء، وإيجاب الحقوق، التى لا يغفلها الكبار للكبار، إلاّ الجود الذى لا يتعقبه البخل، والعفو الذى لا تفسده المؤاخذة، فضلا عن سلطان الأندلس، أسعده الله بموالاتكم، فهو فاضل، وابن ملوك أفاضل، وحوله أكياس، ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم، لا سيما مولاى والدكم، الذى أتوسل به إليكم وإليهم، فقد يتبنى مولاى أبا الحجاج، ويشمله بكنفه، وصارخه بنفسه، وأمده بأمواله، ثم صيّر الله ملكه إليكم، وأنتم من أنتم ذاتًا وقبيلاً، فقد قرت يا مولاى عين العبد بما رأت فى هذا الوطن المراكشى، من وفور حشودكم،

---

(١) التكملة عن السلاوى.

وكثرة جنودكم، وترادف أمـوالكم وعددكم، زادكم الله من فضله، ولا شك عند عـاقل أنكم إن انحلت عـروة تأمـيلكم، وأعـرضـتم عن ذلك الوطن، استولت عليه يد عدوه، وقد علم تطارحى بين الملوك الكرام، الذين خضعت لهم التيـجان وتعلقت بثوب الملك الـصالح، والد الملوك [الكرام][1]، مولاى والدكم وشهرة حرمـة شالة معروفة حاش لله أن يضيـعها أهل الأندلس، وما ترسل إليهم قط بها إلاّ الآن، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة، وأملى منكم أن يتعين من بين أيديكم خديم، بكتاب كـريم، يتضمن الشفاعة فى رد ما أخـذ لى، ويخبر بمـثواى على قبـر والدكم، ويقرر ما لزمـكم بسبب هذا الترامى، من الضرورة المهمة، والوظيفـة الكبيرة، عليكم وعلى قبيلكم حيث كـانوا، وتطلبـون منهم عادة المكارمـة بحل هذه العـقـدة ومن المعلوم أنى لو طلبت بهذه الوسائـل من طيب مالهم ما وسعهم بالنظـر العقلى إلاّ حفظ هذا الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن، فالحيـاء والحشمة يأبيان العذر عن هذا فى كل ملة ونحلة، وإذا تم هذا الغرض، ولا شك فى إتمامه بالله، تقع صدقتكم على القبـر الكريم بى، وتعينونى لخـدمة هذا المولى وزيارته وتفقـده، ومدح النبى ﷺ ليلة المولد فى جواره، وبين يديه، وهو غرض غريب مناسب لبركم به، إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم، وأعود داعيا مـثنيا، مستدعيا للشكر والثناء من أهل المشـرق والمغـرب، وأتعـوض من ذمتى بالأنـدلس ذمة بهـذا الرباط المبارك، يرثها ذريتى وقـد ساومت فى شىء من ذلك، منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشـفاعتكم، ولو ظنـنت أنهم يتوقفـون لكم فى مثل هذا، أو يتوقع فيـه وحشة أو جفـاء، والله ما طلبته، لكنهم أسـرى وأفضل وانقطاعى أيضًـا لوالدكم مما لا يسع مجـدكم إلاّ عمل مـا يليق بكم فيـه، وهأنا أرقب

(١) التكملة عن السلاوى.

جوابكم بما لى عندكم من القبول، ويسعنى مجدكم فى الطلب، وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض، والله يطلع من مولاى على ما يليق به. والسلام.

وكتبه فى الحادى عشر من رجب عام واحد وستين وسبع مئة.

وفى مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة(١):

مولاى هأنا فى جوار أبيكا ... فابذل من البر المقدر فيكا

أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى ... والله يسمعك الذى يرضيكا

واجعل رضاه إذا نهدت كتيبة ... تهدى إليك النصر أو تهديكا

واجبر لجنبرى قلبه تنل المنى ... وتطالع الفتح المبين وشيكا

فهو الذى سن البرور بأمه ... وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا

وابعث رسولك منذرا ومحذرا ... وبما تؤمل نيله يأتيكا

قد هز عزمك كل قطر نارح ... وأخاف مملوكا به ومليكا

فإذا سموت إلى مرام شاسع ... فغضونه ثمر المنى تجنيكا

ضمنت رجال الله منك مطالبى ... لما جعلتك فى الثواب شريكا

فلئن كفيت وجوهها فى مقصدى ... ورعيتها بركاتها تكفيكا

وإذا قضيت حوائجى وأريتنى ... أملى فربك ما أردت يريكا

واشدد على قولى يدا فهو الذى ... برهانه لا يقبل التشكيكا

(١) السلاوى: الاستقصا ج٤ ص ٢٨.

لكن رأيت جناب شالة مغنما | يضفى علىّ العز فى ناديكا
وفروض حقك لا تفوت فوقتها | باق إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتنى وتكرر الوعد الذى | أبت المكارم أن يكون أفيكا
أضفى عليك الله ستر عناية | من كل محذور الطروّ يقيكا
ببقائك الدنيا تحاط وأهلها | فالله جل جلاله يبقيكا

ولمّا وصل هذا السلطان أبا سالم رحمه الله راجعه بما نصه بعد البسملة والصلاة(١):

من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين، [أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين](٢) أبى سعيد ابن ملانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، أيد الله أمره، وأعز نصره، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى، الأعز الأحظى، الأوجه الأنوه، الصدر الأحفل، المصنف البليغ، الأعرف الكمل، أبى عبد الله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى، الوزير الأرفع الأنجد، الأصيل الأكمل، المرحوم المبرور أبى محمد بن الخطيب، وصل الله عزته، ووالى نعمته.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمّد رسوله الكريم المصطفى، والرضا عن آله وصحبه أعلام الإسلام، وأئمة الرشد والهدى، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلى العزيز المنصور المستعينىّ بالنصر الأعز والفتح الأسنى.

---

(١) السلاوى ج٤ ص ٢٩، ونفح الطيب ج٦ ص ١٣.

(٢) التكملة عن السلاوى.

فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم بلوغ الأمل، ونُجْح القول والعمل، من منزلنا الأسعد، بضفة وادى ملوية يْمنه الله، وصنع الله جميل، ومنه جزيل، والحمد لله، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل، والعناية المتكفلة برعى الوسائل، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلى المولوى العلوى، جدد الله عليه ملابس غفرانه، وسقاه غيوث رحمته وحنانه، وبما أهديتم إلينا، من التقرب لدينا، بخدمة ثراه الطاهر، والاشتمال بمطارف حرمته السامية المظاهر، وإلى هذا وصل الله حظوتكم، ووالى رفعتكم، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده، المقابل بالإسعاف المستعذب ورده، فوقفنا على ما نصّه، واستوفينا ما شرحه وقصه، فآثرنا تلطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا، ورعينا أكمل الرعية حق ذلكم الجناب العزيز علينا، وفى الحين عينا لكمال مطلبكم، وتمام مأربكم، والتوجه بخطابنا فى حقكم، والاعتمال بوفقكم، خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت، وأبا زكريا بن فرقاجة، أنجدهما الله وتولاهما وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم، بعد التأكيد عليهما فيه، وشرح العمل الذى يوفيه، فكونوا على علم من ذلكم، وابسطوا له جملة آمالكم وإنا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم، وبرء اعتلالكم، والله سبحانه يصل مبرتكم، ويتولى تكرمتكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب فى الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة.

فراجعه ابن الخطيب بما نصه[1]:

مولاى خليفة الله بحق وكبير ملوك الأرض عن حجة، ومعدن الشفقة والرحمة، ببرهان وحكمة، أبقاكم الله عالى الدرجة فى المنعمين، وافر الحظ

---

(١) السلاوى ج٤ ص ٣٠. ونفح الطيب ج٦ ص ١٤.

عند جزاء المحسنين، وأراكم ثمرة بر أبيكم فى البنين، وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد، وأذاق العذاب الأليم من أراد فى مثابتكم بإلحاد.

عبدكم الذى ملكتم رقه، وآويتم غربته، وسترتم أهله وولده، وأسنيتم رزقه، وجبرتم قلبه، يقبل موطئ الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة، المستوجبة بفضل الله لموقف النصر، الفارعة هضبة العز، المعملة الخطو فى مجال السعد ومسير الحظ، ابن الخطيب من شالة التى توكّد بملككم الرضىّ احترامها، وتجدد برعيكم عهدها، واستبشر بملككم دفينها، وأشرق بحسناتكم نورها، وقد ورد على العبد الجواب المولوى، البر الرحيم، المنعم المحسن، بما يليق بالملك الأصيل، والقدر الرفيع، والهمة السامية، والعزة القعساء، من رعى الدخيل، والنصرة للذمام، والاهتزاز لبر الأب الكريم، فثاب الرجاء، وانبعث الأمل، وقوى العضد، وزار اللطف، فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة، وأعانكم على رعى ذمام الصالحين، المتوسل إليكم أولا بقبورهم ومتعبداتهم، وتراب أجدادهم، ثم بقبر مولاى ومولاكم ومولى الخلق أجمعين، الذى تسبب فى وجودكم، واختصكم بحبه، وغمركم بلطفه وحنانه، وعلمكم آداب الشريعة، وأورثكم ملك الدنيا، وهيأتكم دعوته بالاستقامة إلى ملك الآخرة، بعد طول المدى، وانفساح البقاء، وفى علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النصرة عن طائر داست أفراخه ناقة فى جوار رئيس منهم، وما انتهى إليه الامتعاض لذلك، مما أهينت فيه الأنفس، وهلكت الأموال، وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا إلى حماكم بالأهل والوالد عن حسنة تبرعتم بها، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها، ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق

عليكم، دامع العين، خافق القليب، دامى القرحة، يتغطى برذائه، ويستجير بعليائه، كأنى تراميت عليه فى الحياة أمام الذعر الذى يذهل العقل، ويحجب عن التمييز، بقصر داره، ومضجع رقاده، ما من يوم إلاّ وأجهر بعد التلاوة: يا ليعقوب يالمرين نسأل الله ألاّ يقطع عنى معروفكم، ولا يسلبنى عنايتكم، ويستعملنى ما بقيت فى خدمتكم، ويتقبل دعائى فيكم، ولحين وصول الجواب الكريم، نهضت إلى القبر المقدس، ووضعته بإزائه، وقلت: يا مولاى، يا كبير الملوك، وخليفة الله، وبركة بنى مرين، صاحب الشهرة والذكر فى المشرق والمغرب، عبدك المنقطع إليك المترامى بين يدى قبرك، المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك، ابن الخطيب، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه، من رعى وجهك، [والتقرب إلى الله برعيك][1]، والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرّك، وأنتم من أنتم من إذا صنع صنيعة كملها وإذا بدأ منة تممها، وإذا أسدى يدا أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة، وأنا تحت ذيل حرمتك، وظل دخيلك، حتى يتم أملى، ويخلص قصدى، وتحف نعمتك بى، ويطمئن إلى مأمنك قلبى.

ثم قلت للطلبة: أيّها السادة بينى وبينكم تلاوة كتاب الله منذ أيام، ومناسبة النّحلة، وأخوّة التألف بهذا الرباط المقدس، والسكنى بين أظهركم، فأمّنوا على دعائى بإخلاص من قلوبكم، واندفعت فى الدعاء والتوسل الذى نرجو أن يتقبله الله ولا يضيعه، وخاطب مولاه شاكرا لنعمته، مشيدا بصنيعته، مسرورا بقبوله، وشأنه من التعلق والتطارح شأنه، حتى يكمل القصد، ويتم الغرض، معمور الوقت بخدمة يرفعها، ودعاء يردده والله المستعان.

---

(١) التكملة لدى السلاوى ج٤ ص ٣١.

وفى يوم الخميس سابع عشر من شعبان، من العام المؤرخ، ورد كتاب فتح تلمسان، فأصدر ابن الخطيب إلى باب السلطان أبى سالم ما نصه:

مولاى فتاح الأقطار والأمصار، فائدة الزمان والأعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قدوة الأيدى والأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار، وهى طويلة انظرها فى الريحانة وبعدها قصيدة بديعة مطلعها[1]:

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى     وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان

ومن مخاطباته للحاجب ابن مرزوق[2]:

سيدى، بل مالكى، بل شافعى، ومنتشلى من الهفوة، ورافعى وعاصمى عند تجويد حروف الصنائع، ونافعى الذى بجاهه أجزلت المنازل قراى، وفضلت أولاى، والمنة لله أخراى، وأصبحت وقول الحسن[3] هِجِّيراى:

علقت بحبل من حبال محمّد     أمنت به من طارق الحدثان

تغطيت من دهرى بظل جناحه     فعينى ترى دهرى وليس يرانى

فلو تسأل الأيام ما اسمى ما درت     وأين مكانى ما عرفن مكانى

وصلت مكناسة، حرسها الله تعالى، تحت غيث حذانى حذو نداك، وسحائب لولا الخصال المبرة قلت يداك، وكأن الوطن لاغتباطه بجوارى، وما رآه من انتياب زوارى، وأوعز إلى بهت يقطع الطريق، وأطلق يده على التغريق، وأشراق القوافل مع كثرة الماء بالريق، فلم يسع إلاّ المقام أياما، قعودا فى البر وقياما، واختيارا لضروب الأنس واعتياما، ورأيت بلدة معارفها أعلام، وهواؤها برد سلام، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام، فحيا الله

(١) أوردها المقرى فى نفح الطيب ج٥ ص ٣٢ بأكملها.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٢٠٤.

(٣) يعنى أبا نواس، والأبيات فى ديوانه: ٩٧.

سيدى، فلكم من فضل أفاد، وأنس أحياه وقد باد، وحفظ منه على الأيام الذخر والعتاد، كما ملّكه زمام الكمال فاقتاد، وأنا أتطارح عليه فى صلة تفقده، وموالاة يده، بأن يسهمنى فى فرض مخاطباته مهما خاطب، معتبرا من هذه الجهات، ويصحبنى من مناصحته بكئوس مسرة، يعمل فيها هاك وهات فالعز بعزه معقود، والسعد بوجوده موجود، ومنهل السرور بسرور موورود، والله عز وجل يبقيه ببقاء الدهر، ويجعل حبه وظيفة السر، وحمده وظيفة الجهر، ويحفظ على الأيام من زمنه زين الدهر، ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام والشهر بالشهر، آمين آمين. انتهى.

وقال رحمه الله:

حضرت يوما بين يدى السلطان أبى عنان فى بعض وفاداتى عليه، لغرض الرسالة، وجرى ذكر بعض أعدائه، فقلت ما اعتقده فى اطراء ذلك العدو وما عرفته من فضله، وأنكر على بعض الحاضرين، ممن لا يحطب إلاّ فى حبل السلطان فصرفت وجهى وقلت: أيدكم الله! تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة فى شىء، بل غير ذلك أحق وأولى، فإن كان السلطان غالبا عدوه كان قد غلب غير حقير وهو الأولى بفخره، وجلالة قدره وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير فيكون أشد للحسرة وأوكد للفضيحة. فوافق رحمه الله على ذلك. واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض. انتهى.

ومن نظمه رحمه الله:

مكناسة جمعت بها زمر العدا ... فمدى بريدٍ فيه ألف بريد

من واصل للصوم لا لرياضة ... أو مدمن للجوع غير مريد

فإذا سلكت طريقها متصوفا ... فابن السلوك بها على التجريد

ولمّا دخل رحمه الله مدينة آنفًا[1]، ومر منها على دار عظيمة تنسب إلى والى جبايتها «عبو» من بنى الترجمان قارون قومه، وغنى صنفه قال[2]:

قد مررنا بدار «عبو» الوالى | وهى ثكلى تشكو صروف الليالى
أقصدت ربها الحوادث لما | رشقته بصائبات نبال
كان بالأمس واليا مستطيلا | وهو اليوم ما له من وال

ومن نظمه رحمه الله فى الشيخ ابن بطان الصنهاجى[3]:

لله درك يا بن بطان فما | لشهير جودك فى البسيطة جاحد
إن كان فى الدنيا كريم واحد | يزن الجميع فأنت ذاك الواحد
أجريت فضلك جعفرا يحيا به | ما كان من مجد فذكرك خالد
فالقوم منك تجمعوا فى مُفرد | ولد كما شاء العلاء ووالد
وهى الليالى لا تزال صروفها | يشقى بموقعها الكريم الماجد
وبمستعين الله يصلح منك ما | قد كان أفسد الزمان الفاسد

وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث[4]:

زحفت إلىَّ ركائب البرغوث | نم الظلام بركبها المحثوث
بالحبة السوداء قابل مقدمى | لله أى قرى أعد خبيث

(١) فى المطبوع: «آنفى» والمثبت لدى المقرى فى نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٣. وآنفًا: هى الدار البيضاء الحديثة فى المغرب.
(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٤.
(٣) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٤.
(٤) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٤.

كسحت بهن ذباب سرح تجلدى ليلا فحبل الصبر جد رثيث

إن صابرت نفسى أذاه تعبّدت أو صحت منه أنفت من تحنيثى

جيشان من ليل وبرغوث فهل جيش الصباح لصرختى بمغيث

ومن نظمه رحمه الله فى عثمان بن يحيى بن عمر بن روح[1]:

أسميّ ذى النورين وجهك فى الوغى شمس الضحى حلت بليث عرين

إن تفخر بمرين أرض العدوة الـ ـقصوى فإنك أنت فخر مرين

وقال يخاطب الوالى محمد بن حسون بن أبى العلاء، وصدر بها رسالة[2]:

لم يبق لى جود الولاية حاجة فى الأمن أو فى الجاه أو فى المال

بعد اللقاء أو لو الفضائل بغيتى وأريت هذا القصد شرط كمال

أجملته وتشوفت لبيانه همم فكنت مفسر الإجمال

وخصصت بالإلغاء غيرك غيرة وجعلت ذكرك شاهد الأعمال

أنسيت يا بن العلا قشب الملا وتركت أهل الأرض فى أسمال

إن دوّن الفضلاء فضلا معلما فلقد أتيت عليه بالإكمال

تثنى عليك رعية آمالها فى أن تفور يداك بالآمال

أرعيتها هملا فلم يطرق لها بمنيع سورك طارق الإهمال

من كنت واليه تولته العلا ومن اطّرحت فما له من والى

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٥.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٥.

وقال رحمه الله عند وقوفه على مراكش، واعتباره بما صار إليه أمرها[1]:

| | |
|---|---|
| بلد قد غزاه صرف الليالى | وأباح المصون منه مبيح |
| فالذى خر من بناه قتيل | والذى خر منه بعض جريح |
| وكأن الذى يزور طبيب | قد تأتّى له بها التشريح |
| أعجبت منه أربع ورسوم | كان قدما بها اللسان الفصيح |
| كم معان غابت بتلك المغانى | وجمال أخفاه ذاك الضريح |
| وملوك تعبدوا الدهر لما | أصبح الدهر وهو عبد صريح |
| دوخوا نازح البسيط حتى | قال ما شاء ذابل وصفيح |
| حيث شبت لهم من البأس نار | ثم هبت لهم من النصر ريح |
| أثر يندب المؤثر لما | طال بعد الدو منه النزوح |
| ساكن الدار روحها كيف يبقى | جسد بعد ما تولى الروح |

وقال يخاطب عميد مراكش المتميز بالرأى والسياسة والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافى عن مال الجباية، عامر لن محمد بن على بن الهنتاتى:

| | |
|---|---|
| تقول لى الأظعان والشوق فى الحشى | له الحكم يمضى بين ناه وآمر |
| إذا جبل التوحيد أصبحت فارعا | فخيم قرير العين فى دار عامر |
| وزر تربة المعلوم إن مزارها | هو الحج يفضى نحوه كل ضامر |

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٨٥.

ستلقى بمثوى عامر بن محمد ثغور الأمانى من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهة ولله ما تلقاه من يمن طائر
وتستعمل الأمثال فى الدهر منكما بخير مزور أو بأغبط زائر

أقول: عامر بن محمد هذا هو قريع هنتاتة وكانت له مع أبى الحسن المَرينى فى الوفاء أحاديث صححت عند أبى عنان وغيره متاته، ولم يزل فى رياسته مدة أبى عنان ومن بعده من ملوك بنى مَرين إلى زمن أبى فارس عبد العزيز ابن أبى الحسن فنازله بجنوده، وحاصره بمعتقله حتى استولى عليه وقتله.

وقد ساق أمره ابن خلدون واستوفاه، ومنعنى من الإتيان به ما حصل من التطويل فى هذه الترجمة، وقد أشار إليه ابن الأحمر فى «نثير فرائد الجمان» عند ما ذكر الشريف الشبوكى ونصه:

«صاحبنا الفقيه محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشوكى، رأيته وصحبته، ونسبته حسبما نقلته من خطه على متن كتاب، وأخبرنى هو به وسمعته أيضًا بفاس من بعض الناس وهو محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمران بن عبد الرحيم ابن نوح بن شعيب بن على بن أبى محمد بن حيان بن فضل بن طاهر بن مطهر بن حمود بن زياد بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، ويعرف بالشبوكى. وشبوكة: قرية بينها وبين مدينة فاس ثلاثة أميال؛ واخبرنى أنَّ جده عبد الرحيم أتى من المشرق إلى المغرب، واستوطن بشبوكة وهو شريف ويوسف أبوه كان رحمه الله جميل الوجه جدا شاعرا مجيدا فقيها وبرز عدلا فى سماط شهود فاس واستخدمه أمير المؤمنين المتوكل

على الله أبو عنان المرينى شاهداً فى دار صناعته، وأحمد والد يوسف كان فقيها صوفيا، ومحمّد والد أحمد كان فقيها صالحا، ويوسف والد محمّد كان فقيها عالما صالحا مكاشفا مجاب الدعوة، من أهل الطبقة العليا فى الصلاح، وأبو عبد الله كتب الوثيقة بشهود فاس.

## حاله أكرمه الله:

هو فارس القريض، وحامل لوائه الطويل العريض، وله وجه وسيم، وحياء جسيم، وسمو همته لم يبلغ إنسان، ولم يسمع بمثلها فى سالف الأزمان، ويؤثر عزة نفسه على هواه، ويختار مهيع السمو على ما سواه، وأنشدنى لنفسه يمدح أمير المؤمنين أبا فارس عبد العزيز المرينى بعد قتل لوزيره المتغلب على أمره، عمر بن عبد الله بن على اليابانى وحرضه على قتال الشيخ أبى ثابت عامر بن محمّد بن على الهنتاتى صاحب جبل هنتاتة، من حوز مراكش حين خرج عليه به، بالسلطان المعتمد على الله أبى الفضل محمّد بن أخى السلطان عبد العزيز هذا:

أبان فى حبه ما قال عاذله ... دمع جرى فوق صفح الخد هامله

فبات من وطأة التفريق ذا وجل ... يستنجد الصبر عونا وهو خاذله

صب إذا ما بدا بالرقمتين له ... وميض برق الحمى هاجت بلابله

يبكى لمنزل أنس بان آهله ... وظاعن عنه عنه قد شطت منازله

يا حسن عصر بهم قضيته زمنا ... رقت حواشيه إذ رقت أصائله

كأن صوب دموعى بعد بعدهم ... سيب المليك إذا وافاه سائله

عبد العزيز الذى عزت بدولته ... مراتب الحق والتاحت دلائله

وأصبح الملك فى أمن وفى دعة — من الذى كان غالته غوائله
عادت بعيد لنا نضارته — فعاد يافعا واشتد كاهله
كالروض باكره طل على ظمأ — وجاده بعد ذلك الطل وابله
هو الإمام الذى من أمَّ ساحته — جادت عليه بجدواها أنامله
ومن تخلف جهلا عن إجابته — سارت إليه على علم صواهله
قل للذى عنه أقْصَته جرائمه — وعقلته عن العليا معاقله
زر حضرة الملك الميمون طالعه — تحظ بما أنت فى دنياك آمله
فطبعه الصفح والمعروف شيمته — والحلم والصون والتقوى شمائله
أبلغ جميع العدا أن سوف يشملهم — من الظُّبى كل ماضى الحد فاصله
هذا المليك أتاهم فى كتائبه — لنسخ آجالهم تنضى رواحله
بكل خرق طويل الباع متئد — مقصر عمر من تلقى مناصله
وجحفل فيه سمر الخط مشرعة — قد حجبت أنجم الشعرى قساطله
سيعلم الغمر عقبى ما جناه إذا — كلت مواضيه وانفضت كلاكله
وحاط بالجبل البحر المحيط ولا — حت فوق أرؤسهم منه جداوله
فانهض إليهم أمير المؤمنين فقد — أعطيت كل المنى فيما تحاوله
من ذا ينازل جيشا أنت قائده — يوم الكريمة أو من ذا يناضله
إلاَّ ترى المارق الرعيد حين عتا — واضمر المكر صادته حبائله
ظن الضنين بأن يسمو ويعلو فى — دنيا سمت وعلت فيها بواطله
فغادرته الصعاد الزرق منجدلا — فوق الصعيد تناديه جنادله
دنياه تضحك من أحواله عجبا — به وفى الحى تبكيه أرامله
فليهن دين الهدى من بعد مدته — أن أنت يا ذا المُحيَّا الطلق كافله

ينتصب قط فى الدنيا لواء علا إلاّ ومن آل عبد الحق حامله

مولاى مولاى دم ما عشت مصطحبا علا وفخرا عزا لا تزايله

إن سار جيشك فالتأييد يقدمه النصر عاجله يقفوه آجله

انتهى كلام ابن الأحمر.

وأقارب هذا الشريف الشبوكى لم يزالوا إلى الآن ولهم مصاهرة مع ولينا الفقيه المحدث الحاج الرحال البركة، القدوة الصالح الناصح، أبى عبد الله سيدى محمّد بن الولى الصالح سيدى أبى بكر بن محمّد صاحب الدلاء[1]، أبقى الله علاهم وأعانهم على ما أولاهم.

ولنرجع إلى ابن الخطيب فنقول:

وقال رحمه الله[2] وقد شاهد بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان أبى الحسن المرينى، حيث أصابه طارق الأجل، الذى فصل الخطة، وأصمت الدعوة، ورفع المنازعة، وعاينه مرفها عن الابتذال بالسكنى، مفترشا بالحصباء، مقصوداً بالابتهال والدعاء، فلم يبرح يوم زيارة محل وفاته أن قال[3]:

يا حسنها من أربع وديار أضحت لباغى الأمن دار قرار

(١) فى متن المطبوع: «الدلا» وبهامشه: «كذا وردت هذه الكلمة فى الأصلين ولم نفهم المراد منها، ولم نعثر على مرجع آخر لهذا الكلام المنقول عن ابن الأحمر، لنعارض به هذا النص».

قلت: فى متن نفح الطيب ج٢ ص ٤٧٩: «...سيدى محمد بن أبى بكر الدلائى» وبحواشيه: نسبة إلى زاوية الدلاء، وهى زاوية أسسها أبو بكر بن محمد المجاطى، وكان لها دور كبير فى تاريخ المغرب سياسيا ودينيا وعلميا، وقد وضح هذا الدور الأستاذ محمد حجى فى كتابه: «الزاوية الدلائية» الرباط: ١٩٦٤؛ ومحمد بن أبى بكر المذكور هنا هو من أعظم شيوخها، وكان عالمًا بالتفسير والحديث والكلام (انظر الاستقصا ٦ : ٩٦ والزاوية الدلائية: ٧٦) وقد كان للمقّرى علاقة وثيقة بالزاوية الدلائية إذ أنه أقام مدة فيها ودرس الحديث على محمد بن أبى بكر»..

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٢١٧.

(٣) نفح الطيب ج٦ ص ٢١٧.

وجـبـال عـز لا تذل أنوفـهـا … إلا لعـز الواحـد القـهـار

ومـقـر توحـيـد وأس خـلافـة … آثارهـا تنبـى عن الأخـبـار

مـا كنت أحـسب أن أنهـار الندى … تجـرى بهـا جـمـلة الأنهـار

مـا كنت أحـسـب أن أنوار الحجـا … تلتـاح فـى قنن وفى أحـجـار

مَـجّت جوانبـها البـرود وإن تكن … شـبـت بهـا الأعـداء جـذوة نار

هدت بنـاها سـبـيل وفـائهـا … فكأنهـا صـرعى بغـيـر عـقـار

لمّا توعـدها على المجـد العـدا … رضـيت بعـيث النار لا بالعـار

عـمـرت بِجِلّة عـامـر وأعـزها … عـبـد العـزيز بمـرهف بتـار

فـرسا رهان أحـرزا قـصب الندى … والبـأس فى طلق وفى مـضـمـار

وَرِثَا عن الندب الكـبيـر أبيـهـمـا … مـحض الوفـاء ورفـعـة المقـدار

وكذا الـفروع تطول وهى شـبيـهة … بالأصـل فى ورق وفى أثـمـار

أزرت وجـوه الصـيـد من هنتـاتة … فى جـوها بمطالع الأقـمـار

لله أى قـبـيـلة تركـت لهـا الـنظراء دعـوى الفـخر يـوم فخـار

نصـرت أمـيـر المؤمنيـن وملكه … قـد أسلمـتـه عـزائم الأنصـار

وارت عليـا عندمـا ذهب الردى … والروع بالأسـمـاع والأبصـار

تخـاذل الجيش اللـهام وأصبح الـ … أبطـال بين تقـاعـد وفـرار

كـفـرت صنائعـه فـيـمم دارها … مـستظهـرا منهـا بعـز جـوار

وأقـام بين ظـهـورهـا لا يتـقى … وقع الردى وقـد ارتمى بشـرار

فكـأنهـا الأنصـار لما آنَسَتْ … فـيـمـا تقـدم غـربة المخـتـار

لما غـدا لحظا وهم أجـفـانه … نابت شـفـارهم عن الأشـفـار

حـتى دعـاه الله بين بـيـوتهم ... فـأجـاب ممتـثـلا لأمـر البـارى

لو كـان يمنع من قـضـاء الله مـا ... خلصـت إليـه نوافـذ الأقـدار

قـد كان يأمل أن يكافئ بعض مـا ... أولوه لولا قـاطع الأعـمـار

مـا كـان يقنـعـه لو امـتـد المدى ... إلاّ القـيـام بحـقـهـا من دار

فـيـعـيـد ذلـك الماء ذائب فـضـة ... ويعـيـد ذاك الـتـرب ذوب نضـار

حـتى تفـوز علـى النوى أوطانهـا ... من مـلكـه بحـلائـل الأوطار

حـتى يلوح على وجوه وجـوههم ... أثـر العـنايـة سـاطع الأنـوار

ويسـوغ الأمل القـصى كـرامـهـا ... من غـير مـا ثنيـا ولا استـعـصـار

ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى ... عن درهـم فـيـهـم ولا ديـنـار

أو أن يتـوج أو يقـلد هامـهـا ... ونـحـورها بـأهلـة ودرارى

حق علـى المولى ابنه إيـثـار مـا ... بذلـوه من نصـر ومـن إيثـار

فلمـثلهـا ذخـر الجـزاء ومـثله ... من لا يضـيـع صنائع الأحـرار

وهو الذى يـقـضـى الـديون وبره ... يرضـيـه فى علن وفى إسـرار

حـتى تحـج مـحلة رفـعـوا بهـا ... علـم الوفـاء لأعـين النـظار

فـيصـيـر منهـا البـيت بيتـا ثانيـا ... للـطائفـين إليـه أى بدار

تغنـى قلوب القـوم عـن هدى به ... ودمـوعـهم تكفـى لرمى جـمـار

حـييت من دار تكفـل سعـيهـا الـ ... ـمـحمـود بالزلفى وعـقـبى الدار

وضـفـت عـليك من الإله عـناية ... مـا كَـرَّ ليل فـيـك إثر نهـار

وقال رحمه الله، حين زار بخارج أغمات قبر المعتمد بالله أبى القاسم ابن عباد، أمير حمص وقرطبة والجزيرة، وما إلى ذلك الصقع الغربى، ونصه كلامه الذى رتبه فى ذلك أنه قال:

وقفت على قبر المعتمد بالله بمدينة أغمات، فى حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية، باعثها لقاء الصالحين، ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبع مئة، وهو بمقبرة أغمات، فى نشز من الأرض، قد حفت به سدرة، وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك، وعليهما هيئة التغرب، ومعاناة الخمول من بعد الملك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما، فأنشدت فى الحال[1]:

| | |
|---|---|
| قد زرت قبرك عن طوع بأغمات | رأيت ذلك من أولى المهمات |
| لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا | ويا سراج الليالى المدلهمات |
| وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه | إلى حياتى لجادت فيه أبياتى |
| أناف قبرك فى هضب يميزه | فتنتحيه حفيات التحيات |
| كرمت حيا وميتا واشتهرت علا | فأنت سلطان أحياء وأموات |
| مارئ مثلك فى ماض ومعتقدى | أن لا يرى الدهر فى حال ولا آتى |

وقال رحمه الله مخاطبا أحمد بن يوسف حفيد الولى الصالح سيدى أبى محمّد صالح النائم فى ظل صيته رحمهم الله:

| | |
|---|---|
| يا حفيد الولى يا وارث الفخـ | ـرْ الذى نال مقال وحال |
| لك يا أحمد بن يوسف جبنا | كل قفر يعنى أكف الرحال |

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٩٥.

ولمّا خرج رحمه الله من آسَفِى سار إلى منزل ينسب لأبى خدو؛ فيه رجل من بنى المنسوب إليه، اسمه يعقوب، قال فى نُفاضة الجراب، فألطف وأجزل وآنس فى الليل، وطلبنى بتذكرة تثبت عندى معرفته، فكتبت له:

نزلنا على يعقوب نجل أبى خدو ... فعرفنا الفضل الذى ما له حدّنى

وقابلنا بالبشر واحتفل القرى ... فلم يبق لحم لم ننله ولا زبد

يحق علينا أن نقوم بحقه ... ويلقاه منا البر والشكر والحمد

وقال يخاطب السلطان:

أنت للمسلمين خير عماد ... وملاذ وأى حرز حريز

لو رأى ما شرعت للخلق فيه ... عمر الفاضل ابن عبد العزيز

لجرى ملكك المبارك خيرا ... وقصى بالشفوف والتبريز

فاشكر الله ما استطعت بفعل ... وبقول مطول أو وجيز

كل ملك يرى بصحبة أهل الـ ... ـعلم قد باء بالمحل العزيز

فإذا ما ظفرت منهم بإكسيـ ... ـر ملأت البلاد من إبريز

والبرايا تبيد والملك يفنى ... أين كسرى الملوك مع أبرويز

وقال: أنشدت ابنى عبد الله وقد وصل لزيارتى من الباب السلطانى حيث جرايته ووظيفته وانجر حديثما فقد بغرناطة فى شجون الكلام:

يا بنى عبد الإله احتسابا ... عن أثاث ومنزل وعقار

كيف يأسى على خسارة جزء ... من يرى الكل فى سبيل الخسار

هدف لا تنى سهام الليالى ... عن سباق تجاهه وبدار

واحــــد طائش وثــان مــــصـــيب ليس ينجى منهـا اشـتـمال حـذار

غــير ذى الدار صـرف الهم فـيهـا فــــمنـاخ الرحـــيل ليـس بدار

وقال: أنشدته وأمرته بحفظه، والتأدب به، واللهج بحكمته:

إذا ذهبت بيـــمـــينك لا تضـــيع زمـانك فى البكاء على المصـيـبـه

ويسـراك اغـتنم فـــالقـوس ترمى ومـا تدرى أرشـقـتـــهـا قـريبـه

ومـــا بغــــريبـــة نوب الـليـــالى ولكن الـنجـــاة هى الغـــــريبـــه

وقال رحمه الله:

يأهل هذا الـقطر سـاعـــده القطر بليـت فـدلونـى لمن يرفع الأمـــر

تشـاغلت بالـدنيـا ونمت مـفـرطا وفى شغلى أو نومتى سـرق العمر

وقال رحمه الله:

مـالى أذهب نفـسى فى مطالبـهـا والنفس تأنف تهـذيبى وتهـذى بى

إذا اسـتعنت علـى دهرى بتجـربة تأبى المقـاديـر تجـريبى وتجـرى بى

وقال رحمه الله موريا حين أكل مشرف الدار القابض، أى أخذ ماله:

مـــــشـــرف دار المـلك مـــا بـــاله منتـــفخ الجـــوف شكا نــافـضـــا

فـــــقــــــيـل لى ليـس به عـلة لكـنه قـــــد أكل الـقـــــابضـــــا

وقال رحمه الله:

يا نـفس لا تصـــــغى إلى سـلوة كم أخلـف الموعـــد عـــرقـــوب

وأنـت يا قـلبـى وصـــــــاك إبـــ ـراهـيم بالحـــزن ويعـــقـــوب

قال: وقلت فى رأس الغادر بالدولة حين عرض على:

في غيـــر حـفظ الله من هـامـة     هام بهـــا الشـيطـان فى كل واد

مـا تركـت حـمـدا ولا رحـــمـة     فى فـم إنســـان ولا فى فـــؤاد

وقال رحمه الله:

يا كوكب الحسن يا معناه يا قـمره     يا روضـــه المتناهى الريع يا ثـمـره

أمــــرتـنى بـسلـو عنـك ممتنع     مـأمور حـسنك لمَّا يقض ما أمـره

وقال رحمه الله فى السعيد أبى بكر ابن السلطان أبى عنان:

أمـــيـرا كـــأن قـمـيـــر الدجى     أفـاض الضـياء على صـفـحـتيـه

تمـلأ قلـبى مـن حـــــبـــــه     غـــداة نظرت بـعـــينى إليـــه

فــــلا بسط الـدهر كـف الردى     لذاك الشـخـيـص وذاك الوجـيـه

وقال عندما انصرف عنه ابنه إلى مدينة فاس، لإقـامة رسمه من الخدمة قال: وأشجانى انصرافه لوقوع قرحه على قرح، والمستعان الله:

بان اليـوم الخـمـيـس قـرة عـينى     حـــسـبى الله أى مـــوقـف بين

لو جنى مـوقف النوى حـين حى     حـــان يـوم الوداع والله حـــينى

ضـايقنى صـروف هـذى الليـالى     وأطـالت هـمى وأولـت بـدينى

وطن نازح وشـــمل شــتـــيت     كـيف يبـقى مـــعـذب بين ذين؟

يا الهـى أدرك بلطفك ضـعـــفى     إن مـــا أشــتكيــه ليس بهـــين

قال: وخاطبت السيادة الخطيبية مع طيفور طعام:

تعلم طيفورى خلال سميه وإن كان منسوبا إلى غير بسطام
وجاء فقير الوقت لابس خرقة فليس براض غير صحبة صوام
فديتك لا ترده عنك مخيبا ودرسه يا مولاى قصة بلعام

قال: وكتبت إلى السيادة الخطيبية ووصل ولدها إلى سلا، ومنعنى عن لقائه عذر من مرض، وكان نزوله بزاوية النساك:

صدنى عن لقاء نجلك عذر يمنع الجسم عن تمام العباده
واختصرت القرى لأن حط رحلا فى محل الغنى ودار الزهاده
ولَوَ انى احتفلت لم يعن الدهـ ـر ولا نلت بعض بعض أراده
وعلى كل حالة فقصورى عادة إذ قبولك العذر عاده
لا عدمت الرضا من الله والحسـ ـنى كما نص وحيه والزيادة

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشالة، لاستنهاض عزيمته فى قضاء غرضه[1]:

برئت لله من حولى ومن حيلى إن نام عنى وَلِيِّى فهو خير ولى
أصبحت مالى من عطف أؤمله من غيره فى مهمات ولا بدل
ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع فيها جانب الأمل
من بعد ما خلصت نحوى الشفاعة ما بين الفلا والدجى والبيض والأسل
إن كنت لست بأهل للذى طمحت إليه نفسى وأهوى نحوه أملى

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٩٧.

فكيف يـلغى ولا ترعى وسـيـلتـه     دخـيل قـبر أمـيـر المسلمـين على
من بعد ما اشتهرت حالى به وسرت     بها الـركائب فى سهل وفـى جبل
والرسل تترى ولا تخـفى نتائجـها     عند التـأمـل من قـول ولا عـمل
ولا لليـلى من صـــبح أطـالعــه     كـــأن همى قـــد مـدّ الدجـنة لى
لو أننى يا بن مرزوق عـقدت يدى     وكـان محـتكمـا فى خيـرة الدول
لكان ركـبى قـد أفضى إلى فـرج     وكان حـزنى قد أوفى علـى جذل
ألمت بالعـتب لم أحذر مـواقعـه     «أنا الغريـق فما خـوفى من البلل»
ولست أجـحد ما خـولت من نعم     لكنـهـا الـنفس لا تنفـك عن أمل
ولست أيأس من وعـد وعـدت به     إنما «خلق الإنـســان من عــجل»

وقال رحمه الله يخاطب السلطان أبا الحجاج[1]:

أمـولاى إنَّ الشعـر ديوان حكمـة     يفيـد الغنى والعز والجـاه من كانا
وقد وجد المختـار فى الحفل منصتا     له وحـبـا كـعبـا عليـه وحـسـانا
وفـيـــمـا رواه الناقلون وأثبـــتـوا     بذلك ديوانا صـحـيـحـا فـديوانا
وأن عليـا قـدس الله جـــمـعــهم     وكـرمنا بـالقـرب منهم وحـيـانا
بأن أبا بـكر خليـــفـتـــه الرضـــا     وفـاروق الأدنى إليـه وعــثـمـانا
لهم فى ضروب القـول إذ هم فحوله     خطاب وشـعـر يستقـران تبـيـانا
وفـاض على أهل القـريض نوالهم     فروض روض القول سحـا وتهتانا
وأنت أحق النـاس أن تفـعـل التى     بهـا فـعل المخـتـار دينـا وإيمـانا

---
(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٩٧.

فما زلت تهدى فى البرية هديه ... وتفضى بما يرضيه سرا وإعلانا
وإن قيل قدر المرء ما هو محسن ... فصنعة نظم القول أرفعه شانا

وقال رحمه الله فى فن التورية[1]:

بنفسى حبيب فى ثناياه «بارق» ... ولكنها للواردين عذاب
إذا كان لى منه الوصل «حاجر» ... فمعى «عقيق» بالجفون مذاب

وقال[2]:

عذبت قلبى بالهوى فقيامه ... فى نار هجرك دائما وقعوده
ولقد عهدت القلب وهو موحد ... فعلام يقضى فى العذاب خلوده

وقال فى التجنيس[3]:

دعوتك للود الذى جنباته ... تداعت مبانيها وهمت بأن تهى
وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما ... تناءى أأسلو عن حياتى وأنت هى
ومن شام من جو الشبيبة بارقا ... ولم تنهه عنه النهى كيف ينتهى؟

وقال أيضًا[4]:

ناديت دمعى إذ جد الرحيل بهم ... والقلب من فرق التوديع قد وجبا
سقطت يا دمع من عينى غداة نأى ... عنى الحبيب ولم تقض الذى وجبا

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٩٨.
(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٤٩٨.
(٣) نفح الطيب ج٦ ص ٤٩٨.
(٤) نفح الطيب ج٦ ص ٤٩٨.

وقال موريا:

كتبت بدمع عينى صفح خدى    وقد منع الكرى هجر الخليل
وراب الحاضرين فقلت هذا    كتاب العين ينسب للخليل

وتذكرت بهذا قول الشيخ أبى حيان:

سبق الدمع بالمسير المطايا    إذ نوى من أحب عنى نقله
وأجاد السطور فى صفحة الخد    ولم لا يجيد وهو ابن مقله

والبيت الثانى أردت، ولكن ابن الخطيب قد قصد تورية أخرى لم يقصدها أبو حيان، وكلاهما قد أحسن فى توريته.

وقال ابن الخطيب:

ولما رأت عزمى حثيثًا على السرى    وقد رابها صبرى على موقف البين
أتت بصحاح الجوهرى دموعها    فعارضت من دمعى بمختصر العين

وقال أيضًا:

بحق ما بيننا يا ساكنى القصبهْ    ردوا على حياتى فهى مغتصبهْ
ماذا جنيتم على قلبى ببينكم    وأنتم الأهل والأحباب والعصبهْ

وقال عفا الله عنه:

مضجعى فيك عن قتادة يروى    وروى عن أبى الزناد فؤادى
وكذا النوم شاعر فيك أمسى    من دموعى يهيم فى كل وادى

وقال رحمه الله[1]:

حين ساروا عنى وقد خنقتنى عَبَرَات قد أعربت عن ولوعى
صِحتُ من ينصر الغريب فلما لم أجد ناصرا بلعت دموعى

وقال عفا الله عنه[2]:

قال لى والدموع تنهل سحبا فى عراض[3] من الخدود محول
بك ما بى فقلت مولاى عافا كَ المعافى من عبرتى ونحولى
أنا جفنى القريح يروى عن الأعمش والجفن منك عن مكحول

وقال، وقد جلس السلطان فى يوم شديد البرد للسلام[4]:

جلس المولى لتسليم الورى ولفصل البرد فى الجو احتكام
فإذا ما سألوا عن يومنا قلت هذا اليوم برد وسلام

وقال رحمه الله تعالى[5]:

بأبى بدر غزانى مستبيحا سرح صدرى
فأنا اليوم شهيد الـ حب من غزوة بدر

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٥٠١.
(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٥٠١.
(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «عراض» بالضاد المعجمة وصوابه لدى المؤلف فى نفح الطيب.
(٤) نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٠.
(٥) نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٠.

وقال[1]:

أشكوا لمبسمه الحريق وقد حمى ... عنى لماه المشتهى ورحيقه

يا ريقه حيرتنى ومطلتنى ... ما أنت إلاّ بارد يا ريقه

وقال فيمن ركب البحر وماد[2]:

ركب السفينة واستقل بأفقها ... فكأنما ركب الهلال الفرقد

وشكو إليه بميده فأجبتهم ... لا غرو أن ماد القضيب الأملد

وقال أيضًا:

يا مالكى بخلال ... تهدى إلى الفكر حيرهْ

أضرمت قلبى نارا ... يا مالك بن نويرهْ

وقال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجها إلى الأندلس لطلب حقه:

ولما حثثت السير والله حاكم ... لملكك فى الدنيا بعز وفى الأخرى

حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ... ينقل من بيضاء إلا إلى حمرا

وقال رحمه الله تعالى:

تعجلت وخط الشيب فى زمن الصبا ... لخوضى غمار الهم فى طلب المجد

فمهما رأيتم شيبة فى مفارقى ... فلا تنكروها إنها شيبة الحمد

(١) نفح الطيب ج٦ ص٥٠١.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٠.

وقال رضى الله عنه:

يا مـن تقلد لـلعـــلاء سلوكــا والفـضل أضحى نهـجـه مسلوكـا

كـاتبتنى مـتـفـضـلا فـمـلكتنى لا زلت منـك مكاتبـا مملوكـا

وقال عفا الله عنه:

أجـاد يراع الحسن خط عـذاره وأودعـه السر المصـون الذى يدرى

ولم يفـتـقـر فـيـه لختم وطابع فـمبسـمـه أغناه عن طابع السـر

وقـال فى رجل حلف وأقسم أنه ذو مـال وأمـانة، وطلب من السلطان الخدمة:

حلـفت لـهم بأنـك ذو يســار وذو ثقــة وبر فى اليــمــين

ليســتندوا إليك بحــفظ مــال فـتـأكل باليـسـار وباليـمـين

وقال فى الفخر:

مـا ضـرنى أن لم أكن مـتقـدمـا فـالسبق يعـرف آخـر المضـمـار

ولئن غـدا ربع البـلاغـة بلقـعـا فلرب كـنز فى أســاس جـدار

وقال فى مديح السلطان أبى الحجاج:

فى مصبـر قلبى من خزائن يوسف حب وعـيـر مـدائحى تمتـاره

حليت شـعـرى باسـمـه فكأنه فـى كـل قـطـر حـلـه ديـنـاره

وقال يخاطب ابنه السلطان أبا عبد الله:

قـالوا لخـدمـتـه دعـاك مـحـمّـد فكـرتهـا وزهدت فـى التنـويه

فـأجـبـتـهـم أنا والمهـيـمن كـاره فى خـدمـة المولـى مـحب فـيـه

ومن قوله فى غرناطة[1]:

أحـييك يا مـعنى الكمـال بواجب ... وأقطع فى أوصـافك الغر أوقـاتى
تقسم منك الـترب قومى وجـيرتى ... ففى الظهر أحيائى وفى البطن أمواتى

وقال فى غرض ينحو به نحو المشارقة:

رمـــوا بـالسلو حـليف الغـــرام ... وأدمـــعــه كـالحـيـــا الهـــاطل
أعــــوذ بعـــزك يـا ســيـــدى ... لذلـى من دعـــوة البـــاطل

وقال أيضا:

يا ليل طـلت ولم تجـد بتبـسم ... وأريتنـى خلق العـبـــوس النادم
هلا رحـــمت تغـــربى وتفـــرقى ... لله مـــا أقـــســاك يا بن الخـــادم

وقال فى سكين الأضاحى للسلطان أبى الحجاج رحمه الله:

لى الفضل أن شاهدتنى واختبرتنى ... على كل مصقـول الغرارين مرهف
كـفـانى فـخـرا أن ترانى قـائمـا ... بسنة إبـراهيـم فى كـف يوسـف

وقال فى مروحة سلطانية:

كأنى قـوس الشمس عند طلوعـها ... وقد قدمت من قلبهـا نسمة الفجر
وإلاّ كـمـا هبت بمـحـتـدم الوغى ... بنصـــر ولكن من بنود بنـى نصـر

وقال يخاطب شيخه ابن الجياب:

بين السـهـام وبين كـتبك نـسبـة ... فـيـهـا يصـاب من العـدو المقـتل

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٥٠٣.

وإذا أردت لهـــا زيادة نســـبــة | هذى وهذى فـى الكنانـة تجـعل
وقال يتغزل وفيه معنى غريب:
إن اللحـاظ هى السيـوف حقـيقـة | ومن اسـتـراب فـحجـتى تكفـيـه
لم يدع غمـد السيف جـفنا باطلا | إلاّ لشبــه اللحظ يغـمــد فـيـه
قيل أحسن منه قول غيره:
إنَّ العـيون النجل أمـضى مـوقعـا | من كـل هنـدى وكل يـمـــــان
فضل العـيون على السيـوف بأنها | قـتلت ولم تخـرج من الأجـفـان
وأصل ما قاله ابن الخطيب قول الآخر:
بين السـيـوف وعـينيـه مشـاركـة | من أجلهـا قيل لـلأغمـاد أجفـان
وقال ابن الخطيب أيضًا فى البراغيث[1]:
بتـنا نطارح هـم القـــحـط ليلتـنا | وأيد السـهـد والكرب البـراغيـثـا
وكـــان يحـمـــد مـا كنـا نكابده | من المشـقـة لـو أن البـرا غـيـثـا
وقال خالد البلوى صاحب الرحلة وقد استكثـر من سرقة كتاب «البرق الشامى» للعماد الأصبهانى:
خليلى إن يلف اجـتـمـاع بخـالد | فـقولا له قـولا ولن تعـدوا الحقـا
سـرقت العمـاد الأصبـهانى برقـة | وكيف ترى فى شاعر سرق البرقا؟

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٤٧٤.

وقال فى المنجانة:

تأمل فى المنجان منقطعا ... يجرى وقدره عمرا منك منتهيا

والله لو كان وادى الرمل ينجده ... ما كان كامله إلاّ وقد ذهبا

وقال:

أقول لعاذلى لما نهانى ... وقد وجد المقالة إذ جفانى

علمت بأنه مر التجنى ... وفاتك أنه حلو اللسان

وقال فى غرض صوفى:

لا تنكروا أن كنت قد أحببتكم ... أو أننى استولى على هواكم

طوعا وكرها ما ترون فإننى ... طفت الوجود فما وجدت سواكم

وقال يمدح وفيه تورية:

وإن نظرت إلى لآلاء غُرته ... يوم الهياج رأيت الشمس فى الأسد

ونسب إليه الحافظ أبو على التنسى رحمه الله، قصيدة يخرج منها أكثر من ثلاث مئة بيت، ونسبها غير التنسى إلى بعض المشارقة، فالله أعلم، وهى:

داء ثوى بفؤادى شَفَّه سقم ... لمحنتى من دواعى الهم والكمد

بأضلعى لهب تذكو شرارته ... من الضنى فى محل الروح من جسدى

يوم النوى حل فى قلبى له ألم ... وحرقتى وبلائى فيه بالرصد

توجعى من جوى شبت حرارته ... مع العنا قد رثى لى فيه ذو الحسد

أصل الهوى ملبسى وجدا به عدم ... لمهجتى من رشا بالحسن منفرد

تتبعى وجه من تزهو نضارته إذا انثنى قاتلى عمدا بلا قود

مهدى الجوى مولع بالهجر منتقم ما حيلتى قد كوى قلبى مع الكبد

لمصرعى معتد تحلو مرارته يا قومنا آخذ نحو الردى بيدى

قلبى كوى ملك فى النفس محتكم لقصتى فهو سؤلى وهو معتمدى

مروعى قمر تسبى إشارته إذا رنا ساطع الأنوار فى البلد

هد القوى حسن كالبدر مبتسم لفتنتى موهن عند النوى جلدى

مودعى النار قد شبت زيارته لما جنى مورثى وجدا مع الأبد

قلت: وعندى أنها بعيدة من نَفَس ابن الخطيب مع أن الحافظ التنسى نسبها له، وغيره لبعض المشارقة، وذكر التنسى أنه يخرج منها ثلاث مئة بيت ونيف ستون بيتا والله ولى التوفيق.

ثم وقفت بعد هذا على كراسة من بعض تآليف الصفدى بخطه، عبر فيها أنها لبعض المشارقة، وأورد القطعة مع تقديم وتأخير، فأردت أن أذكره إتماما للفائدة ونصه:

صالح بن أحمد بن عثمان صلاح الدين القواس الشاعر الخلاطى ثم البعلبكى توفى سنة ثلاث وعشرين وسبع مائة، كان رجلاً خيرا متواضعا صحب الفقراء، وسافر الكثير، وكان يعبر الرؤيا، قال الصفدى: أنشدنى من لفظه الشيخ الحافظ الذهبى قال: أنشدنى المذكور قصيدته السائرة ذات الأوزان وهى:

داء ثوى بفؤادى شفه سقم لمحنتى من دواعى الهم والكمد

بأضلعى لهب تذكو شرارته من الضنى فى محل الروح من جسدى

يوم النوى ظل النوى فى قلبى به ألم وحـرقـتى وبلائى فـيـه بالرصـد
توجـعى من جـوى شبت حـرارته مع العنا قد رثى لى فيـه ذو الحسد
أصل الهوى ملبسى وجدا به عدم لمهـجتـى من رشا بالحسن منفـرد
تتـبـعى وجـه مـن تزهو نضـارته لما جنى مـورثى وجـدا مع الأبد
هد القـوى حسن كـالبدر مـبتـسم لفـتنتى مـوهن عـند النوى جلدى
مـروعـى قـمـر تسبى إشـارته إذا رنا سـاطع الأنوار فى الـبلد
مهدى الجوى مـولع بالهجر منتقم ما حيلتى قـد كوى قلبى مع الكبد
لمصـرعـى مـعـتـد تحلـو مـرارته يا قـومنا آخـذ نحـو الردى بيـدى
قلبى كوى ملك فى النفس مـحتم لقصتى وهو سؤلى وهو مـعتمدى
مـولعى النار قـد شطـت زيارته لما انثنى قـاتـلى عـمـداً بلا قـود

قال الصفدى: قلت: هذه القصيدة تقرأ على ثلاث مئة وستين وجها.

وقال فى المشيب:

أنّى لمثلـى بالهـوى من بعـدمـا للـوخط بـالفـودين أى دبيب
لبس البـيـاض وحل ذروة منبـر منى ووالى الـوعظ فـعـل خطيب

وكتب ببعض الحيطان لما أجار بسبتة:

أقـمـنا بـرهـة ثم ارتحـلنـا كـذلك الدهر حـالا بعـد حـال
وكل بـداية فـإلى انتـهـاء وكل إقـامـة فـإلـى ارتحـال
ومن سـام الـزمـان دوام أمـر فـقـد وقف الرجـاء على المحـال

وقد قدمنا بعض هذه المقطوعات على غير هذا الوجه.

وقال مما يكتب فى طاق الماء بباب القبة:

أنا طاق تزهو بى الأيام تعبت فى بدائعى الأفهام

وتبديت للنواظر محرابًا كأن الإناء فى إمام

واقف للصلاة حتى إذا ما جئت للشراب حان منى السلام

وقال فى ذلك أيضًا:

يا صانعى لله ما أحكمته فلأنت بين العالمين رئيس

أحكمت تاجى يوم صغت رقوشه فصبت إليه مفارق ورءوس

وأقمت فى محرابه فكأنه مجلى إناء الماء فيه عروس

وكتب إليه شيخه ابن الجياب بقوله:

أيا كتابى إذا ما جئت مالقة دار المكارم من ثنى ووحدان

فلا تسلم على ربع بذى سلم بها وسلم على الربع لسلمان

فأجابه ابن الخطيب بقوله:

يا ليت شعرى هل يقضى تألفنا ويثنى الشوق عن غاياته الثانى

أو هل يحن على نفسى معذبها أو هل يرق لقلبى قلبى الشانى

وقال رحمه الله:

عد عن كيت وكيت ما عليها غير ميت

كيف ترجى حالة البقيا لمصباح وزيت

وقال رحمه الله:

والله مـــا جـــان على مـــاله أو جـــاهد من ذاد عن عـرضـــه
والناس فـي خـيـــر وفى ضـــده هم شـــهـــداء الله فى أرضـــه

وقـال رحمـه الله: ومما قلتـه من الموشـحات التـى انفرد باخـتـراعهـا الأندلسيون وطمس الآن رسمها:

رب ليـل ظفـــرت بـالبـــدر ونجـــوم الســـمـــاء لـم تدر
حـــفـظ الله ليـلـنا ورعـى
أى شـمل من الهـوى جـمـعـا
غـفل الدهر والرقـيب مـعـا
ليت نـهـــر النـهـــار لم يـجـــر حكـم الله لى علـى الفـــجـــر
علـل النفس يـا أخـا العـــرب
بحـــيث أحلـى من الضـــرب
فى هـوى من وصـــالـه أربى
كلـمـــا مـــر ذكـــر مـن تدرى قلـت يا بـرده علـى صـــدرى
صـــاح لا تهـــتـم بأمـــر غـــد
وأجـــز صـــرفـــهـــا يـدا بيـد
بيـن نهـــر وبلـبل غـــرد
وغـــصـــون تميـــد من سـكر أعلـنت يا غـــمـــام بالشـكر

يا مـــرادى ومنتـــهى أمـلى
هاتهـــا عـــسجــديـة الحلل
حلت الـشـــمس منـزل الحـــمل
ويـنود الـربـيع فـى نـشـــــر والصـــبـا عـنبـــرية النشـــر
غـــرة الصــبـح هذه وضـحت
وقـيـان الغـصـون قـد صـدحت
وكـــأن الـصـبـا إذا نفـــحت
وهفـا طيبـــهـا عن الحـصــر مــدحــة فى عــلا بـنى نصـر
هم مـلوك الـورى بلا ثـنيــــا
مـــهــدوا الـدين زينوا الـدنيـا
وحـــمـى الله منهـم العلـيـــا
بـالإمــــــام المرفع الخـطـر والغــمــــام المبـــارك القـطر
إنمـا يوسـف إمـــــام هـدى
حـــاز فـى المعلومـات كـل مـدى
قل لـدهر بمـلكه ســـعـــدا
افــتـــخـــر جـــملة علـى الدهر كـــافـــتـــخـــار الربيع بـالزهر
يا عـــمـــاد الـعـــلا والمجــد
أطلع الـعـــيـد طـالع الســعـد
ووفى الفـــتـح فـــيـــه بالوعـــد

وتجلت فيه على القصر غُرَرٌ من طلائع النصر

فتهنأ من حسنه البهج

بحياة النفوس والمهج

واستمعها ودع مقال شجى

قسما بالهوى لذى حجر ما لليل المشوق من فجر

ومن بديع موشحاته رحمه الله قوله:

كم ليوم الفراق من غصهْ في فؤاد العميدْ

نرفع الأمر فيه والقصهْ للمولى الحميدْ

رحل الركب يقطع البيدا بسفين النياق

كل وجناء تتلع الجيدا وتبذ الرفاق

حسبت ليلة اللقا عيدا فهى ذات اشتياق

صائمات لا تقبل الرخصهْ قبل فطر وعيد

فهى مذ أملته مختصهْ بجهاد جهيد

ومنها وهو آخرها:

يا إمام العلا والفخر ذا السنا المبهج

هاكها لا عدمت فى الدهر آملا يرتجى

عارضت قول بائع التمر بمقال شج

غربوك الجمال يا حفصهْ من مكان بعيد

من سجلماسة ومن قفصهْ وبلاد الجريد

ومن بديع نظمه رحمه الله فى مدح المصطفى ﷺ هذه القصيدة المشهورة وهى:

سل ما لسلمى بنار الهجر تكوينى ... وحبها فى الحشى من قبل تكوينى
وفى معناها تمنيت المنى فغدا ... تغلبى كئيبا ببلواه يناجينى
وفى قباب قبا قامت لنا بقبا ... طرازها مذهب فى حسن تزيين
لمّا انثنت فى الحلى تزهو ببهجتها ... وبالغزالة تزرى والسراحين
لمّا تفننت فى أفنان قامتها ... تفننت بفنون الصد تفنينى
ويحسب الصب يسلينى محبتها ... هيهات لو أن جم النار يصلينى
النار فى كبدى والشوق يقلينى ... والقرب ينشرنى والبعد يطوينى
وركن صبرى تخلى فى الغرام وقد ... تمكن الحب فى أى تمكين
وقد رأيت مسيرى عز مطلبه ... والطرف والظرف يبكينى ويكوينى
حالى لرفع الضم منجزم ... بالكسر عل برشف الضم تحيينى
يا صاح عج بالحمى وانزل بهم سحرًا ... وانظر لعجب أثيلاث البساتين
وفوق سفح عقيق الدمع عج لترى ... جآذر الحى بين الخرد العين
ومل على أثلاث ألبان منعطفًا ... وحى سلعا وسل عن حال مسكين
ثم أت جزعًا وجز عن حى كاظمة ... واقْرَ السلام على خير النبيين
محمّد المصطفى المختار من ظهرت ... آياته فتسلى كل محزون
من خصه الله بالقرآن معجزة ... ما نالها مرسل قد جاء بالدين
ومن شهاب بدا من نوره رجمت ... شهب الدياجى رجوما للشياطين

وفوق راحته صم الحصى نطقت والماء من كفه يزرى بجيحون
وهو الذى اختاره البارى وأرسله برا رءوفًا رحيمًا بالمساكين
إنْ سار فى الرمل لم يظهر أثر وإنْ علا الصخر كالطين
كأنَّ بالرمل ما بالصخر من جلد شوقا وبالصخر ما بالرمل من لين
وفى الصحيحين أنَّ الجذع حن له والعذق أنَّ إليه أى تأنين
وقد سمعنا بأن الطير خاطبه فى منطق مفصح من غير تلكين
والظبى والضب جاءا يشهدان بأن لا شىء أعظم من طه ويسين
فكيف أحسن مدحا فى محاسنه لكن لى قبولا منه يكفينى
أقبل الأرض إجلالا لهيبته وألثم الترب عل الوصل يحيينى
وقد أقول ابن حمدان أتى منديا بفؤاد منه محزون
يا أكرم الخلق من عرب ومن عجم وأحسن الناس من حسن وتزيين
إنى أتيتك فاقبلنى بيدى ومن لهيب لظى وسجين
وقد مدحتك فارحمنى وجد فعسى من هول يوم اللقاء والحشر تنجينى
وكن شفيعى من النيران يا أملى ولعل أحظى بأجر غير ممنون
صلى عليك إله العرش ما صدحت قُمرية فوق أفنان الرياحين
صلى عليك إله العرش ما غردت حمائم فوق أغصان البساتين
صلى عليك إله العرش ما وفدت نويقة لحمى الأطلال تبرينى
صلى عليك إله العرش ما هطلت مدامع السحب أو عين المحبين
صلى عليك إله العرش ما ضحكت مباسم الزهر فى ثغر الأفانين

وألفُ ألفِ صــــلاة لا نفــاد لـــهــا مــضروبة فــى ثمان ألف تســعــين

عليك يا خـيـــر خلق الله قــاطبــة وألف ألف ســـلام فى ثــمــــانين

وآلك الغـــر والأصــحـــاب كلهم وتابعـيــهم ليـوم الحشـر والدين

ما عطر الروض فى الأسحـار صبا وفــاح نشـر خـزامى مـنه نســرين

وما شــدا منشد صب لفــرط جوى سل ما لسلمى بنار الهــجر تكوينى

وقال رحمه الله:

لبـــسنــا فلم نبل الـزمـــان وأبلانا يتـــابع أخـــرانا على الـغى أولانا

ونغـتـــر بالآمال والعـــمــر ينقـضى فمــا كان بالرجـعى إلى الله أولانا

وماذا عسى أنَّ ينظر الدهر ما عسى فمــا انقاد للزجر الحـثيث ولا لانا

جــــزينا صنيع الله شـــر جـــزائه فلم نَرْع ما من سابق الفضل أولانا

فـــيــا رب عــــاملنا بمــا أنت أهله من العفو واجبـر صدعنا أنت مولانا

انتهى.

ولنقتصــر من نظمه على هذا القدر، فانه طويل عــريض، وإنّما أطلت النفس فى ترجـمة ابن الخطيب، رحمــه الله، علما منى بأن الذين رغـبوا فى تأليف هذا الموضوع، لهم تشوف إلى أنباء ابن الخطيب، وكلامه وجلية أحواله ليــست عندهم، وإنما يحـفظون بعض نظمــه ونثــره، ولا يدرون ابتداء أمــره وانتهاءه، وقــد حكى غير واحد أنّه رىء رحــمه الله بعد موته، فـقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى بسبب بيتين، وهما:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم　　والكون لم تفتح له أغلاق

أيروم مخلوق ثناءك بعد ما　　أثنى على أخلاقك الخلاق

وقد رأيت على هذين البيتين تخميسا لا بأس به، لأبى عبد الله بن جابر الغسانى المكناسى، رحمه الله، وهو:

يا سائر لضريح خير العالم　　ينتهى إليه مقال صب هائم

بالله ناد وقل مقالة عالم　　يا مصطفى من قبل نشأة آدم

والكون لم تفتح له إغلاق

بثناك قد شهدت ملائكة السما　　والله قد صلى عليك وسلما

يا مجتبى ومعظمًا ومكرمًا　　أيروم مخلوق ثناءك بعد ما

أثنى على أخلاقك الخلاق

انتهى.

* * *

وأولاد ابن الخطيب رحمه الله ثلاثة: عبد الله، ومحمّد، وعلى. وكلهم حدث عن أبيه وعن ابن الجياب، وعلى منهم هو صاحب السلطان أحمد المرينى الملقب بالمستنصر.

وحكى أنّه حضر معه فى بستان، سح فيه ماء المذاكرة الهتان؛ وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار، وأزمع النهار لما قدم الليل على الفرار؛ فقال المستنصر لما لآنَ جانبه، وسالت بين سرحان البستان جداوله ومذانبه:

يا فاس إِنّىَ وآيم الله ذو شغفٍ      فى كل ربع لـه معناه يسبينى

وقد أنست بقرب منك يا أملى      ونظرة فيكم بالأنس تحيينى

فأجابه على بن الخطيب بقوله العذب المصيب:

لا أوحش الله ربعا أنت زائره      يا بهجة الملك والدنيا مع الدين

يا أحمد الحمد أبقاك الإله لنا      فخر الملوك وسلطان السلاطين

وأما عبد الله فقد كتب بالعُدوتين، عن ملوك الحضرتين. وأما محمّد فقد نال حظًا من التصوف، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوف.

ولا بد أنّ نلم بوصية ابن الخطيب، رحمه الله، لأولاده المذكورين، لما فيها من الحكم والوصايا النافعة لمن عمل بها، وهى[1]:

الحمد لله الذى لا يروعه الحمام المرقوب، إذا شم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، ملهم الهدى الذى تطمئن به القلوب، وموضح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة فى قسم الوجوب، لا سيما للولى المحبوب، والولد المنسوب، القائل فى كتابه المعجز الأسلوب، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ... ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ... ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة]؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمّد رسوله أكرم من زُرّت على نوره جيوب الغيوب، وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة، فلا تقتحمه العيون ولا تصمه العيوب، والرضا عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والاقتداء الموصل للمرغوب، والعز والأمن من اللغوب.

---

(١) أوردها المقرى فى نفح الطيب بتمامها ج٧ ص ٣٩١ - ٤٠٦.

وبعد، فإنى لما علانى المشيب بغمته، وقادنى الكبر فى رمته، وادكرت الشباب بعد أمته لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت؛ وتأكد وجوب نصحى لمن لزمنى رعيه، وتعلق بسعيى سعيه، وأملت أنَّ تتعدى إلى ثمرات استقامته، وأنا رهين فوات، وفى برزخ أموات، ويأمن العثور فى الطريق التى اقتضت عثارى، إن سلك وعسى ألا يكون ذلك على آثارى: فقلت أخاطب الثلاثة الولد؛ وثمرات الخلد بعد الضراعة إلى الله فى توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم؛ وأن يمن على فيهم بحسن الخلف، والتلافى من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدى السلف؛ فهو ولىّ ذلك، والهادى إلى خير المسالك.

اعلموا هداكم من بأنواره يهتدى الضُّلاَّل، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال؛ إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها. الشمال؛ أنى مودكم وإن سالمنى الردى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا مما بدا؛ فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادى الرحيل يسمع؛ ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر، وعاجلة مقتصر، ورتيمة تعقد فى خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واعٍ ومبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدى، وتوضح لكم فى الشفقة والحنو قصدى، حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدى، فهى أربكم الذى لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رف عليكم سقفه، وكأنى بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ؛ وبنشاطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل [السام][1] من كل حدب قد نسل، والمعاد اللحد ولا تسل؛ فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم آباء عسكر مجر، وغدا شيوخ مضيعة وهجر؛ والقبور فاغرة،

(١) التكملة عن نفح الطيب ٧/ ٣٩٣ والسام - بتخفيف الميم - الموت.

[والنفوس عن المألوفات صاغرة][1]؛ والدنيا بأهلها ساخـرة، والأولى تعقبها آخرة؛ والحازم من لم يتـعظ به فى أمر، وقال: بيدى لا بيد عمـرو، فاقتنوها من وصية فى النصح قصية؛ وخـصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوها زادها إذا انتقلوا؛ وحسبى وحسبكم الله الذى لم يخلق الخلق هملا، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا؛ ولا رضى الدنيا منزلا، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا؛ ولتـلقنوا تلقينا، وتعلمـوا علمًا يقـينا؛ أنكم لن تجدوا بعـد أن أنْفَرِد بذنبى، ويفترش التراب جنبى؛ ويسح إنسكابى، وترهول عن المصلى ركابى؛ أحرص منى على سعـادة إليكم تجلب، أو غاية كمال بسـببكم ترتاد وتطلب؛ حـتى لا يكون فى الدين والدنيـا أورف منكم ظلا، ولا أشـرف محـلا، ولا أغبط نهلا وعلا؛ وأقل ما يوجب ذلك عـليكم أن تُصيخوا إلى قولى الآذان، وتتلمحوا صبح نصحى فقد بان، وسأعيد عليكم وصية لقمان:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان].

وأعيد وصية خليل الله وإسرائيله حسبما محكم تنزيله: ﴿...يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة]. والدين الذى ارتضاه واصطفاه، وأكمله ووفاه، وقرره مصطفـاه، من قبل أن يتوفاه، إذا أعمل فيه افتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهمـا مقرر، ومستمد من عقل أو نقل محرر؛

---
(١) التكملة عن نفح الطيب ج٧ ص ٣٩٣.

والعقل متقدم، وبناؤه مع رفض أخيه متهدم، فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزه عن المكان والزمان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، والذى لا يسأل عن شىء وهم يسألون، الحى العليم المدبر القدير، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، أرسل الرسل رحمة لتدعو العباد إلى النجاة من الشقاء، وتوجه الحجة فى مصيرهم إلى دار البقاء، مؤيدة بالمعجزات التى لا تتصف أنوارها بالاختفاء، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء، ثم ختم ديوانهم بنبى ملتنا المرعية للهمل، الشاهدة على الملل، فتلخصت الطاعة، وتبينت له الإمرة المطاعة، ولم يبق بعده إلاّ ارتقاب الساعة، ثم إن الله قبضه إذ كان بشرا، وترك دينه يضم من الأمة نشرا، فمن اتبعه لحق به، ومن حاد عنه تورط فى منتسبه، وكانت نجاته على قدر سببه.

روى عنه ﷺ أنه قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدى: كتاب الله وسنتى فعضوا عليهما بالنواجذ».

فاعلموا يا بنى بوصية من ناصح جاهد، ومشفق شفقة والد؛ واستشعروا حبه الذى توفرت دواعيه، وعوا مراشد هدية فيافوز واعيه، وصلوا السبب بسببه، وآمنوا بكل ما جاء به مجملا [أو مفصلا][1] على حسبه، وأوجبوا التجلة لصحبه، الذين اختارهم الله لصحبته، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته، واشملوهم بالتوقير، وفضلوا منهم أولى الفضل الشهير، وتبرءوا من العصبية التى لم يدعكم إليها داع، ولاتع التشاجر بينهم أذن واع، فهو عنوان السداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة، وأئمتها الجلة، فهم صقلة نصولهم، وفروع ناشئة على أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم، واعلموا أنى قطعت فى البحث

(١) التكملة عن نفح الطيب ج٧ ص ٣٩٥.

زمـانى، وجعلت النظر شـانى، منذ برانى الله وأنشـانى، مع نبل يعتـرف به الشانى، وإدراك يسلمـه العقل الإنسانى، فلم أجد خـابط ورق، ولا مصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلف فطام، ولا مقـتحم بحر طام، إلاّ وغايته التى يقصدها قد فضلتهـا الشريعة وسبقتها، وفرعت ثنيتـها وارتقتها، فعليكم بالتزام جادتـها السابلة، ومصاحـبة رفقتـها الكافلة، والاهتداء بأقمـارها غير الآفلة والله يقول وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وقـد علت شرائعه وراع الشكوك فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، وابذلوا دون النفـوس فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود فى النار أبد الآبدين، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعـدين، ومتاع الحـياة الدنيا أخـس ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللهم قد بلغت، فـأنت خير الشـاهدين، فاحذروا المـعاطب التى توجب فى الشقاء الخلود، وتستدعى شوه الوجـوه، ونضج الجلود، واستعيذوا برضا الله من سخطه واربئوا بنفوسكم عن غمطه، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيـفة العرض الزائل ائتلافكم، واقنعوا منه بما تيسر، ولا تـأسوا على ما فات وتعذر، فـإنما هى دجنة ينسخهـا المصباح، وصفقـة يتعقبـها الخسار والرباح، ودونكم عـقيدة الإيمان، فشـدوا بالنواجذ عليها، وكـفكفوا الشبه أن تدنو إليهـا، واعلموا أن الإخلال بشىء، من ذلك خرق لا يرفؤه عمل، وكل ما سوى الراعى همل، وما بعد الرأس فى صلاح الجسم أمل، وتمـسكوا بكتاب الله حفظـا وتلاوة، واجعلوا حمله عـلى حمل التكليف عـلاوة، وتفكروا فى آياته ومـعانيـه، وامـتثلوا أوامـره وانتهـوا عن نواهيه، ولا تتأولوه ولا تغلوا فيه، وأشْرِبوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه، وأكثر من بواعث حبـه، وصونوا شعائر الله صون المحتـرم، واحفظوا القواعد التى ينبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

الله الله فى الصلاة ذريعة التجلة، وخاصة الملة، وحاقنة الدم وغنى المستأجر المستخدم، وأم العبادة، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر مهما عرض الشيطان عرضهما، ووطأ للنفس الأمارة سماءها وأرضهما، والوسيلة إلى بَلّ الجوانح ببرود الذكر، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضابطة حسن العشرة من الجار، وداعية المسالمة من الفجار، والواسمة بسمة السلامة والشاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا شانه طبع، والخير الذى كل خير له تبع، فاصبروا النفس على وظائفها بين إبداء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية، [وتؤثروا على العَلِية الدنيّة][1]؛ فإنَّ أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس، والفلك بها من أجلكم لا يحبس، وإذا قرنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الذى لا غيره الغدو والأصيل، والوظائف بعد أداتها لا تفوت، وأين حق من يموت، من حق الحى الذى لا يموت؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحق الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح مع إضاعة رأس المال، وثابروا عليها فى الجماعات، وبيوت الطاعات، فهو أرفع للملام، وأظهر لشرائع الإسلام، وأبر بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض.

والطهارة التى هى فى تحصيلها سبب موصل، لمشروطها محصل، فاستوفوها، والأعضاء نظفوها، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها، والحجول والغرر فأطيلوها، والنيات فى كل ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، والسيف برئاسه. واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا

---

(١) التكملة عن نفح الطيب ج٧ ص ٣٩٧.

يضبطها إلاّ من ضبط نفسه بعقال، وكان فى درجة الرجولة ذا انتقال، واستعاض صداه بصقال، وإن تراخى تقهقر الباع، وسرقته الطباع، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع.

والزكاة أختها الحبيبة، ولدتها القريبة، مفتاح السماحة بالعرض الزائل، وشكران المسئول على الضد من درجة السائل، وحق الله فى مال من أغناه، لمن أجهده فى المعاش وعناه، من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه، ولا علة القدر الذى يخفيه، وما لم ينله حظ فلا خير فيه، فاسمحوا بتفرقتها للحاضر لإخراجها، واختيار عرضها ونتاجها، واستحيوا من الله أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشيطان كلما عذل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون، فوهب وأقدر، وأورد بفضله وأصدر، ليرتب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نواله.

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زلفى، الممحوضة لمن يعلم السر وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد وإيثار السهاد على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه [المرعية، ولواحقه][1] الشرعية، فبذلك تحسن الوجوه وتحصل النفوس من الرقة على ما ترجوه، وتهذب الطباع، ويمتد فى ميدان الوسائل إلى الله الباع.

والحج - مع الاستطاعة - الركن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب، وقد بين رسول الله ﷺ قدره فيما فرض عن ربه وسنه وقال: ليس له جزاء عن الله إلاّ الجنة.

---

(١) التكملة عن نفح الطيب ج٧ ص ٣٩٩.

ويلحق بذلك الجهاد فى سبيل الله وإن كانت لكم قوة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممن يسمع نفيره ويطيعه، وإن عجزتم فأطيعوا من يستطيعه.

هذه عُمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناوئكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مبدِّلين ولا مغيرين، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين.

واعلموا أن بالعلم تستكمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلا بين يدى الشافع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللباب، والله عز وجل يقول: ﴿...هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝﴾ [الزمر]. والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة، وشرطه الخشية لله والخيفة، وخاصة الملأ الأعلى، وصفة الله فى كتبه التى تتلى، والسبيل فى الآخرة إلى السعادة، وفى الدنيا إلى التجلى عادة، والذخر الذى قليله يشف وينفع، وكثيره يعلى ويرفع؛ لا يغصبه الغاصب، ولا يسلبه العدو المناصب، ولا يبتزه الدهر إذا مال، ولا يستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله، وقليل وإن جم ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطى حسابكم، فالتمسوه لبنيكم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودرسه، واجعلوا طباعهم ثَرًى لغرسه، واستهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه، وسهر يهجر له الجفن كراه، تعقدوا لهم ولاية عز لا تعزل، وتحلوهم مثابة رفعة لا يحط فارعها ولا يستنزل، واختاروا من العلوم التى ينفقها الوقت، ما لا يناله فى غيره المقت، وخير العلوم علوم الشريعة، وما نجم بمنابتها المريعة من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد محصولها، فإنما هى آلات لغير، وأسباب إلى خير منها وخير،

فمن كـان قابلا منها لازدياد، وألفى فـهمه ذا انقـياد، فليخص تجـويد القرآن بتقـديمه، ثم حفظ الحـديث ومعرفة صـحيحه مـن سقيمـه، ثم الشروع فى أصول الفقه، فهـو العلم العظيم المنة المَهْدُِي كنوز الكتاب والسنة، ثم المسائل المنقولة، عن العلماء الجلة، والتـدرب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة، وهذه هى الغاية القـصوى فى الملة، ومن قـصر إدراكه عن هذا المرمى وتقـاعد عن التى هى أسمى، فليرو الحـديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه، وليـقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه، وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة فأكثـرها لا يفيد إلاّ تشكيكا، ورأيا ركـيكا، ولا يثمر فى العاجلة إلاّ اقـتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصغار وخمول الأقدار، والخسف من بعد الإبدار، وجادة الشريعة أعرق فى الاعتدال، وأوفق من قطع العـمر فى الجدال، هـذا ابن رشد قاضـى المصر ومـفتيـه، وملتمس الـرشد ومؤتيـه، عادت عليه بالسـخطة الشنيعة، وهو إمـام الشريعة، فلا سـبيل إلى اقتحـامها، والتورط فى ازدحامـها، ولا تخلطوا سامكم بحامهـا، إلاّ ما كان من حساب ومـساحة، وما يعود بجدوى فـلاحة، وعلاج يرجى على النفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور.

وأمروا بالمعـروف أمرا رفيـقا، وانهوا على المنكر نهـيا حريا بالاعـتدال حقيقا، واغبطوا من كان سنة الغفلات مـفيقا، واجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا تسلكوا منه طريقا، وأطيعوا أمر من ولاه الله من أموركم أمرا، ولا تقربوا من الفتنة جمرا، ولا تدخلوا فى الخلاف زيدا وعمرا.

وعليكم بالصدق فهو شعـار المؤمنين، وأهم ما أضرى عليه الآباء السنة البنين، وأكـرم منسوب إلى مـذهبه، ومن أكـثر من شىء عـرف به. وإياكم

والكذب فهو العورة التى لا توارى، والسوءة التى لا يرتاب فى عارها ولا يتمارى، وأقل عقوبات الكذاب، بين يدى ما أعد الله له من العذاب، ألا يقبل صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحق قد نطق.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفى وجه الديانة كُلُوم، ومن الشريعة التى لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة، ولا توجدوا للغدر قبولا، ولا تقروا عليه طبعا مجبولا، وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسئولا، ولا تستأثروا بكنز ولا خَزْن، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين فى سهل ولا حَزْن، ولا تبخسوا الناس أشياءهم فى كيل أو وَزْن واللهَ اللهَ أن تعينوا فى سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أن الإنسان فى فسحة ممتدة، وسبيل الله غير منسدة، ما لم ينبذِ إلى الله بأمانة، ويغمس فى الدم الحرام بيده أو لسانه، قال الله فى كتابه الذى هدى به سننا قويما وجلى من الجهل والضلال ليلا بهيما: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء].

واجتناب الزنا وما يتعلق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد فى سبيل السعادة باعه، ولو لم تتلق نور الذى لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحبّ أن يُزْنى بأهله؟ والله قد أعد للزانى عذابا وبيلا، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء].

والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، واللهو لم يجعله الله فى الحياة شرطا، والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذى سوغ وأعطى، وقد تركها فى الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم الفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة فى مرضاة

الأجسادِ، والله جعلهـا رجسا محرما على العبـاد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السداد.

ولا تقربوا الربا فإنه من منـاهي الدين، والله تعالى يقول: ﴿...وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة]. وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ... ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة] في الـكتاب المبين. ولا تأكلوا مال أحـد [بغير حق يبيحه][1] وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه، والـتمسوا الحلال يسعى فـيه أحدكم على قـدمه، ولا يكل اختيـاره إلاّ للثقة من خـدمه، ولا تلجئوا إلى المتـشابه إلاّ عند عدمه، فهـو في السلوك إلى الله أصل مشروط، والمحافظ عليه مغبوط.

وإياكم والظلـم، فـالظلم ممقـوت بكل لسـان، مـجـاهر لله بصـريح العصيان، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان، والنميمة فساد وشتـات، لا يبقى عليه متّات، وفي الحـديث: «لا يدخل الجنة قتات». واطرحوا الحسد فـما ساد حسود، وإياكم والغـيبة فباب الخير عنـها مسدود، والبخل فما رئي البخيل وهو مودود، وإياكم وما يعتذر منه فموقف الخزى لا تستقـال عثراتها، ومظنات الفضـائح لا تؤمن غمراتها، وتفـقدوا أنفسكم مع الساعات، وأفـشوا السلام في الطرق والجماعـات، ورقوا على ذوى الزمانات والعاهات، وتاجروا مع الله بالصـدقة يربحكم في البضاعـات، وعولوا عليه وحده في الشدائد، واذكروا المساكين إذا نصبـتم الموائد، وتقربوا إليهم باليسير من ماله، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله، وارعوا حقـوق الجار، واذكـروا ما ورد في ذلك من الآثار وتعـاهدوا أولى الأرحام، والوشائج البادية الالتـحام، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطـع الظهر، وتفسد السر والجـهر، والرشـا فإنهـا تحط الأقدار، وتسـتدعى المذلة والصـغار، ولا

(١) تكملة عن نفح الطيب ج٧ ص ٤٠٢.

تسامحوا فى لعبة قَمْر، ولا تشاركوا أولى البطالة فى أمر، وصونوا المواعد من الإخلاف، والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف، وحقوق الله من الازدراء والاستخفاف، ولا تلهجوا بالآمال العجاف، ولا تَكْلَفوا بالكهانة والإرجاف، واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتداعاد، واعلموا أن الله بمرصاد، وأن الخلق بين زرع وحصاد، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم، واحذروا القواطع عن السعادة كما تحذر السموم، واعلموا أن الخير أو الشر فى الدنيا محال أن يدوم، وقابلوا بالصبر أذية المؤذين، ولا تقارضوا مقالات الظالمين، فالله لمن بُغى عليه خير الناصرين، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت، ولا تضجعوا للأمراض إذا أعضلت، فكل منقرض حقير، وكل منقض وإن طال فقصير، وانتظروا الفرج، وانتشقوا من جناب الله الأرج، وأوسعوا بالرجاء الجوانح، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح][(١)]، وتضرعوا إلى الله بالدعاء، والجئوا إليه فى البأساء والضراء، وقابلوا نعم الله بالشكر الذى يقيد منها الشارد، ويعذب الموارد، وأسهموا منها للمساكين، وأفضلوا عليهم، وعينوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار: «يا عائشة أحسنى جوار نعم الله فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم». ولا تطغكم النعم فتقصروا فى شكرها، وتلفكم الجهالة بكسرها، وتتوهموا أن سعيكم جلبها، وجدكم حلبها، فالله خير الرازقين، والعاقبة للمتقين، ولا فعل إلاّ لله إذا نظر بعين اليقين. والله الله لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تذهبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كل منكم لأخيه، ما يشتد به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبر، ومراعاة فى علانية وسر، وللإنسان مزية لا تجهل، وحق لا يهمل، وأظهروا التعاضد والتناصر، وصلوا التعاهد والتزاور، ترغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء، ولا تنافسوا فى الحظوظ السخيفة، ولا تهارشوا تهارش السباع على الجيفة، واعلموا أنَّ المعروف يكدر

(١) التكملة عن نفح الطيب ج٧ ص ٤٠٣.

السخيفة، ولا تهارشوا تهارش السباع على الجيفة، واعلموا أنَّ المعروف يكدر بالامتنان، وطاعة النساء شـر ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم مـعروفا فلا تذكروه، وإذا برز قبح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمرا فاحقروه، والله الله لا تنسوا مـقارضة سجلى، وبروا أهل مـودتى من أجلى، ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذى لا يصلح لغير الجـهاد، فلا يستهلك أجمع فى العقار فيصـبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعيـا لنفسه إن تغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافـتقار، ومعوقا عن الانتقـال، أمام النوب الثقال، وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال فى الطلب أولى، وازهدوا جهدكم فى مصاحبة أهل الدنيا، فخيرها لا يقوم بشرها، ونفعها لا يفى بضرها، وأعقاب من تقـدم شاهدة، والـتواريخ لهـذه الدعـوى عاضـدة، ومن بلى منكم بهـا فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلل من المال، ويحذر معاداة الرجال، ومزلات الإذلال، وفساد الخيال، ومداخلة العـيال، وإفشاء الأسرار، وسكر الاغترار، وليصن الديانة، ويؤثر الصمت ويلزم الأمانة، ويسر من رضا الله على أوضح الطرق، ومهما اشتبه عليه أمران قـصد أقربهما إلى الحق، وليقف فى التماس أسباب الجلال، وسمو القدر ورفعة الحـال دون الكمال، فما بعد الكمال غير النقـصـان، والزعـازع تسالـم اللدن اللطيف من الأغـصـان. وإياكم وطلب الولايات رغبـة واستـجلابا، واستظهـارا على الحظوظ وغلابا، فـذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضح والعار، ومن امتحن منكم بها اختيار، أو جبر عليها إكراها وإيثار، فليتلق وظائفها بسـعة صدره، وليبذل من الخير فيها ما يشهد أنَّ قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهى بين إخطاء سعادة، وإخلال بعـادة، وتوقع عزل، وإدالة رخاء بأزْل، وبيع جد من الدنيا بـهزل، ومزلة قـدم، واستـتباع ندم، ومـآل العمـر كله فوت ومـعاد، واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله ممن نفعه بالتصبير والتنبيه وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه.

هذه أسعدكم الله وصيتى التى أصدرتها، وتجارتى التى لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم من لآليها النفيسة القيم استكثرتم، من بواعث الندم، ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أن تقوى الله فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتى عليكم فى كل حال، فالدنيا مُناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء دار البقاء جعلها الله من وراء خطة النجاة، ونفق بضائعها المزجاة، بلطائفها المرتجاة، والسلام عليكم من حبيبكم المودع، والله يلأمه حيث شاء من شمل متصدع؛ والدكم محمّد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته.

انتهت الوصية، وهى غريبة فى معناها.

قلت: ولأجل ذلك كان شيخنا الفقيه الإمام القاضى العلامة سيدى عبد الواحد الوانشريشى رحمه الله، كثيرا ما يدخل منها فى خطبه، على مالا يخفى على من طالعها، وإلى الله ترجع الأمور.

وإذ بلغنا فى ترجمة ابن الخطيب إلى هذا الحد الذى يستطيل الناظر فيه، وهو والله يتمم التعريف بابن الخطيب ولا يوفيه، فلنذكر القاضى النباهى والكاتب ابن زَمْرك، اللذين كان لهما مع ابن الخطيب أول الأمر مصافاة ومتَات، ثم استحالت إلى ما علمت من العداوة ذات البتات.

***

انتهى الجزء الأول من أزهار الرياض فى أخبار عياض ويليه الجزء الثانى، وأوله: أخبار القاضى النباهى.

# أهم مراجع التحقيق


- الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب، مكتبة الخانجى، القاهرة ٢٠٠١م.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى، الدار البيضاء ١٩٩٧م.
- تاريخ ابن خلدون، طبعة بولاق ١٢٨٤هـ.
- الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب، بيروت ١٩٦٣م.
- المعجم فى أصحاب الصدفى مصورة عن طبعة أوروبا، الثقافة الدينية بالقاهرة ٢٠٠٠م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى، بيروت ١٩٦٨م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتى، الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، دار صادر بيروت ١٩٨٣م.

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

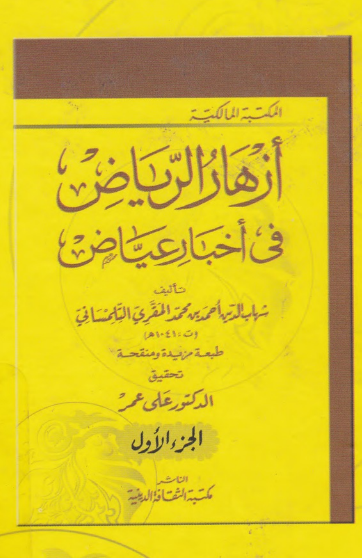
| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com







الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١
فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com